

فرننان برودل

هوية فرنسا

المجلد الثاني: الناس والأوسياء

ترجمة: بشير السباعي



المجلس
الأعلى
للثقافة



المشروع القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

هوية فرنسا

المجلد الثاني

الناس والأشياء

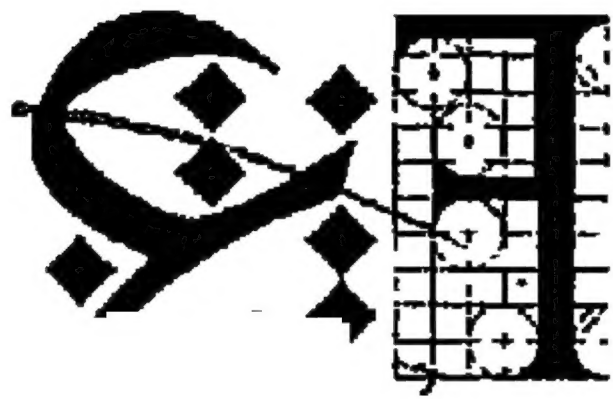
الجزء الأول

تأليف

فرنان برودل

ترجمة

بشير السباعي



المركز الفرنسي للثقافة والتعاون



القاهرة

٢٠٠٠

هذه ترجمة لكتاب:
L'IDENTITÉ DE LA FRANCE
Les hommes et les choses

*

تأليف:
FERNAND BRAUDEL
إصدار:
FLAMMARION
Paris, 1995

لوحة الغلاف:

ف. فان جوخ، جسر لانجولو، ١٨٨٨.

تمهيد

"تكمّن الصعوبة في العثور
على الافتراضات التي لها
صلة بالواقع" (١)
جوان روبنسون

في الفصول السابقة (في المجلد الأول من هذا الكتاب)، حاولت وضع تاريخ فرنسا في سياقه المكاني - وهو سياق مكاني جد واسع وجد ثري في تبايناته، مما ترتب عليه وجوب أن تحيا "فرنسات" عديدة جنباً إلى جنب. وإذا كنا ندرس هذا التاريخ نفسه الآن ضمن أطره الزمانية الرئيسية، فسوف نكتشف هذه المرة سلسلة من الفرنسات المتعاقبة، المتشابهة وغير المتشابهة في الوقت نفسه، والتي تعرف، بشكل تناوبي، الاتساع أو الانكماش، والسعادة أو العذاب، والامتياز أو الحرمان. والحال أن هذا التعاقب للمجريات الواقعية وللتحولات، أو ما أفضل تسميته بالدورات الشاملة، هو ما أود رصده هنا، إذ أن بالإمكان النظر إليها بوصفها علامات كثيرة في الزمن، بل وربما بوصفها تفسيرات. ففي جزرها ومدّها، أثارت هذه الدورات جماهير تاريخنا الحية، مثلما تثير الأمواج مياه البحر.

كنت في الأصل قد عنونت الجزء الأول من هذا المجلد بـ "الدورات الطويلة الأجل في التاريخ الفرنسي". ثم خشيت من احتمال أن يؤدي هذا العنوان إلى التباس، حيث إن كلمة دورة، كقاعدة، لا تستخدم عادة إلاّ من جانب الاقتصاديين. وفي لغتهم، تحكي كل دورة حكايةً من فصلين، رحلة صاعدة ورحلة هابطة، مع ذروة في المنتصف. أولاً تجيء المرحلة الصاعدة، النمو الصاعد؛ ثم المرحلة الهابطة، الركود، بينما ترمز الذروة إلى الخط الفاصل. والصعود يبدأ من نقطة منخفضة، بينما ينتهي الهبوط عند نقطة منخفضة أخرى. وأنا أنوي بالفعل تتبع تذبذبات هذا النموذج العام، ولكن مع عمل ذلك على الأجل الطويل، وهو شيء لم يحاوله عادة الاقتصاديون أو حتى المؤرخون. ومع ذلك فإنني أعتقد مخلصاً أن التاريخ يحتاج إلى هذا المفهوم وإلى الإطار التصوري المخاطر نوعاً ما والذي ينطوي عليه.

ولنكن واضحين بشأن ما نتحدث عنه: إن هذه الدورات الطويلة، التي تغطي عدة

قرون، ليست ذات منشأ اقتصادي بشكل خالص. إنها لا تتطابق مع مادية تاريخية تفترض أن الاقتصاد هو السبب الأساسي والقوة المحركة لكل وجود بشري. فكما هي الحال دائماً، تختلط الأسباب والنتائج وتترابط في نسق تفاعلي حيث يمكن لكل شيء أن يصبح بدوره سبباً أو قوة محركة أو نتيجة. والحال أن أية فترة لانحطاط طويل الأمد وأي ارتفاع طويل الأجل في المستويات المعيشية وأي ركود اقتصادي لا يصحح نفسه في الأجل القصير إنما يعني بالضرورة اجتماع عوامل قد تشمل كل شيء: السياسة، المجتمع، التكنولوجيا، الحرب، وهلمجرأ. إن المركب ككل هو الذي إما أن يتوقف عن العمل بشكل ملائم ويبدأ في تدمير نفسه، أو يستعيد بدلاً من ذلك قدراته ويحفز استعادة النشاط. وبعبارة أخرى، فإن من السهل تماماً رؤية الانحطاط العام أو الإحياء العام، مع أنه قد يكون من المستحيل عملياً تحديد أسبابهما الحقيقية.

وفي الختام، فإنني واثق من أن القاريء العام سوف يكون على علم كاف بلغة الاقتصاد (ولو من صحيفته اليومية) بحيث يقبل توسيع المعنى الذي أعطيته لكلمة الدورة. وقد يكون المؤرخون أكثر عزوفاً عن قبول هذا التوسيع. فنحن على أية حال قد اعتدنا من الناحية المهنية على أن ننظر في الوقت الواحد إلى واحدة من "الفرنسات" المختلفة التي تعاقبت واحدة إثر الأخرى: وصفوفنا تضم متخصصين في ما قبل التاريخ أو غاليا المستقلة أو الفترة الغالية - الرومانية، ومتخصصين في العصر الوسيط وفي العصر الحديث وهلمجرأ. وهذا صحيح ومناسب. لكن هذه الفرنسات المختلفة كلها يجب، بشكل ما، الجمع فيما بينها. فهل من الشطط زعم أن تاريخها هو بشكل ثابت تاريخ دوري؟ إن كل واحدة منها تولد وتزدهر ثم تنحط. وكل واحدة منها تعقب سابقتها، ولكن دون أي انقطاع.

وإذا كنت قد اخترت في هذا المجلد الثاني أن أتكلم بلغة الديموجرافيا والاقتصاد حتى يتسنى لي عرض الخطوط العريضة للماضي، فإن ذلك إنما يرجع إلى أنهما يقدمان لنا العلامات الأكثر وضوحاً، والأيسر على التقييم، لهذه الحركات العميقة. كم كان عدد الناس في الماضي؟ وكيف تسنى لهم أن يحيا وأن يواصلوا البقاء، بينما كانت عوامل مادية ترغمهم أحياناً على التحرك إلى الأمام أو إلى الوراء من الموقع الذي كانوا قد بلغوه؟ إن السكان (أو، بتعبير أندريه پياتيه: "رأس المال البشري") يمكن أن يكونوا مؤشراً رئيسياً: إنهم، كما يقول جي بوا(٢)، "المعيار الأقل تعسفاً من بين جميع المعايير". ومن ثم فإن الفصلين الأولين (١، ٢) من هذا المجلد مكرسان للسكان

بالدرجة الأولى : العدد والتقلبات الطويلة منذ ما قبل التاريخ إلى العام ألف . العدد والتقلبات الطويلة منذ العام ألف إلى أيامنا . أمّا الفصلان الثالث والرابع فهما مكرسان للاقتصاد تحت العنوان الذي سوف أشرحه في الوقت المناسب : اقتصاد فلاحي حتى القرن العشرين - البنى التحتية . اقتصاد فلاحي حتى القرن العشرين - البنى الفوقية .

الجزء الأول

العدد والتقلبات الطويلة

الفصل الأول السكان منذ ما قبل التاريخ إلى العام ألف

تذهب تقديرات غير متزنة، إن كانت على أية حال قادرة على مساعدتنا على تكوين صورة، إلى أن العدد الإجمالي للبشر الذين سبقونا على الأرض منذ أن تأكد النوع البشري، أي منذ أن أصبح الإنسان إنساناً، إنما يتراوح بين سبعين ومائة مليار. فياله من رقم خرافي! وقد كتب إليّ الفريد سوفي مازحاً: "أين يا ترى سوف يتواجد مكان لهذه المليارات من البشر في يوم الحساب الأخير؟" (١). ووفقاً لهذه التقديرات، ربما جاز تصور أن إجمالي نحو مليار إنسان قد عاشوا في أوقات مختلفة على الأرض "الفرنسية"، حيث تنفسوا وعملوا وتركوا ميراثاً، وإن كان طفيفاً، يمكن دمجهم في موروثة الضخم. واليوم يحيا في فرنسا نحو خمسين مليوناً من الناس؛ ومن شأن الموتى أن يُضاعفوا هذا الرقم بنحو عشرين مرة. ولا يجب أن ننسى أنهم مازالوا موجودين "تحت أقدام الأحياء". إن تربة مزرعة كروم في شامبانيا أو ميدوك أو في بروجونيا، "هي تربة اصطناعية، صاغتها ألفا سنة أو نحو ذلك من سنين العمل" (٢).

ولذا فليس غريباً أن الأرض التي نطلق عليها فرنسا قد جرى حرثها على مدار آلاف السنين، أو أنها قد أصبحت تدريجياً مغطاة بالطرق وبالدروب وبالأكواخ وبالسيوت وبالقري الصغيرة وبالقري والمدن - "مزرعة بالفلاحين"، كما تجاسر أحدهم يوماً على القول. والحال أن مجرد عدد الناس قد أدى إلى إيجاد اختلاف منذ البداية، مؤثراً على مسار الأحداث، ومكرساً نجاحات التاريخ، بل ونجاحات ما قبل التاريخ، سواء فكرنا في أمجاد لاسكو، العصر الذهبي للأضرحة أو للأنصاب الحجرية قبل التاريخية، أو أمجاد العمارة الرومانية أو القوطية... كما أن حجم السكان، والذي يضاعف كل شيء، قد لعب دوره في انتشار الدين، وتقدم الدولة، والرأسمالية الجديدة للمدن - الدول الإيطالية منذ القرن الثاني عشر وهلمجرأ. وقد عمل أحياناً في الاتجاه الآخر، خلال تلك الانهيارات أو التقهقرات التي كان مalthus نبيها المتشائم.

لا يمكن لأحد اليوم أن يعجز عن رؤية أن حجم السكان يملك تأثيراً قوياً على مصائر العالم: في عام ١٩٨٠، عاش على الأرض أربعة مليارات وأربعمئة ألف من

البشر. ووفقاً للخبراء الذين يصعب (للأسف) أن يكونوا مخطئين تماماً، فإنه "بحلول عام ٢٠٠٠، سوف يكون هناك ستة مليارات على الأقل، وبشكل واقعي، فمن غير المرجح أن يستقر العدد عند أقل من عشرة أو أحد عشرة ملياراً" (٣) في القرن القادم. وفي القرن السابع عشر، ساد الاعتقاد بأن القوة تكمن في الأعداد. وقد لاحظ الاقتصادي الفرنسي آنج جودار في القرن الثامن عشر "إن القاعدة الأوسع شيوعاً في السياسة إنما تتمثل في أن العدد الكبير من السكان هو وحده الذي يمكنه خلق دولة جبارة". وقد تساءل: ما هي "المصالح الحقيقية لملوكنا؟". وأجاب: "إن قوتهم تكمن في عدد رعاياهم" (٤). لكن الأرقام لها أيضاً مثالبها: فمن الذي يجرؤ اليوم على تطبيق صيغ جودار على الحاضر، حيث ندرك كلنا المشكلات التي تواجهها الهند أو الصين في حاجتهما إلى تحقيق انخفاض حاد في معدل المواليد؟

لم تكن تلك هي الحال في الماضي بلا شك. ليس لأن فيض السكان النسبي لم يمارس من حين لآخر مثالبه. وإنما لأن المجاعات والأوبئة كانت تتكفل بعلاج هذه المثالب. وفي الأزمنة الحديثة وحدها، أخذنا نشهد تزايد سكان العالم بشكل متواصل، وإن لم يكن بشكل منتظم، حيث لا يوجد، على الأقل، ركود شامل.

I

حول السكان في الأزمنة قبل التاريخية

"إن الموقف الذي يتألف من الاعتراف
بصدارة التاريخ على كل ما سبقه
هو موقف غير نزيه، ثم إنه، علاوة
على ذلك، يفتقر إلى الصرامة العلمية".
جان ماركال(٥)

لا تقولوا أبداً إن ما قبل التاريخ ليس تاريخاً. لا تقولوا أبداً إنه لم توجد غالباً قبل
غالباً أو فرنسا قبل فرنسا. أو تحاولوا نفي أن سمات كثيرة لكل من غالباً وفرنسا يمكن
تفسيرها بآلاف السنين التي ترجع إلى ما قبل الفتح الروماني. بل فكروا بالأحرى في
"مجمل فعل الأزمنة قبل التاريخية، خلال العصر الأطول للجنس البشري" - كما خطر
ببال نيتشه في وقت من الأوقات(٦). إن امتدادات للزمن المعيش يتعذر تخيلها، متراكمة
الواحد فوق الآخر، إنما تترامى إلى زمننا الحاضر، بالرغم من أننا قد لا نكون على
علم بها. فكيف إذاً يمكن نفي الصلة، الاستمرارية بين التاريخ وما قبل التاريخ؟ في
وقت من الأوقات، إعتاد المؤرخون على ربط مجدهم بالقدرة على أن يستكشفوا، من
كل من الجانبين، الحدود المصطنعة المقامة بين العصر القديم والعصور الوسطى(٧)،
أو بين العصور الوسطى والعصر الحديث. والحال أن التحدي الكبير لزماننا لا بد
بالتأكيد من أن يكون هو الحد الفاصل بين ما قبل التاريخ والتاريخ.

لسوء الحظ، لا ترجع دراسة ما قبل التاريخ إلا إلى قرن ونصف قرن بالكاد. ففي
عام ١٨٣٧، اكتشف بوشيه دو بيرت لأول مرة أدوات صوانية مطمورة في الضفاف
الغرينية لنهر السوم نحتها بشر قبل تاريخيين وجرى تمييزها بهذه الصفة - أي ميزها بهذه
الصفة مكتشفها، لأن بوشيه دو بيرت وجد صعوبة كبيرة في إقناع أي أحد آخر
باستنتاجاته حتى عام ١٨٦٠ على الأقل. فالحال أن المجلدات الأولى من عمله آثار
سلتية وعتيقة، المنشورة في عام ١٨٤٧ وأعوام تالية، قد قوبلت بالشك وبالاستهزاء
عينهما اللذين قوبل بهما أصل الأنواع لداروين في عام ١٨٥٩. وفي العام نفسه، عام
١٨٥٩ اجتاز عالمان إنجليزيان بارزان المانش لكي يدرسا اكتشافات بوشيه دو بيرت

ومنحاه تأييدهما^(٨). وكان مثل هذا التأييد خطوة ثورية، ذلك أن الاعتراف ببشرية آثار كائنات عاشت في ذات الوقت الذي عاشت فيه أنواع حيوانية منقرضة الآن، كان يعني بالضرورة إعادة وضع أصول البشرية في ماضٍ أبعد وكان هذا يعني بدوره الإطاحة بافتراضات سادت لزمان طويل، مما يشكل ثورة في الفكر يصعب علينا اليوم تخيلها. فقبل ذلك، كان العلماء أنفسهم يقبلون التفسيرات التقليدية للتوراة، والتي تذهب إلى أن الإنسان لم يُخلق إلاّ منذ أربع آلاف سنة قبل ميلاد يسوع المسيح. والحال أن اسحق نيوتن، الذي كان مهتماً بأشياء أخرى إلى جانب الرياضيات وعلم الفلك، كان قد عرّضَ لوابل من السخرية التواريخ التي سجلها الكتاب المصريون القدماء الذين قال إن الغرور قد وصل بهم إلى حد الزعم بأن مملكتهم القديمة "أقدم بعدة آلاف من السنين من العالم"^(٩) (قياساً إلى حساب التفسيرات التوراتية التقليدية لزمان العالم بالطبع). - المترجم).

وهكذا ففي غضون عقود قليلة، بفضل عمل بوشيه دو بيرت وبالأخص بفضل عمل معاصره تشارلز داروين، وقد أُعتبر كلاهما في حياتهما نصابين بشكل أو بآخر، جرى توسيع مدى التاريخ البشري توسيعاً يجاوز الخيال يمتد إلى أزمنة سحيقة في الماضي، أكان فيما يتعلق بأصول البشرية أو بالأشكال الأولى للزراعة وللقرى الأولى وللمدن الأولى. وبطبيعة الحال، فقد اتسع، إلى جانب سواه، موضوعنا الراهن، أي تاريخ فرنسا.

وكما هي الحال دائماً، وبشكل منطقي تماماً، لأن الأمر يتعلق بانتقال من مجال ثقافي إلى آخر، فإن هذه المنظورات عن ما قبل تاريخ جديد تماماً لم تؤرق المؤرخين آنذاك على الفور: فبالنسبة لهم، ظلت المنظورات الجديدة مسألة قليلة الأهمية أو عديمة الأهمية تماماً، وغائبة في ضباب الزمن. وفي أفضل الأحوال، جرى التعامل معها على سبيل التمهيد، حيث يشار إليها في حاشية تلميحية أو في قليل من الصفحات التمهيدية، قبل الدخول في السرود التاريخية العادية من جديد، وكأن شيئاً لم يحدث. إلاّ أنه بما أن ما قبل التاريخ قد بدأ في طرح المزيد والمزيد من الشواهد والتقديرات والافتراضات، فقد أخذ في الواقع يحفر حفرة لا قاع لها، تسبق زمنياً قرون التاريخ المسجل. ولتأخذوا بعين الاعتبار أن التاريخ كما نحسبه عادة لا يمثل غير أقل من واحد على ألف من الزمن الإجمالي للتطور البشري. وحتى لكي يصبح ذلك التطور قابلاً للتخيل، كان لابد من الجمع بين مختلف العلوم التي تسنى لدارسي ما قبل

التاريخ الاستفادة منها: الباليولوجيا (دراسة الرواسب اللقاحية القديمة) والباليونتولوجيا والتشريح المقارن والهيمايتولوجيا الاستراتيجية والجيولوجيا وعلم الحيوان وعلم النبات وأيضاً، مؤخراً جداً، دراسة الشعوب البدائية الحالية، وأخيراً الايثولوجيا (علم سلوك الحيوان)، لأن الجنس البشري، الغارق في الطبيعة، والمتروك لقواه المحدودة، كان، على مدار المليارات من السنين، نوعاً حيوانياً بين الأنواع الأخرى، غير قادر على البقاء مثلها إلا بفضل روابطه الاجتماعية، المشابهة لروابط المجتمعات الحيوانية.

وكل هذه الاسهامات العلمية لا تسهل مهمتنا: إذ لابد على أية حال من إعادة تفسيرها. وكما أشار كولن رنفرو، فليس بوسعنا أن نتوقع من العلوم المتصلة تقديم "إجابة جاهزة" عن تساؤلاتنا (١٠). ثم إن التطور الأحداث للمناهج الجديدة لتحديد التواريخ (عن طريق الكربون ١٤، أو البوتاسيوم - أرجون، أو الدندروكرونولوجيا، دراسة طبقات خشب الأشجار الحولية التي يمكن بها تقدير عمر الأشجار، أو مناهج أخرى أكثر حذقاً بكثير) قد أدى إلى إعادة تقدير عميقة ومحيرة للأطر الزمانية ولأنماط التأثير الثقافي التي حددها جيلان أو ثلاثة أجيال سابقة من مشغلي بارزين في حقل ما قبل التاريخ. والحال أن ما قبل تاريخ أوروبا بوجه خاص قد تعينت إعادة تفسيره منذ البداية (١١).

وكل هذه الظروف تجعل ما قبل التاريخ علماً مثيراً وفاتناً وإن كان ساحة مأكرة أيضاً: إنه لا يسمح لنا بالاقتراب من الحقيقة إلا عبر تتابعات أليمة للأخطاء وللتصويبات وللافتراضات المؤقتة. إنه علم خاضع لمراجعة متصلة ولتجديد متواصل.

وفرة زمانية

فيما يتعلق بالمسألة الأساسية بالفعل، مسألة أصول الجنس البشري، لا يمكن قول شيء بيقين. فالاكتشافات التي تتم في قارة بعد أخرى إنما تؤدي بشكل متواصل إلى تعديل الصورة الإجمالية التي تسهم كلها في رسمها.

وفي الحالة الحاضرة لمعارفنا، فإن السعي إلى تتبع آثار الشجرة البشرية بالعودة إلى فروعها الأولية وشبه البشرية عبر نوع بشر إفريقيا الشرقية الاستراليين (وتبعاً للتعريف الذي قد نقبله في تلك الأثناء لأشباه البشر الأوائل) (١٢)، إنما يمضي بنا إلى خمسة أو خمسة عشر أو حتى أربعين مليوناً من السنين قبل يسوع المسيح. وكما لاحظ جابريل كامبس مستسلماً، فمع كل اكتشاف جديد "تتهقر أصولنا

أبعد فأبعد في الماضي" (١٣).

بيد أننا لو قصرنا تساؤلاتنا على الـ **Homo** (الإنسان) بشكل محدد، فإن التفكير الحالي يرجع ظهور الجنس البشري إلى اللحظة التي انتصب فيها النوع - أي إلى مليوني سنة خلت، أو ربما إلى وقت أسبق قليلاً. والحال أن هذا الكائن المنتصب الأول (**Homo habilis**)، لم يكن أول مخلوق يشكل الصخور لكي يستخدمها كأدوات. ذلك أن بعضاً من نوع البشر الاستراليين كانوا قد فعلوا ذلك بالفعل. لكن الانتصاب حرر يدي هذا الكائن، واعتباراً من تلك اللحظة أيضاً أخذت سعة دماغه تتزايد بثبات، من ستمائة سنتيمتر مكعب في البداية إلى سبعمائة سنتيمتر مكعب (١٤). واجتماع هذا الدماغ عالي التطور، جهاز القيادة، مع اليد التي تخدمه، "هو الذي مكن الإنسان من تطوير قدراته العجيبة مختلفة الأنواع" - الضمير، الذاكرة، اللغة (١٥). وبعد الـ **Homo habilis**، الذي يبدو أنه ظهر لأول مرة في إفريقيا، جاء الـ **Homo erectus**، الذي سكن المناطق المعتدلة ثم جاء الـ **Homo sapiens**، وأخيراً جاء الـ **Homo sapiens sapiens** - حيث يشكل هذا الأخير آخر مراحل التطور - أنت وأنا.

وبقدر علمنا، فإن الـ **Homo erectus** ربما يكون قد وجد على الأرض "الفرنسية" نحو عام ١,٨٠٠,٠٠٠ قبل المسيح. ففي شيلاك، في اللوار الأعلى، في المسيف الأوسط، اكتشفت مؤخراً بعض "الكوارتزات التي لا شك في أنها قد شكلتها (يد بشرية) مع بقايا حيوانات من العصر الرابع القديم (Villafranchien)" (١٦). ويعتقد أن هذه هي أقدم آثار بشرية يتم العثور عليها حتى الآن في أوروبا. لكن الآثار المكتشفة في سوليلاك في الإقليم نفسه، والتي ترجع إلى نحو مليون سنة خلت، إنما تنقلنا إلى أرضية أكثر رسوخاً من الناحية الزمانية (١٧). ونجد علامة أخرى في المخلفات، التي ترجع إلى نحو ٩٥٠,٠٠٠ سنة، والتي اكتشفت خلال التنقيب الذي تم بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ في الكهف المعروف بالترو دي رينارد (وكر الثعالب)، بجوار الفالونيه، وهو نهر صغير في كومون روكبرين (آلب - ماريتيم). فهنا، تم العثور على بقايا حيوانات قديمة مختلفة - قرود الماكاك، **Elephas meridionalis**، جياد وقطط - إلى جانب عظام وصخور منحوتة نحتاً فجاً. ولم تكن هناك آثار بشرية، للأسف (فالصخور تبقى زمناً أطول من الهياكل الأحفورية) إلا أنه كان من الواضح أن الكهف قد عاش فيه بشر. وحتى الآن، فإن هذا الموقع هو أقدم موقع معروف سكنه الإنسان في أوروبا (١٨).

وعندما يتذكر المرء أن ما قبل التاريخ، على الأرض الفرنسية، يغطي الفترة الممتدة حتى العصر الحديدي المتأخر، نحو عام ٥٠٠ قبل ميلاد يسوع المسيح، فإنه يدرك أية فترة زمنية خيالية نتعامل معها: نحو مليوني سنة أو ألفي ألف سنة أو عشرين ألف قرن! ولكي نهتدي إلى طريقنا في هذه الامتدادات الزمنية الشاسعة والتي تتحدى الفهم والتخيل، يجب أن نعتمد أولاً على عون الجيولوجيين. لقد قاسوا العصور المتعاقبة التي عرفتها الأرض وخصصوا للتطور التاريخي للجنس البشري - للتأنس - مجمل العصر الرابع (أو البليستوسيني)، مضيفين إليه المرحلة الفيلافراشية (التي تنتمي إلى أواخر العصر الثالث) وخاصمين منها أواخر العصر الرابع، أي الفترة التي نحيا فيها الآن (والمسماة بالهولوسين).

وضمن هذا المدى الزمني الشاسع، يميز علم الجيولوجيا أربعة عصور جليدية طويلة، أطلق عليها البرشت بينك أسماء مجار مائية في الألب البافارية حيث رصد دلائل على تجلدات كبرى، قديمة جداً، وهي تعرف، بحسب ترتيبها الزمني بالجونز والمندل والرس والفورم. ويبدأ تجلد الجونز قبل نحو مليوني عام قبل ميلاد يسوع المسيح، في حين أن الفورم ينتهي في عام ١٠,٠٠٠ قبل ميلاد يسوع المسيح. وبين هذين الحدثين الجليديين، اللذين جاء كل منهما بشكل جد تدريجي، كانت هناك بالطبع فسحات زمنية بين العصور الجليدية ارتفعت فيها درجة الحرارة وكانت هذه الفسحات هي أيضاً طويلة جداً وغير منتظمة. ومن هنا الفترات الفرعية (رس ١ و ٢ و ٣؛ فورم ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥) والتي تتطابق مع سلاسل من التغيرات البطيئة في المناخ والتي كانت آنذاك شبه عصية على أن تكون ملحوظة، وإن كانت قد مثلت على نحو تراكمي انقلابات ضخمة (١٩). وقد انتقل البشر والحيوانات والنباتات شمالاً أو جنوباً تبعاً لما إذا كان السائد هو الدفء أم البرد: فالأنواع المعتادة على مناخ معتدل قد انتقلت إلى الجنوب فراراً من البرد، في حين أن الصيادين المعتادين على العيش على قطعان الرنة أو الخيول البرية قد تحركوا إلى الشمال مطاردين لها خلال الفترات الأكثر دفئاً. وكانت البيئة كلها تتحول في كل مرة.

ولكي نكون فكرة عما كان يعنيه ذلك (وبما أن ما حدث مرة في الماضي البعيد يمكن من الناحية النظرية أن يتكرر في المستقبل الأبعد) تخيلوا ما قد يكون عليه عصر جليدي جديد، بعد عدة آلاف أو مليون سنة من الآن، علي فرض أن القارات سوف تبقى في مواقعها النسبية الحالية (٢٠). في أوروبا، سوف تغطي طبقة كثيفة من الجليد

كل شبه الجزيرة الإسكندنافية وهولنده وألمانيا وبولندا وروسيا الشمالية والجزر البريطانية حتى لندن في اتجاه الجنوب. وسوف تنجو فرنسا من المجلّدات الضخمة، كما فعلت في الماضي، باستثناء المناطق الجبلية، الألب خاصة. لكن الحوض الباريسي، بما في ذلك باريس نفسها، ومعظم فرنسا، سوف يُغطيان مرة أخرى بتوندرا من النوع السييري أو بالسهب أو بالغابات. وسوف يكون هناك غزو جليدي، وغزو لحياة نباتية ولأشجار جديدة، مع ما يترتب على ذلك من نتائج لا نهائية بالنسبة للناس وللحيوانات وللعالم الطبيعي برمته. وإذا يتجمد السماء في أنهار جليدية ضخمة، فإنه سوف يتراجع إلى مستوى البحر، الأمر الذي سوف يكشف من جديد عن امتدادات عظيمة لأعماق بحرية، بما يؤدي إلى ربط جزر كثيرة، من بينها بريطانيا العظمى، بالقارة. وفي مقدمة أنهار الجليد، سوف تؤدي الركامات المجروفة إلى حشد كتل ضخمة من الانقراض الناتجة عن النحر الجليدي، في حين أن المادة السطحية الأرق سوف تجرفها الرياح بما يؤدي إلى تكوين مهاد من الرواسب، مثلما حدث في الماضي في الصين وعبر أوروبا. ومن المعروف أن رواسب حوض الدانوب أو سهل الألب وغرين الهضاب المحيطة بباريس هي من منشأ كهذا بالتحديد، والحال أن هذه التربات الخفيفة، سهلة الحراثة، كانت المواقع المختارة لزراعة الأرض في كل من فرنسا وبقية أوروبا.

وحتى يتسنى تحديد تاريخ أي موقع قبل تاريخي، فإن الشيء الأول الذي يتعين تحديده، من ثم، هو العصر الجليدي أو الفترة الواقعة بين عصرين جليديين والتي يتناولها المرء، وذلك عن طريق تحديد الآثار الحيوانية والنباتية أو نوع الغذاء الذي تشير إليه محتويات الروابي التي كانت سكناً للإنسان الأول. والحال أن سكان الكهف على نهر الفالونيه والذي سبق أن أشرنا إليه، وهو أول موقع أوروبي معروف لنا، قد عاشوا قبل نحو مليون عام، خلال الفترة المعروفة بالفيلافراشية، عندما كان جنوب البحر المتوسط عرضة لزوابع عصر الجونز الجليدي. وقد عُثر هناك على صخور حطمها الصقيع إلى جانب أحجار صوانية مشذبة وبقايا حيوانات مناخ بارد (٢١).

وقبل ميلاد يسوع المسيح بنحو عشرة آلاف عام، عندما انتهى العصر الجليدي الأخير (الفورم) وساد مناخ معتدل - مشابه إلى حد بعيد لمناخ اليوم - عادت الرنة إلى الشمال؛ أما حيوانات الماموث، العاجزة عن التكيف، فقد أخذت في الانقراض. وقد عثرت بعثات استكشافية علمية منذ وقت قريب جداً على بعض هذه الحيوانات الماستودونية، متجمدة سليمة تماماً في جليد سييريا السرمدي. لكنها كانت قد ظهرت

منذ زمن طويل في أساطير قبائل سيبيريا الشمالية. والحال أن الياكوت والتونجوز، الذين عثروا عليها أحياناً متجمدة وهي واقفة، كما لو كانت قد ماتت لتوها (والذين كانت كلابهم تلتهمها على الفور) قد تخيلوا أنها خلّدت ضخمة، تحيا تحت الأرض، أو أنها مخلوقات مائية تموت فور خروجها إلى الهواء والضوء (٢٢).
كما أن المناخ المعتدل كان متغيراً - ولذا فقد تتالت سلسلة من المناخات السائدة المختلفة: قبل شمالي، شمالي، أطلسي، شبه شمالي وشبه أطلسي (٢٣). وقد مال كل مناخ إلى أن يكون ملائماً لهذا النوع أو ذاك من النباتات أو الحيوانات؛ الماشية، الخيول، أشجار الدردار، أشجار البلوط، أشجار الزان، أشجار الكستناء أو أشجار البندق - وكانت لهذا بدوره نتائج تلقائية بالنسبة لعادات ولغذاء الناس.

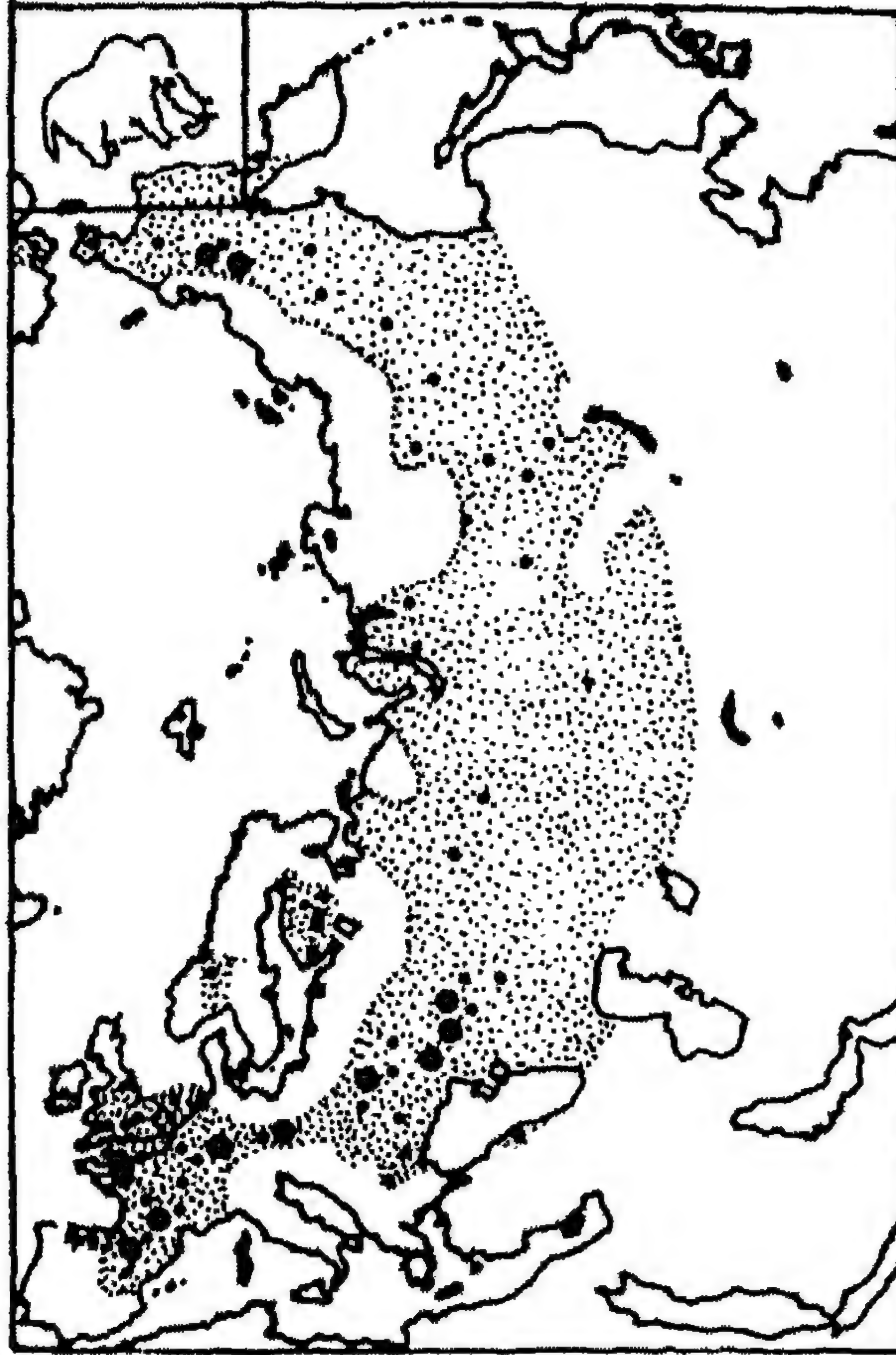
الأجسام والأدوات

على مدار آلاف كثيرة من الأعوام، هامت البشرية على وجهها بين الحيوانات المفترسة، عبر التوندرا المتجمدة أو عبر الغابات التي كانت تصبح مشبعة بالمياه كلما أصبحت الأرض أكثر دفئاً من جديد. على أن علامات على سير البشرية ما تزال باقية: أجزاء من العظام أو هياكل عظمية كاملة، آثار المواقد والسكن والمخيمات، وخاصة الأدوات التي لا حصر لها والتي لا بد أنه كانت هناك ملايين منها، وإن كان الكثير منها قد أصبح الآن مكسوراً، وضاع في أعمال الحفر أو عمليات صرف المياه أو سرقة من المتاحف هواة جمع العاديات قبل التاريخية.

والحال أن الأجسام، أو ما بقي منها، تشكل الجانب الرئيسي من الدلائل. لكن أقدم الهياكل العظمية قد اختفت، وتحللت بفعل تأثير التربة الحامضة. وفي فرنسا، ترجع أقدم الأدوات المعروفة إلى ما يزيد عن مليون سنة قبل الأحفورات البشرية الأولى المكتشفة حتى الآن - وهي عبارة عن فك بشري عثر عليه في عام ١٩٤٩ في كهف قرب مونموران (البرانس - الشرقية). والحال أن هذا الفك الذي يكاد يشبه فك موير الشهر (٦٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) إنما يرجع إلى تاريخ غير مؤكد وإن كان من المؤكد أنه أحدث (ربما ٤٥٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) (٢٤) ومن المرجح أنه يسبق بنحو مائة ألف سنة أو مائة وخمسين ألف سنة إنسان توتاغل (قرية بالبرانس - الشرقية)، والذي أدى اكتشافه إلى إثارة صخب عظيم في مناسبتين: أولاً في عام ١٩٧١، عندما عُثر على الجدار الأيسر لجمجمة تخص شاباً عمره نحو عشرين سنة:

الشكل ١

توزيع الماموث بين عامي ١٥,٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد



خلال هذه الفترة، عندما كان الجليد يغطي معظم أوروبا وآسيا، كانت هناك منطقة شاسعة للسهوب وللتوندرا، تمتد من إسبانيا الشمالية إلى سيبيريا، كان يتحرك فيها البشر والحيوانات غير المستأنسة (خاصة الماموث والرنة). وكانت فرنسا كلها تقريباً موجودة ضمن هذه المنطقة المميزة.

نقلاً عن:

L.-R. Nougier, *Naissance de la civilisation*, 1986.

ثم في عام ١٩٧٩ ، عندما عُثر على بُعد نحو ثلاثة أمتار على الجدار الأيمن للجمجمة نفسها، الأمر الذي سمح بإعادة تشكيل مجمل جمجمة إنسان منتصب تصل طاقة جمجمته إلى نحو ١١٠٠ سنتيمتر مكعب؛ وعلاوة على ذلك، فإن السطح الداخلي لعظم الجبهة كان يتضمن تلافيف دماغية متطورة بدرجة تطور التلافيف الدماغية للبشر الحاليين. ومن هنا الاستنتاج المثير الذي يذهب إلى أن هذا الكائن قبل التاريخي كان بوسعه الكلام، بصرف النظر عن ماهية اللغة التي كان يتكلمها(٢٥).

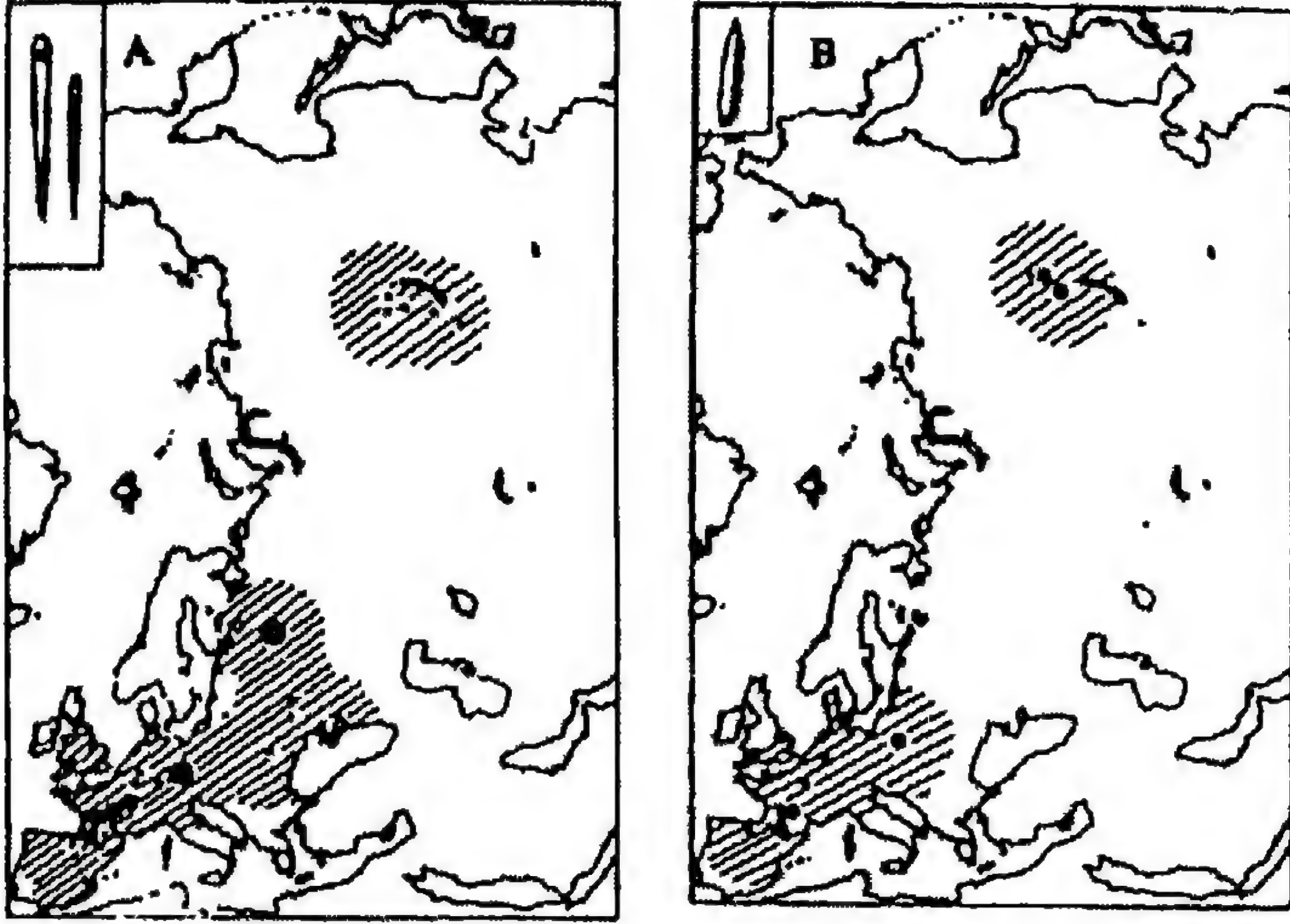
ومن الناحية الأخرى، فقد كان يأكل اللحم الذي يصطاده. وفي كهف لاكون دو لاراجو، حيث عُثر على هذه البقايا، قبالة الوادي الضيق لنهر الفيردوبل (وهو أحد روافد نهر آجلي)، لم يُعثر على آثار للمواقد(٢٦)، مع أن استخدام النار يرجع إلى نحو خمسمائة ألف سنة خلت وقد عُثر على مواقع كثيرة في أكواخ تيراً آماتا، قرب نيس (نحو عام ٤٠٠٠٠٠ قبل الميلاد)(٢٧). والحال أن وادي الفيردوبل، المحصور بين وجهي جرفين صخريين شاهقين، قد أتاح ملاذاً طبيعياً، لا شك في أنه كان يتميز بقيمة خاصة بالنسبة لإنسان توتافل، الذي عاش في زمن العصر الجليدي المندلي؛ ولا بد أيضاً أنه كان مؤاتياً للحيوانات الكثيرة التي يمكن التعرف عليها من العظام التي راكمتها على مستويات مختلفة داخل الكهف أجيال من الصيادين: خيول وأفيال وثيران برية ومفولونات وثيران يستخرج منها المسك وأياثل ورنه وأسود. عرين وثلالب أركتكية ودببة وسنانير وفهود وأرانب وحشية. وتختلط بالعظام الحيوانية بقايا بشرية جرى سحقها بهدف استخلاص نخاع العظام أو المخ - بما يشكل على ما يظهر دليلاً على أكل لحوم البشر(٢٨)، والذي نُعثر عليه أيضاً في مواقع قبل تاريخية أخرى، حتى في الألف السادسة قبل يسوع المسيح. وهذا الأكل للحوم البشر يبدو أحياناً أنه كانت له أهمية طقسية، ويتجلى ذلك بأوضح ما يكون عندما يُعثر عليه مقترناً بالدفن(٢٩).

وقبل حوالي مائة ألف سنة، أخلى الإنسان المنتصب مكانه لـ *Homo sapiens*، أي لما يسمى بإنسان نياندرتال(٣٠). ومما لا شك فيه أن النياندرتال قد سكنوا مجمل الشرق الأوسط وأوروبا، بما في ذلك فرنسا. أمّا وجودهم خارج هذه الساحة الشاسعة فما يزال موضوع خلاف وجدل على الأقل فيما يتصل بشكلهم الأوروبي، والذي يتميز بخصائص واضحة ويمكن التعرف عليه بسهولة. وقد جرى الآن رد الاعتبار إلى إنسان نياندرتال، الذي كان يُنظر إليه لزمّن طويل على أنه نوع غليظ البنية ووحشي فظ: فهذا الإنسان الذي يتميز بدماغ "كبير" أكبر حتى من دماغ الإنسان الحالي (١٦٠٠ سنتيمتر

الشكل ٢

التعقد المتزايد للأدوات

١٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ قبل الميلاد



A. آثار إير ذات ثقوب (قبل ٢٠٠٠٠ سنة من ميلاد يسوع المسيح).

B. آثار أدوات مركبة، تتألف من شفرات أو مستدقات أطراف مصنوعة من حجر الصوان أو من العظام،

وكان يجري تعشيقها في فتحات قابض من الخشب أو من العظام.

نقلًا عن:

L.-R. Nougier, *op, cit.*

مكعب بالمقارنة مع ١٤٠٠)، كان ماهراً في التعامل مع الأدوات، وكان يتميز بقدرات لغوية واضحة (٣١). ويتمثل أحد التفاصيل الحاسمة في أن إنسان نياندرتال كان أول نوع بشري يدفن موتاه. وهو يمثل، في هذا الصدد، "إنساناً كاملاً التطور"، "إنساناً كاملاً"، بحسب تعبير بيرشوني. والنماذج الكثيرة المكتشفة (نحو مائة في فرنسا وحدها) تقدم سمات واحدة عبر كل أرجاء أوروبا، أكان من حيث أسلوب الحياة والأدوات الصخرية أم من حيث النواحي التشريحية المحددة. والحال أن ما نحن بإزائه هنا هو نوع يتميز بخصائص محددة بوضوح ظلت هي نفسها من حيث الجوهر على مدار مجرد ستين ألف سنة أو ستمائة قرن!

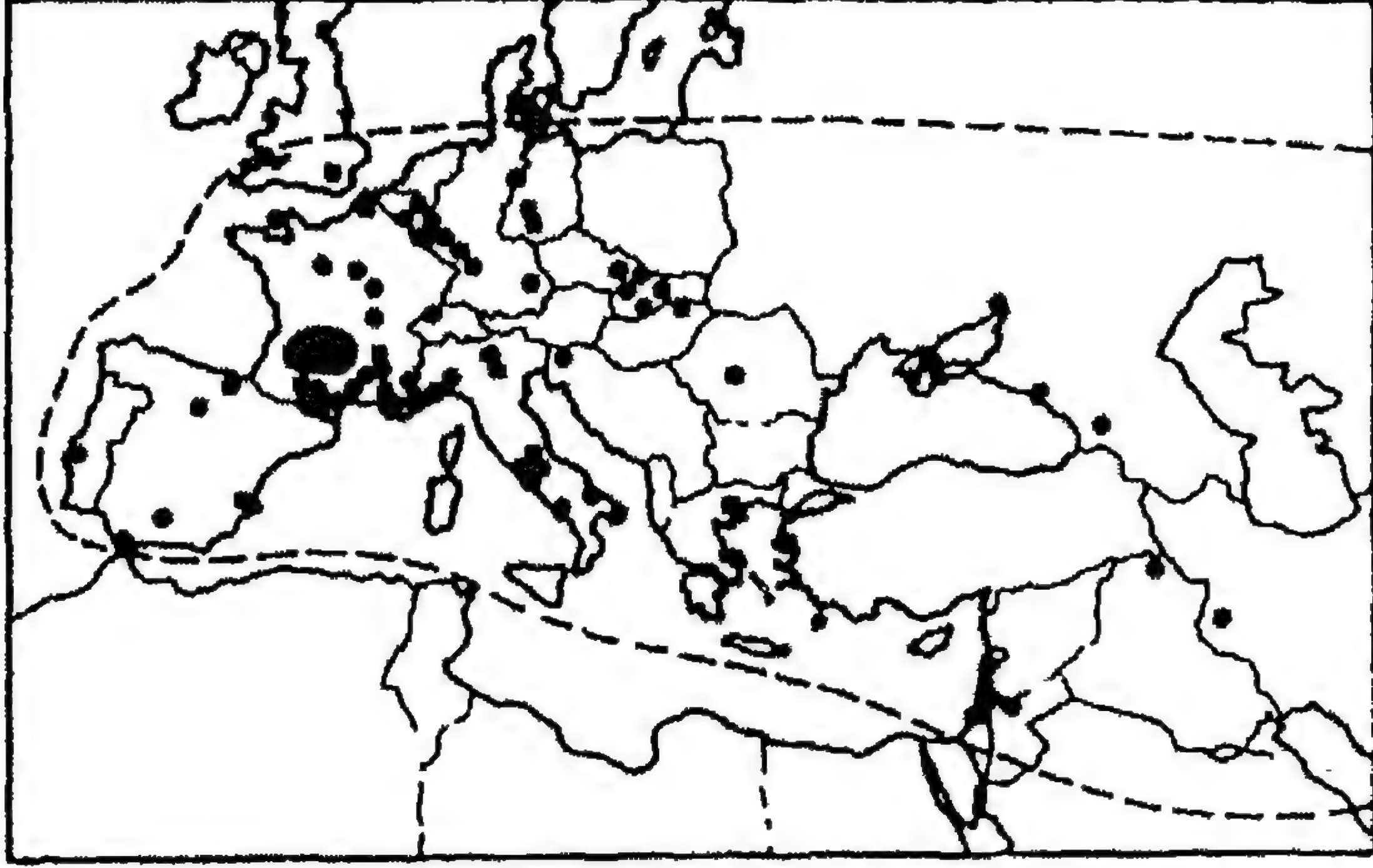
ثم فجأة، ولغير ما سبب يمكن البرهنة عليه، اختفى هذا النوع، على مدار فترة قوامها خمس آلاف سنة (وهي فترة قصيرة بمعايير زمن التطور)، مخلياً السبيل أمام الـ *Homo sapiens sapiens*، وهو نوع مختلف بالكامل من الناحية التشريحية، ويعد مطابقاً بالفعل للإنسان الحالي. فكيف حدث هذا التحول؟ إن الباحثين في مجال ما قبل التاريخ لا يملكون حلاً جاهزاً يمكنهم اقتراحه، أكان من زاوية المناخ أو أي شيء آخر، خاصة وأنه لم يُعثر على أية بقايا بشرية مهمة ترجع إلى زمن الفترة الانتقالية الحاسمة. ويمكن استبعاد تطور عام للأنواع البشري برمته: فمثل هؤلاء السكان الوفيرين والمستقرين، الذين يتمتعون بتبادل جيني حر، ما كان بإمكانهم أن يتطوروا إلا ببطء بالغ. وهكذا فمن الناحية النظرية إذاً، كان النياندرتال مواجهين - على نحو سلمي أو غير سلمي - بجماعة سكانية جديدة، جماعة كانت الظروف في صالحها إلى حد بعيد (وإن كنا لا نعرف لماذا أو كيف) بحيث إنها أزالَت السكان الأصليين في مدى زمني قصير تماماً. ومن هنا الافتراض، الذي ما يزال تخمينياً بالكامل، والذي يذهب إلى أنه كان هناك نوع ما من "غزو" أجنبي، وإن كان لا أحد يعرف من أين جاء القادمون الجدد، حيث إن هؤلاء البشر "الحديثون" كانوا، قبل ظهورهم في أوروبا، موجودين بالفعل في أماكن مختلفة من الأرض، من استراليا إلى العراق، ومن الصحراء إلى النرويج. ومن المحتمل أنهم وصلوا إلى أوروبا من فلسطين حيث كانوا موجودين في هذه الأخيرة بالفعل قبل ميلاد يسوع المسيح بنحو خمسين ألف سنة، إلى جانب النياندرتال الحقيقيين، الذين لم يتلاشوا في ذلك الإقليم إلا بعد ذلك بوقت طويل (٣٢).

وقبل نحو خمس وثلاثين ألف سنة على أية حال، كان الـ *Homo sapiens sapiens* موجوداً في كل مكان تقريباً على الأرض، ومن المؤكد أنه كان قد احتل كل

الشكل ٣

التوزيع الجغرافي لآثار إنسان نياندرتال

(٧٥٠٠٠-٣٥٠٠٠ قبل الميلاد)



أكبر تركز لهذه الآثار يوجد في فرنسا، في غربي المسيف الأوسط (الدائرة السوداء).

الأرض التي تتألف منها فرنسا الآن . وكان هذا الإنسان بالفعل الإنسان " الحديث " ، المتميز بخصائص تشريحية يمكن للطب اليوم التعرف عليها ، وإن كان باختلافات إقليمية تستشرف البنيات الجسمانية المختلفة في فرنسا الآن : متوسطة ، ألبية ، نوردية (٣٣) . ومن المرجح أن الشواغل الدينية الواضحة للقادمين الجدد تشير إلى تكوين نفسي ليس مختلفاً عن تكويننا النفسي . ومع هذا النوع البشري يظهر ، كما لو كان عن طريق معجزة ما ، حس بالفن وبالشكل . ومنذ أواخر العصر الحجري القديم (العصر الباليوليتي الأعلى) تظهر للمرة الأولى التماثيل الصغيرة غير العادية والتي تمثل على ما يبدو ربّات الخصوبة ، كما تظهر بالأخص ثروة الرسوم والمنحوتات والنقوش التي تزين جدران الكهوف ، وكذلك الكثير من أشياء الحياة اليومية ، المصنوعة من الحجارة والعظام والعاج أو من قرون الأيائل والرنة . والواقع أن رسوم الكهوف الرائعة ، التي لم تكتشف إلا في وقت متأخر نسبياً ، إنما تعدّ محيرة بقدر ما تعدّ جميلة .

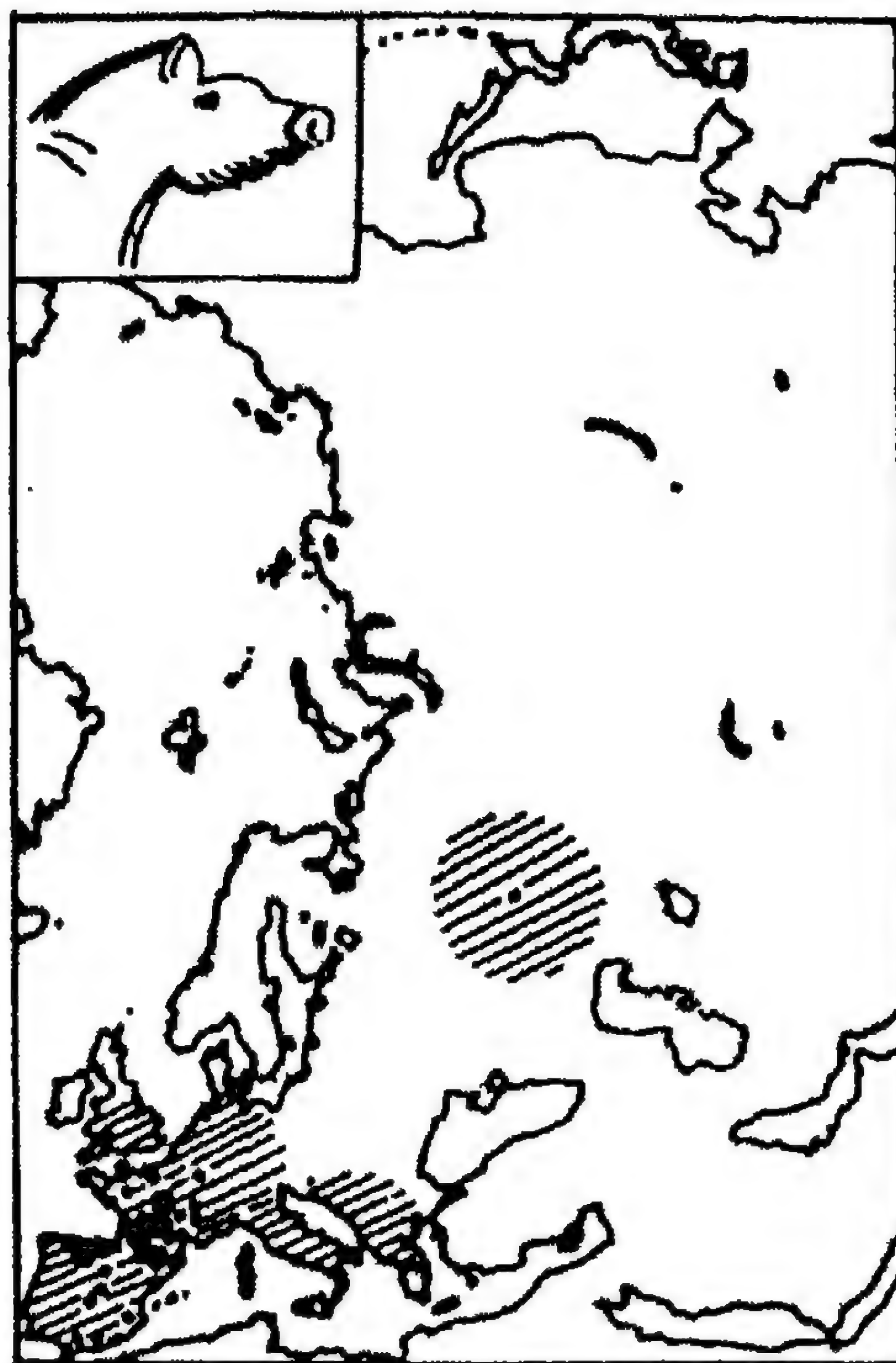
والحال أن هذا الفن متعدد الوجوه قد تطور ببطء ، من الرسوم الفجة إلى واقعية لاسكو غير العادية ، قبل أن ينحدر في نهاية المطاف إلى علامات هندسية ، لا شك في أن لها دلالة رمزية (٣٤) . لكن هذا التطور قد امتد على مدار مائتي قرن (بين نحو ثلاثين ألف سنة وعشرة آلاف سنة قبل الميلاد) بما يشكل أبدية في نظر المؤرخ الحديث . ولنتصور إلى أي مدى هو قصير ، قياساً إلى ذلك ، عصر الفن الروماني أو الفن القوطي ، ناهيك عن مدارس كالانطباعية أو التكعيبية ، التي لم تكن غير عمل ما لا يزيد عن جيل واحد .

ومن هذا الفن المبكر ، تحوز فرنسا وإسبانيا الشمالية حصّة الأسد . وفي وادي الفيزير الأدنى في البيرييجور ، حيث يشكل النهر تعرجات عميقة ، يشير بيير جاكوت إلى "مواقع قديمة تعدّ وفيرة حول وفوق ليز ايزي : كرو مانيون ، لاموت ، لي كومباريل ، فون دو جوم ، لو كاب بلان ، لوسيل ، لا لوجيري ، لي مارسّي ، لا مادلين ، لو موستييه ولاسكو" - وهي كثرة من "الأماكن المقدسة للبشرية ، لها عين المكانة التي لمصر ولنينوى ولأثينا ولروما" (٣٥) .

وقد ثار جدل كثير حول أهمية هذا الانفجار الفني الأول ؛ فلا أحد يرغب في النظر إليه على أنه فن مجاني ، على أنه فن للفن . فهل يسعى الصيادون الشرهون الذين رسموا ونقشوا على جدران كهوفهم قطعان الحيوانات البرية التي عاشوا بينها وعليها - حيوانات الماموث والثيران البرية والبيسون والخيول والوعول والدببة - إلى إلقاء تعاويذ

الشكل ٤

فن جدران الكهوف الذي يصور الحيوانات، ١٥٠٠٠-١٠٠٠٠ قبل الميلاد



موجود بالدرجة الأولى في فرنسا وفي شمال إسبانيا.

نقلًا عن:

L.-R. Nougier, *op, cit.*

سحرية على طرائدهم؟ وهل الرجال المُقَنَّعون، الواثبون مرحاً قبالة الحيوانات في كهف التروا - فريير في الماس دازيسل وفي أماكن أخرى، شامانات أو آلهة أو مشاركون في طقوس لا نفهمها؟ وما هو المعنى الرمزي لهذه "الكتابة" التي نجدها مشيرة وغامضة إلى هذا الحد؟ إن القوة التي يجري التعبير بها عنها إنما تستثير ما هو أكثر من الإعجاب. بل إن فرانك بوردييه قد زعم أنها دليل على التفوق الثقافي لهذه الوديان الفرنسية والإسبانية الجنوبية الغربية على بقية العالم. وهو تفوق فقدته أوروبا بعد ذلك ولن تستعيده، لتحتفظ به من جديد على مدار قرون، إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بعد المسيح.

ومن الناحية المادية، عاش الـ *Homo sapiens sapiens* بشكل سهل، بل وبشكل مريح إلى حد ما، خلال الألف الأخيرة من العصر الجليدي الفورمي، والذي يُعرف أحياناً بعصر الرنة. فقطعان الرنة، التي كان من السهل صيدها، قد قدمت اللحم والجلود والعظام والقرون - أي الغذاء والكساء وأسقف الخيام والمواد الخام اللازمة لكثير من الأدوات الصغيرة. بل إنه خلال الفترة المعروفة بالفترة المجدلينية، منذ نحو ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كان هناك بالتأكيد قدر من التوسع الديموجرافي، حيث انتشر الاستيطان وامتد إلى الجبال وإلى أوروبا الشمالية (٣٦). كما أن التحسن العام في صناعة الأدوات كان علامة على كل من الرفاهية والتقدم التقني. وكان تشكيل الحجارة قد وصل إلى مستويات ملحوظة من الكمال.

ومع أننا نجد تباينات للتقنية من مكان إلى آخر، ودلائل على انقطاعات واستمراريات، إلا أن الاتجاه العام في كل مكان كان نحو الإبداع الابتكاري. وكان النياندرتال قد حسنوا الفأس ذات الوجهين وكاشط الجلود والمثقاب. وعندئذ تأخذ في الظهور سلاسل من الأدوات الصغيرة جداً، ذات المقابض أحياناً، وكلها متخصصة، وبعضها ما يزال يُصنع من الحجر، وبعضها الآخر يستخدم تقنيات جديدة لتشكيل العظام. وهكذا نجد أنواعاً محسنة من الكاشطات الصوانية، الناعمة والمشرشرة، وأدوات النقش والسكاكين الحجرية ومستدقات الأطراف والأبر ذوات الثقوب والحدائد المعقوفة المخصصة لصيد الأسماك ورماح صيد الحيتان ذات الأشواك المنحوتة بعناية. بل إن الثقافة السوليوترية الغربية (٣٧)، التي لم تدم غير ثلاثة آلاف سنة فقط ولم تخلف تلامذة لها، قد تركت خلفها شفرات حجرية رقيقة رائعة ذات وجهين، يقل سمكها عن سنتيمتر واحد ويصل طولها أحياناً إلى ٣٠ أو ٣٥ سنتيمتراً. وقد جرى تحسين تقنيات

صيد الحيوانات والأسماك (أسماك السلمون بوجه خاص). وكانت الرماح والسهام التي تُطلق في الهواء تسمح بالفعل بإتاحة إمكانية القتل عن بُعد. لكن السلاح الثوري بالفعل - القوس - لم يظهر إلا بشكل متأخر جداً، في الساعات الأخيرة من العصر الباليوليتي، قبل أن يتغير كل شيء، نحو عام ١٠٠٠٠ قبل الميلاد، مع الفترة الدافئة التي أعقبت العصر الجليدي الأخير ودرشت المناخ المعتدل الذي ما يزال هو المناخ السائد اليوم.

من العصر الحجري إلى الزراعة:

التغير العظيم

خلافًا لما قد يتوقعه المرء، لم يؤدّ تزايد دفء الأرض إلى تحسن فوري في وضع الإنسان. والواقع أنه قد أربك بشكل خطير الثقافات القائمة، المعتمدة اعتماداً كبيراً على الصيد. لقد انبثقت غابات كثيفة، في حين أدى الماء المتحرر من التجلد إلى تكوين أنهار وبحيرات في كل مكان، وارتفع مستوى البحر وأغرق المناطق الساحلية. ولم تعد هناك قطعان للرنه أو للخيل يمكن مطاردتها في التوندرا المتجمدة. وكان يتعين إعداد كمائن للأبائل وللخنازير البرية في الغابات الكثيفة، وكان على البشر أن يعتادوا على المملكة النباتية الجديدة، التي فرضت تغيرات كثيرة على عاداتهم السابقة. وقد تغير الغذاء، الذي أصبح يتألف الآن من قدر أقل من لحوم الطرائد الكبيرة وقدر أكبر من لحوم الحيوانات الصغيرة التي كان صيدها أسهل؛ وقد شمل الغذاء قدراً أكبر من المواد النباتية - الحبوب، الأعشاب، ثمار البندق، جوز البلوط، ثمار الكستناء، ثمار العليق؛ كما اعتمد الغذاء أخيراً بشكل ضخم على الأسماك من البحار والبحيرات والأنهار، وخاصة على المحار والقواقع، كما نعرف من أصدافها التي لا حصر لها والمتراكمة في أكوام ضخمة، مختلطة ببقايا طعام أخرى.

ومن مثل هذه الدلائل، غالباً ما جرى استنتاج أنه كان هناك نوع ما من "التقهقر" أو "الانحطاط" بين صفوف أحفاد الـ *Homo sapiens sapiens*، خلال الفترة الانتقالية الصعبة المعروفة بالعصر الميزوليتي (٣٨). ونحن اليوم أكثر ميلاً إلى اعتبار هذه الفترة فترة تكيف، تتطلب حذقاً وابتكاراً. وفي حين أن رسوم الكهوف تختفي قبل نهاية العصر الجليدي الأخير، فإن تقنيات صنع الأدوات لا تنحدر من حيث مستوى تعقيدها. على العكس: إننا نجد تخصصاً متزايداً في أدوات دقيقة جداً، يجري صوغها بدقة كما يجري على نحو ذكي دمجها في أدوات مركبة ذات مقابض أو مسأكات مصنوعة من

الخشب^(٣٩). وكان الصيد قد أصبح أصعب، لكن الصياد الآن أخذ يملك قوساً وسهماً، وكان بوسعه أن يصوب سهمه إلى فريسته ويصيبها عن بُعد. والحق إن السهام بوسعها قتل البشر مثلما أن بوسعها قتل الحيوانات. بل إن روبير آردريه يؤكد متصوراً، دون شك، أنه لا مفر من المبالغة حتى تصل الفكرة "أن اختراع القوس والسهم كان مهماً بالنسبة للإنسان قبل التاريخي أهمية اختراع الأسلحة النووية بالنسبة للإنسان الحديث"^(٤٠).

وأخيراً، منذ الألف السابعة قبل الميلاد، تبدأ في الظهور في فرنسا العلامات الأولى للثورة الزراعية التي سوف تؤدي، في غضون ألفي أو ثلاث آلاف سنة، إلى تحويل الصيادين قبل التاريخيين إلى فلاحين. والدليل الأسبق هو الجمع المتزايد للنجيليات، وللبقيات خاصة (في الفار مثلاً)، بل وأحياناً الحبوب كالعدس والبازلاء (كما في الأيرول). وإذا كانت الزراعة بوصفها زراعة لم تكن قد وُجدت بعد، فإن الأغذية النباتية كانت على الأقل تُجمع وتُخزن بصورة منتظمة^(٤١).

والعلامة الثانية، والأكثر وضوحاً بكثير، هي ظهور رعي الأغنام، الذي يبدو أنه جاء إلى فرنسا من الشرق الأوسط البعيد، حيث كان قد تسنى تدجين الأغنام بحلول الألف العاشرة أو التاسعة قبل الميلاد. كما كانت تلك هي فترة الملاحة المبكرة في بحر إيجه. ولذا فليس من الغريب أن الأغنام (التي لا يوجد أي من أسلافها في المملكة الحيوانية الأوروبية) تظهر في الألف السابعة في أوروبا الشرقية وبحلول نحو عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد على شواطئ غربي البحر المتوسط (بما في ذلك شواطئ جنوبي فرنسا). وبعد ذلك بألف سنة، كانت تجري تربية الأغنام في آكيتين، وبحلول عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد كانت قد وصلت إلى ساحل بريتانيا^(٤٢).

وهكذا ففي غربي البحر المتوسط، سبقت تربية الأغنام التحول العظيم الذي نسميه بخلق الاقتصاد النيوليتي، بعبارة أخرى ذلك التدريب الثوري على الزراعة والذي دشن ميلاد غاليا، أو ما سوف يصبح يوماً ما فرنسا، بل ومجمل أوروبا، بمساعدة الحقول المحروثة والمراعي والبيوت والقرى وجماعات السكان الفلاحين المستقرة.

وهذه الثورة الزراعية - المهمة أهمية الثورة الصناعية الإنجليزية في القرن الثامن عشر بعد الميلاد - جاءت من الشرق الأوسط، موطن نباتات الحبوب البرية. والحال أن ممارسة فلاحية الأرض، والتي كانت الابتكار الحاسم، قد رافقت أو تلت ابتكارات أخرى: الاستقرار في مكان ثابت، تربية الحيوانات الداجنة، اختراع أدوات زراعية

كالمنجل وحجر الرحي (وهو حجر يجري الآن تشذيبه وصقله لا نحته) وأخيراً ابتكار صناعة الفخار. والحال أن هذه السلسلة من المكتسبات الحضارية قد استغرقت عدة آلاف من السنين حتى تصبح منتشرة: فقد وصلت إلى أوروبا عبر طريقين محددين بوضوح: الوادي الطويل لنهر الدانوب، من الشرق إلى الغرب، والطرق البحرية للبحر المتوسط. وقد ساعد تحديد الأزمنة بالراديو - كربون على رصد المراحل المختلفة لهذا الانتشار بشيء من الدقة. والآن يمكننا أن نرى بالفعل تشكل شطري فرنسا: شطر في الجنوب وشرط في الشمال.

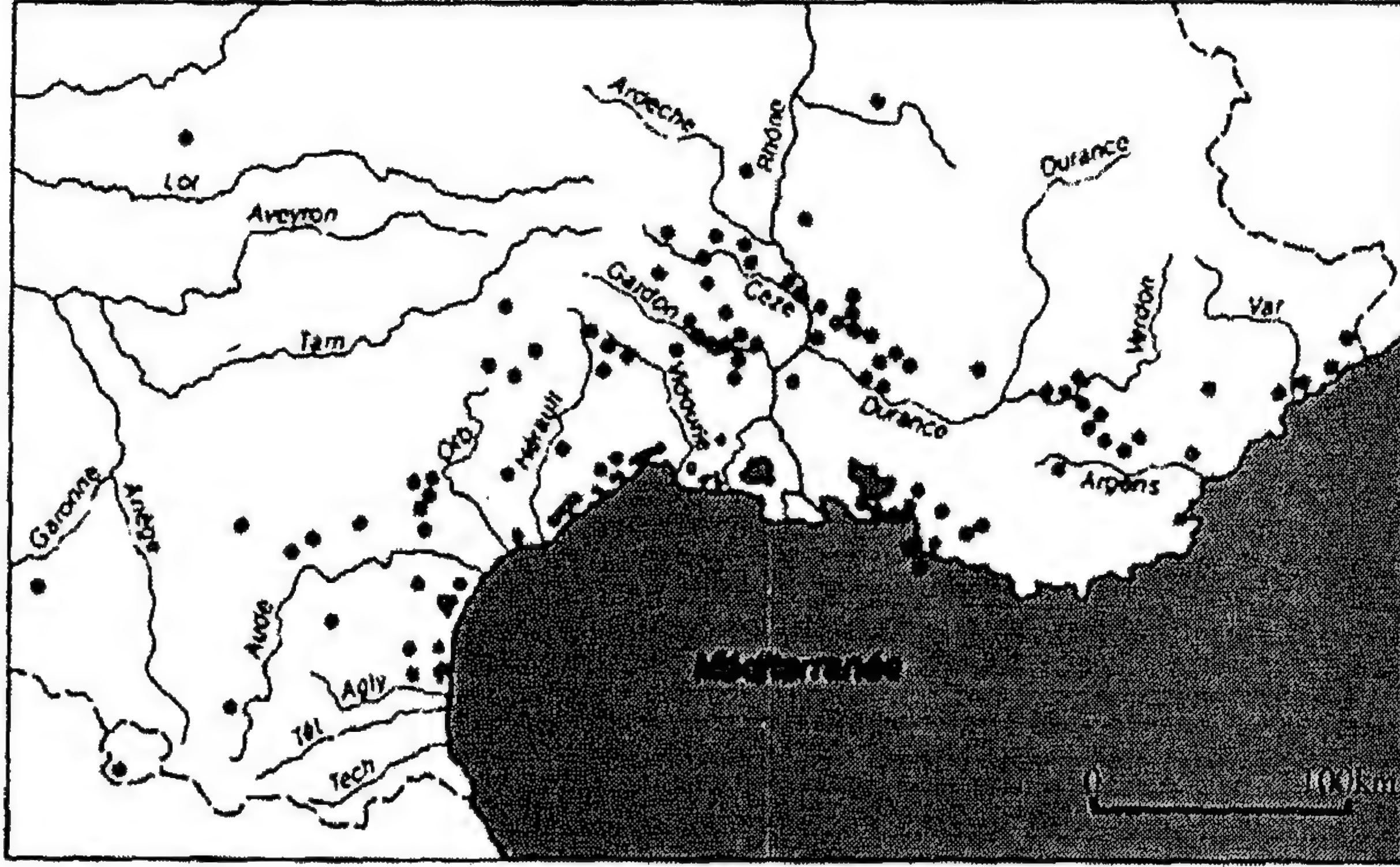
تباين الخواص، التنوع

إن المنطقة التي تحتلها الآن فرنسا، والتي حكمت عليها المقادير بأن تلعب دور ملتقى الطرق، كانت الوجهة التي اتجهت إليها موجتان متميزتان من الزراعة النيوليتية. فقد تأثرت فرنسا الجنوبية أولاً، قبل الميلاد بنحو خمس آلاف سنة، عن طريق البحر المتوسط. أما فرنسا الشمالية والشرقية فقد تأثرتا بعد ذلك بنحو خمسمائة سنة، من اتجاه الدانوب. وما نحن بإزائه هو سياق ثقافيان منفصلان، يقع كل منهما بشكل مميز في منطقة خاصة (أنظر الشكلين ٥ و ٦).

وفي الجنوب، تعتبر الأساليب الجديدة، وإن كانت أسبق في المجيء، أصعب على رصد دروب وصولها، ومن المؤكد أنها قد جاءت عن طريق البحر، لأنها امتدت إلى المناطق الداخلية من الساحل. إلا أنها لم تتخذ شكل استعمار، يحمل استنارة إلى أراض جديدة. وما كان ممكناً حتى الآن من التحليل الأنثروبولوجي (على عدد محدود من الهياكل العظمية بالفعل) قد قاد ريمون ريكيه إلى استنتاج أن التغيرات "لم تكن مصحوبة بأية هجرة" (٤٣). لم يكن هناك، على أية حال، انقطاع مفاجيء، بل سلسلة من "الاتصالات، ونقل الأفكار والتقنيات، مما أدى إلى إبداعات أصيلة داخل المجتمعات الأصلية" (٤٤). كما يعتقد جان جيلين أن النموذج الأول - الزراعة على نحو ما تطورت في شرقي البحر المتوسط - قد جرى نقله بشكل عشوائي، وبأشكال تبدلت من جراء توقفاته الكثيرة في واحد أو آخر من أحواض المتوسط التي لعبت دور "مرشحات كثيرة". وعلى الأرض الفرنسية، تمثلت النتيجة في سيرورة بطيئة للثقافة من جانب الجماعات السكانية المحلية، التي أخذت تدريجياً (وإن كان دون التخلي عن جميع تقاليد السابقة) تبني تربية الأغنام والحياة المستقرة والزراعة ونوع صناعة الفخار

الشكل ٥

الجماعات الفلاحية الأولى في فرنسا، من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل الميلاد.



كانت هذه الجماعات مبعثرة على طول جانب البحر المتوسط الممتد من الألب - مارتيم إلى روسيون. وكان اختراق الأراضي الداخلية بطيئاً.

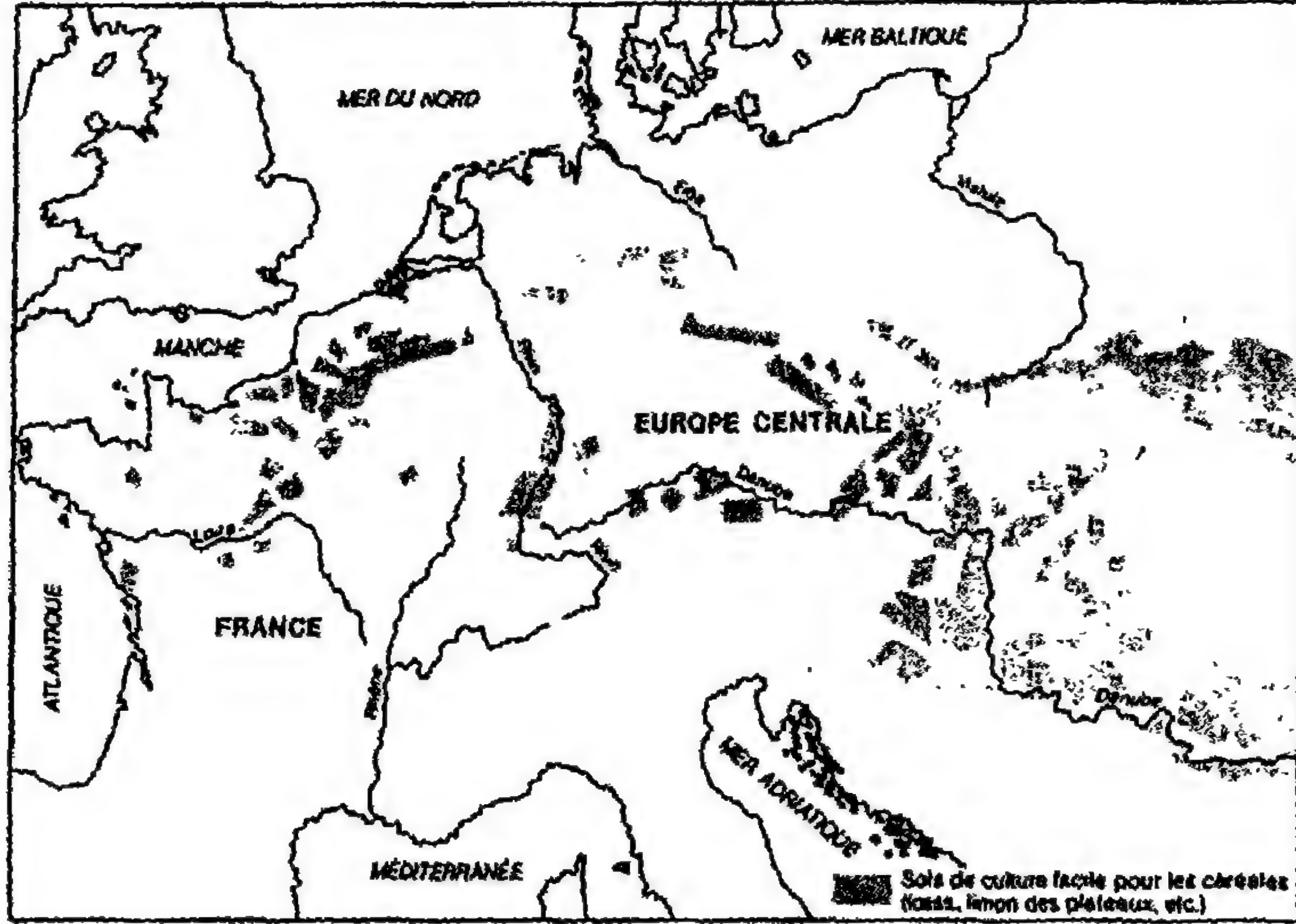
الموجود في جميع أرجاء غربي البحر المتوسط آنذاك - والموسوم غالباً بآثار القواقع البحرية (خاصة الـ **Cardium** ، ومن هنا اسم الفخار الـ **Cardiale** ، المخصص للثقافة النيوليتية في هذه المنطقة الجنوبية). والحال أن رعي الأغنام والماعز، الراسخ بالفعل، قد تطور إلى الدرجة التي أدى معها إلى نزع غابات وإلى تآكل التربة. وخلال الألف الخامسة قبل الميلاد، بدأت تظهر القرى الأولى؛ وكانت ما تزال أولية في تصميمها، إلا أنه على سفوح الكوربيير، مثلاً، يمكن بالفعل رصد منتجات صغيرة للماشية، حيث توجد قرى شتوية في السهل، ومخيمات صيفية على التلال (٤٥).

وهذه الجماعة الثقافية المتوسطة، المقصورة على القطاع الساحلي في البداية، إنما تمتد ببطء إلى نحو نصف المسيف الأوسط وإلى الألب، قبل أن تتحرك في اتجاه أبعد شمالاً من جديد.

وفي الجزء الشمالي من فرنسا، كان الموقف جد مختلف. فهنا، كان يوجد بالفعل انقطاع. فالزراعة قد جرى غرسها هنا من لا شيء على أيدي مستوطنين قادمين أصلاً من وادي نهر الدانوب، والذي كان آنذاك مركزاً لجماعات فلاحية كانت قد أجادت التقنيات الزراعية إجادة تامة. والواقع أن هؤلاء المستوطنين كانوا متميزين من الناحية الأثروبولوجية عن السكان المحليين السابقين (٤٦). ومنذ نحو خمس آلاف سنة قبل الميلاد، كان هؤلاء الدانوبيون يتحركون في اتجاه الغرب، بحثاً عن أراضي غرينية جديدة مماثلة للأراضي التي اعتادوا فلاحتها. ونحو منتصف الألف الخامسة عبروا الراين، لكنهم لم يصلوا إلى مشارف الحوض الباريسي إلا بعد ذلك بخمسة قرون. وهنا واجههم عدد من الجماعات الصغيرة من الناس الذين كانوا ما يزالون يمارسون الصيد وجمعون غذاءهم. إلا أنه بما أن القادمين الجدد قد اقتصروا على زراعة الأراضي الغرينية الخصبة في الوادي، فلم يجدوا صعوبة كبيرة في إرغام الجماعات السكانية الميزوليتية إما على التراجع إلى الأراضي الفقيرة أو على تبني أساليبهم. وقد بنى القادمون الجدد بيوتاً كبيرة وفق الأسلوب الدانوبي، من الخشب والطين، كل واحد منها كبير بما يكفي لإيواء أسرة كبيرة (نحو عشرة أفراد) وأحياناً ما كانت قراهم تضم زهاء مائتي نسمة. وكان هؤلاء الناس فلاحين حقيقيين، بشكل أدق من حال نظرائهم في حوض البحر المتوسط، وقد جلبوا معهم من بلدهم الأصلي أساليب زراعية مدروسة ومختبرة. ولما كانوا مزيلين لا يكلون للغابات، فقد زرعوا القمح والشعير على الأرض المحروثة، وربوا الماشية والخنازير (وإن كانوا نادراً ما ربوا الأغنام) وإذا كانوا قد

الشكل ٦

مناطق الغرين والطمي في أوروبا



إن هذه الأراضي التي كان يسعى إليها مزارعو وسط أوروبا الفلاحون، إنما تشير إلى الطريق الذي أخذه انتشار الزراعة، على امتداد الدانوب وحتى الراين وداخل الحوض الباريسي، خلال الألف الخامسة قبل الميلاد.

واصلوا صيد الطرائد البرية، فإن هذا الصيد لم يلعب غير دور ثانوي في توفير غذائهم من اللحوم. وهؤلاء هم الناس الذين يعرف فخارهم أحياناً بالأواني اللولبية، نسبة إلى زخارفها اللولبية(٤٧).

وهكذا فإن الثقافة النيوليتية لم تكن بحال من الأحوال موحدة في المنطقة التي تحتلها فرنسا الآن: إن الثقافة الكارديالية، ثقافة الفخار الكارديال في الجنوب، والثقافة اللولبية، ثقافة الفخار اللولبي في الشمال، قد تطورتا بشكل مستقل الواحدة عن الأخرى. كما أن هذا لم يكن كل ما هناك. ففي الغرب، في اتجاه المحيط الأطلسي، توجد الثقافة النيوليتية، أياً كان منشأها (ربما عن طريق البحر)، في سياق أصلي، له فخاره الخاص، الذي لا هو كارديالي ولا هو لولبي، وتتميز خاصة بالعمارة الميجاليتية الحجرية غير العادية والتي ما تزال آثارها الضخمة باقية حتى يومنا هذا(٤٨). وعلى مدار زمن طويل، رفض علماء ما قبل التاريخ تصديق أن هذه الإنشاءات الضخمة يمكن أن تُنسب إلى "البرابرة" المحليين: فهي لا يمكن إلا أن تكون إبداعات "حضارة" حقيقية، ومن ثم قادمة من الشرق. وعلى أساس تشابهات معينة (خاصة مع المقابر ذات القباب في كريت في زمن سلالة المينوس المالكة)، تخيلوا جنساً ما من الملاحين المجريين من بحر إيجه، حملوا "ديانة ميجاليتية" يُعتقد أنهم أدخلوها إلى ضفاف المحيط الأطلسي، بدءاً بإسبانيا (حيث توجد آثار ميجاليتية أيضاً هناك) في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي هذه المرحلة المتأخرة أيضاً، على ما يقولون، تعلم أسلافنا المتخلفون على ساحل المحيط الأطلسي دروس العصر النيوليتي.

والحال أن تحديد التواريخ عن طريق الراديو - كربون قد نسف جميع النظريات التي من هذا النوع. فالآثار الميجاليتية المعروفة الأقدم إنما توجد في بريتانيا والبرتغال (ليس في إسبانيا) وهي تسبق أية عمارة حجرية في شرقي البحر المتوسط. بما في ذلك مصر. ولأسباب ما تزال غامضة، انبثقت هذه الثقافة الجديدة، وهي ثقافة أصلية إلى حد بعيد، في الألف الخامسة قبل الميلاد، عندما أنشئت الأضرحة (قبل التاريخية) العظيمة الأولى - مثل ضريح بارنينيه، قرب مورلكس، والذي يمد على سبعين متراً مقابره الجماعية الإحدى عشر، ذات القباب المنحنية الجميلة، علاوة على قاعة يبدو أنها بمثابة حرم(٤٩). ونجد بين التحف الجنائزية فخاريات ناعمة غير مزخرفة. والحال أن هذه المجتمعات الميجاليتية الأولى، والتي من المرجح تماماً أنها مجتمعات فلاحية بالفعل، قد ظلت وفية لأسلوبها في البناء والذي نلقاه (مع بعض التنويعات الملحوظة،

بالطبع) على طول مجمل الساحل الأوروبي للمحيط الأطلسي . وفي فرنسا الغربية، استمرت الهياكل الحجرية (الميجاليتية) لألفي سنة، ويبدو أنها قد وصلت فيما بعد إلى جنوب فرنسا، حيث تنتشر الأضرحة الحجرية في الألف الثالثة قبل الميلاد.

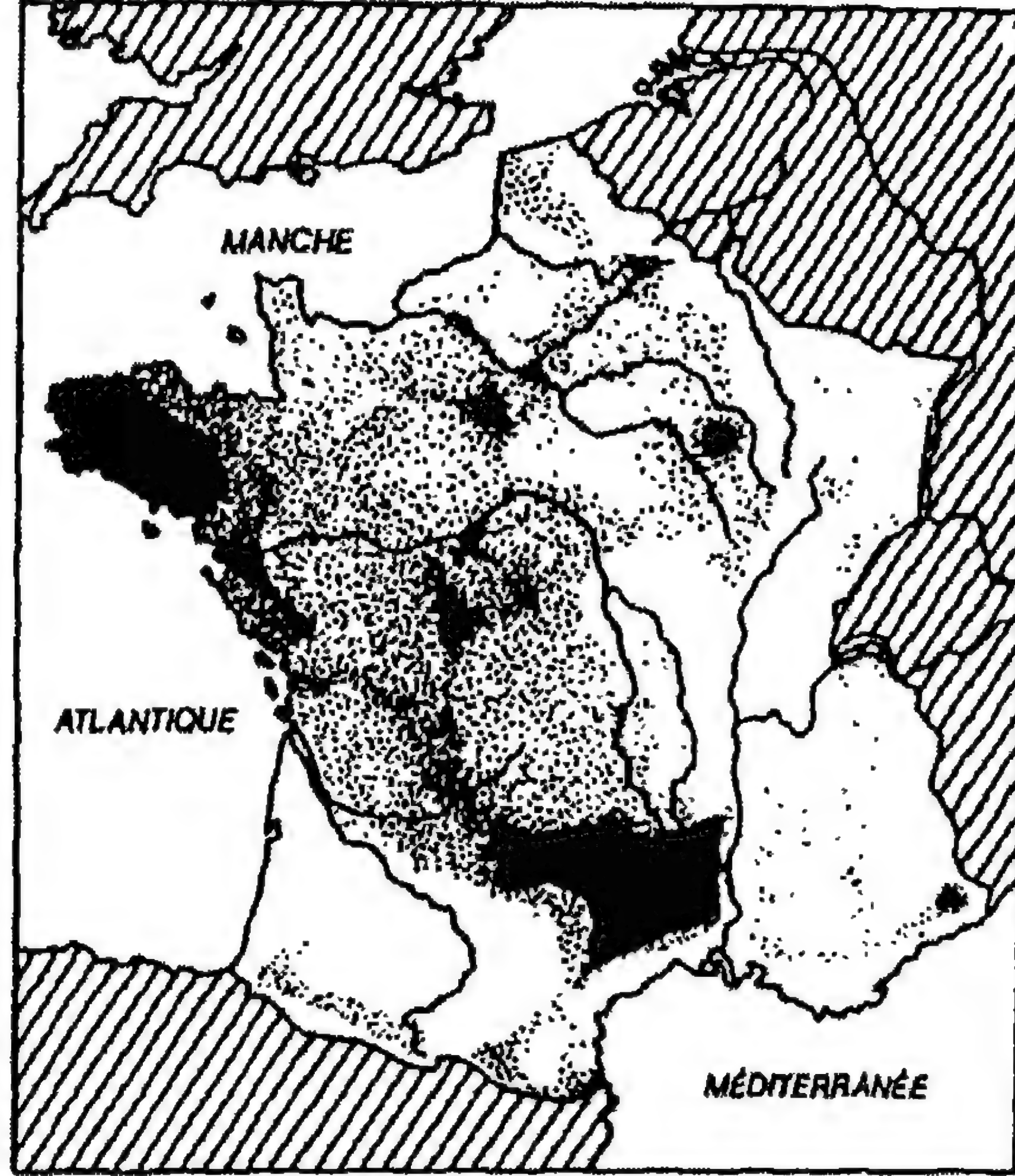
وهكذا، ففي بداية الألف الرابعة قبل الميلاد، يمكن تمييز ثلاث مناطق ثقافية بالفعل، يفصل بينها المسيف الأوسط الذي لا ريب في أنه قد تأثر بها كلها. وفي الجزء الأخير من تلك الألف، نشأت مع ذلك بعض الصلات والروابط، مما أدى إلى ميل ثقافة واحدة، أو بالأحرى عناصر ثقافة واحدة، إلى الانتشار في مجمل الأرض التي تحتلها فرنسا الآن، فيما عدا المقاطعات الشرقية. وهذه الثقافة الأصلية، التي سميت بالثقافة الشاسية يبدو أنها بدأت في جنوب بلادنا نحو عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد، "حيث ترجع أصولها إلى السكان الموجودين هناك من قبل، وحيث تستوعب مبادرات ذات أصول متوسطة" (٥٠). ويبدو أن هذه الثقافة قد تميزت بالوفرة وبالثراء، كما يشهد على ذلك فخارها الناجز، الناعم، المحروق جيداً، والمزخرف بعلامات هندسية، وأدواتها المعقدة، ومن بينها نسبة عالية من شفرات القطع والسكاكين والمناجل، ومجموعة متنوعة من رءوس السهام وأنواع عديدة من رءوس الحراب وكل المواد التي يحتاج إليها أكلو الحبوب (المدقات، المجارش، أحجار الرحى).

ويبدو أنه تحت ضغط نمو سكاني ضخم، اتجهت هذه الثقافة إلى الاستيلاء بسرعة على المناطق المجاورة، حيث تقدمت شمالاً عبر وادي الراين وغرباً نحو آكيتين عبر الكوس وشعب نوروز. ويستتج جان جيلين أن النتيجة قد تمثلت في نوع من "حضارة نيوليتية قومية" (٥١). وهذا لا يعني أنها قد محت جميع التباينات الإقليمية، بل يعني أنها قد وضعت بصمتها المميزة على المجموعة القائمة من الثقافات الإقليمية. وتحت هذا الدافع القوي طورت الأخيرة ما سوف يكون فيما بعد طبعاتها الخاصة من "الثقافة الأم"، وإن كان باختلافات فردية ملحوظة.

وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن التوسع الشاسي ربما كان يتماشى بالفعل مع التثاقف المتأخر للجماعات السكانية التي كانت قد ظلت بعيدة عن التأثير بالابتكارات الزراعية الأولى للعصر النيوليتي. وفي سياق نمو سكاني سريع، اختار الصيادون والرعاة في نهاية الأمر أن يصبحوا فلاحين. وقد خرجوا من غاباتهم، أو بدأوا في محوها. وهذا على أية حال هو ما يوحى به تحليل ريمون ريكيه للحضارة التي استقرت بشكل مفاجيء تماماً في الحوض الباريسي نحو نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد (٥٢)، وقد وجد

الشكل ٧

التوزيع الجغرافي للأضرحة في فرنسا من الألف الخامسة إلى الألف الثالثة قبل الميلاد



تبين هذه الخريطة الانتشار الذي حدث على مدار ألفي سنة للمقابر الجماعية الميجاليتية، من بريطانيا، مهدا في فرنسا، وحتى الجنوب.

الشكل ٨

المواقع الرئيسية لبدايات العصر النيوليتي في فرنسا من الألف السادسة إلى الألف الرابعة قبل الميلاد.



توضح ثلاث مناطق ثقافية مختلفة، تطورت كل واحدة منها بشكل مستقل، يفصل بينها حاجز
المسيف الأوسط غير المسكون.

الشكل ٩

مواقع الألفين الرابعة والثالثة قبل الميلاد



تبين العلامات الأولى لـ "حضارة قومية" ، بمعنى أن الثقافة الشاسية تنتشر ، عبر التبادلات النشيطة ، بحيث تشمل كل فرنسا تقريباً ، ما عدا الشرق .

نقلاً عن:

J. Guilaine, *La France d'avant la France*, 1980.

الأنثروبولوجيون هنا بقايا بشرية جد مختلفة عن بقايا المزارعين المنتمين إلى ثقافة الفخار اللولبي، وإن كانت جد شبيهة بالجماعات السكانية الميزوليتية القديمة. وإذا ما تذكرنا علاوة على ذلك أن الحوض الباريسي، بالرغم من ارتباطه بالانتشار السريع للثقافة الشاسية عبر مجمل الأرض التي تحتلها فرنسا الآن، قد طور أدواته الخاصة، ذات الطابع القوي بشكل خاص والذي يبدو أنه يتناسب تماماً مع قطع الأشجار، فإن الصورة تبدو تامة لجماعة سكانية منخرطة في تطهير الأرض من الغابات وفي البحث عن أرض جديدة. وأليس ممكناً أن قوة التوسع الشاسي كانت مستمدة على وجه التحديد من تمكينه الثورة النيوليتية من اختراق مجمل البلد، مُزيداً بشكل يتناسب مع ذلك من الموارد المتاحة لجماعة سكانية آخذة في النمو والازدياد؟(٥٣)

وفي الوقت نفسه، كانت السلع قد أخذت بشكل متزايد في التحول إلى موضوع للتبادل. وهكذا، فبين التحف الموجودة في أضرحة فرنسا الغربية نجد الفخار الشاسي الجديد. وفي الاتجاه المقابل، نجد أن "الفؤوس المزرة"، التي أنتجها حرفيون في بليسيلين (كوت - دي - نور) من صخور جد صلبة تعرف بصخور الدورليريت، كانت توزع ليس فقط عبر مجمل بريطانيا وشمال غربي وغربي فرنسا، وإنما أيضاً على طول الراين، وفي الألب، وفي البرانس. وينطبق الكلام نفسه على الفؤوس المصقولة المصنوعة من الهورنبلند، والتي جاءت أصلاً من فينيستير(٥٤).

وقد أفادت مثل هذه التحركات من توسع أعم، مع تكاثر القرى وازدهارها. وقد أصبحت الزراعة راسخة. والحال أن عبادة الأرض الأم، ربة الخصوبة، وهي العبادة المشتركة بين جميع المجتمعات النيوليتية، قد اكتسبت مكانة جديدة، كما يشهد على ذلك ظهور تماثيل صغيرة، مصنوعة بوجه عام من الصلصال، لا بد من قول إنها أقل عدداً وأقل إثارة من التماثيل الصغيرة التي لا حصر لها والتي تصور الأرض الأم، وكثير منها جد جميل، والتي نجدها في الشرق أو في وسط أوروبا. وهناك استثناء واحد: التمثال المثير في كابدناك - لو - أو (لو) المكتشف في مخيم شاسي كان مسكوناً قبل الميلاد بنحو ثلاث ألف سنة. والواقع أن هذا التمثال قد حير الخبراء، حيث إنه لا يشبه أي شيء معروف آخر، ربما باستثناء بعض البللورات الصخرية المنحوتة في يوغوسلافيا والتي ترجع إلى الألف الخامسة قبل الميلاد! وفيما عدا "فينوسات" قليلة، والوجه الجميل لـ "سيدة براسمبوي"(٥٥)، والذي يرجع إلى العصر الباليوليتي الأعلى، فإن تمثال "ربة كابدناك" الغريب يمكنه أن يزعم أنه أقدم تمثال قبل تاريخي في فرنسا(٥٦).

عصر المعادن

يُنتهي ما قبل التاريخ مع مجيء تقنيات صوغ المعادن - وقد ظهرت كل هذه التقنيات لأول مرة إما في الشرق أو في البلقان، مهد صناعة المعادن الأوروبية. وكان أول معدن يستخدم هو النحاس، نحو نهاية الألف الخامسة قبل الميلاد، ثم تبعه البرونز المخلوط وأخيراً الحديد - ومن هنا التقسيم المعروف إلى عصور النحاس والبرونز والحديد. ومع تأخر زمني ملحوظ، جرى إدخال تقنيات صوغ المعادن، واحدة بعد الأخرى، إلى ما أصبح الآن فرنسا: النحاس بين عامي ٢٥٠٠ و ١٨٠٠ قبل الميلاد، البرونز بين عامي ١٨٠٠ و ٧٠٠ قبل الميلاد، وأخيراً الحديد، بعد عام ٧٠٠ قبل الميلاد. وفي كل مناسبة، كانت الظاهرة مرتبطة بتغلغل شعوب أجنبية في الإقليم.

والواقع أن عصر النحاس كان عصر تعايش، حيث إن الأدوات الحجرية استمرت سائدة؛ ولذا فغالباً ما يوصف هذا العصر بالعصر الكالكوليتي، الذي يتميز بكل من النحاس والحجر. وقد تغلغلت هذه الحضارة في الأرض الفرنسية عن طريق إيطاليا الشمالية وشبه الجزيرة الأيبيرية، حيث كانت أعمال صوغ النحاس قد ظهرت منذ نحو الألف الثالثة قبل الميلاد. ونحو منتصف الألف الثالثة قبل ميلاد يسوع المسيح، ظهرت مراكز عديدة لأعمال النحاس في جنوب فرنسا، ترتبط بركائز هذا المعدن الموجودة في السيفين والآفيرون والكيرسي ولوزير ولانجدوك (٥٧).

على أن مثل هذا الانتاج قد ظل محلياً، حتى نحو عام ٢٢٠٠ قبل الميلاد، عندما جرى استيعابه وازدهاره في الفلك الثقافي لما يسمى بالثقافة الجرّسية (٥٨)، وكانت هذه ثقافة مستوردة، يمكن تمييزها في مختلف أرجاء أوروبا من خلال فخارها المميز (المعروف أحياناً بالفخار "الجرسي"، نظراً إلى شكله الذي يشبه جرساً مقلوباً) ومن خلال الكثير من الأشياء النحاسية التي تنتشر مع انتشارها. ويبدو أن الهجرة الأجنبية كانت مسئولة عن ذلك، وإن كان لم يتم حتى الآن تحديد المكان الأصلي الذي جاءت منه تحديداً مرضياً: لقد جرى طرح إقليم التاج وأوروبا الوسطى على حد سواء! فأى نوع من الناس كان هؤلاء؟ يرى بعض الخبراء أنهم مقاتلون يحبون الحرب ورماة بارعون هيمنوا على الأرض؛ ويرى البعض الآخر أنهم تجار ومبادلون نشيطون كانوا يبيعون فخارهم الرائع وأدواتهم النحاسية التي اجتذبت المشترين لما تتميز به من جودة وابتكار: الخناجر، مقصات الحدادين والمخارز والابر. ولا بد أنهم كانوا رحالة عظماء على أية حال، حيث إنهم يظهرون في شبه الجزيرة الأيبيرية ووادي الهو وسردينيا

وصقلية ووادي نهر الراين حتى منبعه والبلدان الواطئة واسكتلنده وإنجلترا وبوهيميا ومورافيا وفي كل مكان تقريباً في فرنسا، مع الاستثناء الغريب الذي يتمثل في الحوض الباريسي، والذي يبدو أنه كان جزيرة مقاومة. ومع هؤلاء الناس المنتشرين في كل مكان، يمكن للمرء أن يبدأ للمرة الأولى في التفكير من زاوية "فكرة معينة عن الوحدة الأوروبية". فهل كانوا أول من نشر اللغات الهندو - أوروبية في الغرب؟ لقد جرى طرح هذا الاحتمال "بدرجة معقولة من الترجيح" (٥٩).

على أن مستوطنات الثقافة الجرسية لم تشكل في أي مكان على الأرض الفرنسية جماعات موحدة ومتجانسة، قادرة على طرد أو استيعاب الشعوب الأصلية. بل يبدو أن العكس هو الذي حدث: ففي فرنسا، تتشابك آثارهم مع آثار الجماعات السكانية المحلية في مقابر جماعية تقليدية (في حين أن القادمين الجدد، في أي مكان شكلوا فيه جماعات موحدة، كانوا يمارسون الدفن الفردي). ويبدو أنه كان هناك نوع ما من التداخل ومن الانصهار.

على أنه في حين أن أعمال النحاس كانت مزدهرة في فرنسا قبل الميلاد بنحو ألفي سنة، فإن الشرق الأوسط ووسط أوروبا كانا قد هجرا هذه الأعمال قبل ألف سنة متجهين إلى البرونز، خليط من النحاس والقصدير، أقوى وأقل هشاشة من النحاس الخالص. والحال أن هذا التقدم التقني الكبير لم يمتد إلى الغرب إلا بعد نحو ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

وعندما امتد إلى الغرب، ترتبت عليه نتائج عديدة: ففي المقام الأول، تحركت الدوائر التجارية من جراء البحث عن القصدير الضروري؛ وثانياً، كانت الأدوات الجديدة ذات نوعية جد رفيعة بحيث إنها طردت الأدوات الحجرية الباقية الأخيرة؛ والشئ الأكثر أهمية بكثير، هو أنه أدى إلى تقسيم أكثر وضوحاً للعمل (إلى مزارعين ومنجمين وحرفيين وحدادين وتجار ومقاتلين) ومن ثم إلى تمايزات وهياريات طبقية. وهكذا فإن الناس الذين أدخلوا إلى فرنسا أعمال البرونز قد أدخلوا أيضاً نموذجاً جديداً للمجتمع، تهيمن عليه أرستقراطية محاربة، كما تهيمن عليه، ربما، فئة من الحرفيين الحدادين (٦٠). وتكشف شعائر الدفن الفردي عن بدايات تشكل هياريكية اجتماعية: ففي المقابر المغطاة بالحجارة، كان الأفراد المهمون يدفنون مع متعلقاتهم الشخصية، وهي عبارة عن أسلحة جميلة وجواهر وحلي (٦١). كما أن أهمية البطل المحارب تبدو من الآلهة الجديدة، وهي الآن ذكورية ومسلحة (تُلقي في الظل الأرض الأم أو ربة

الخصوبة العزيزة على أفئدة المزارعين النيوليتيين)، كما تبدو من العبادات الجديدة التي انتشرت، وهي عبادات للنار وللشمس.

وقد انتشرت هذه الثقافة انتشاراً واسعاً. فبين عامي ١٨٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد، نجحت في طرد الدفن الجماعي في كل مكان. كما أن الأضرحة القديمة في بريتانيا، حيث كانت ما تزال تستخدم، لم تعد تضم غير جسد واحد. وكان هناك استثناء واحد: فالجنوب المتوسطي والجنوب الغربي، من البرانس إلى آكيتين، قد ظلا وفيين لتقاليدهما القديمة في الدفن الجماعي (٦٢). على أن الجماعات السكانية المحلية لم تجر إزالتها جسدياً في أي مكان. بل ربما جاز لنا أن نتصور أنها يحتمل أنها كانت خادمة للسلادة الجدد ومشتغلة بالزراعة لحسابهم.

وبحلول عام ١٨٠٠ قبل الميلاد، كانت عدانة البرونز قد أصبحت منظمة تنظيمياً جيداً جداً. وقد اقتصر في البداية على إقليم الرون بمعناه الواسع (الفاليه السويسرية، وادي الرون نفسه، الجورا والألب) لكن مصنوعات البرونز - الخناجر الجميلة، الفؤوس القوية، الخرزات، السوارات، البروشات التزيينية، المخارز والابر - كان يجري تبادلها بشكل نشيط في بورجونيا والمسييف الأوسط وآكيتين بل وفي لانجدوك - روسيون. وهكذا بدأ وادي الرون يلعب دوره كرابطة بين البحر المتوسط وأراضي ألمانيا.

وبعد ذلك بثلاثمائة سنة، ظهرت سلسلة جديدة من مراكز الأعمال المعدنية على طول شاطئ المحيط الأطلسي. وقد ظهر آنذاك ذلك الابتكار الجوهري - الانتاج المتسلسل للأدوات البرونزية (والذي سوف يؤدي إلى طرد الأدوات الحجرية إلى الأبد). وقد تخصص كل مركز في نوع معين من الفؤوس أو الخناجر أو رءوس الحراب أو السيوف. والحال أن هذه الأدوات التي كانت تُنتج في سهول ميدوك أو في بريتانيا، وفي نورماندي أو بين اللوار والجارون، كان يجري تصديرها كلها من مقاطعة إلى أخرى وكانت تنتهي كلها إلى التجاور في أسواق واحدة (٦٣).

وبشكل مستقل عن هاتين المنطقتين - الأطلسية والرون - الألبية - يمكن تمييز منطقة انتاج ثالثة في سياق ثقافي مختلف اختلافاً طفيفاً، جاءت به هذه المرة شعوب من وراء الراين استقرت أولاً في الألزاس، ثم في الحوض الباريسي ووسط الغرب. وقد وجدت فؤوسها الثقيلة وسكاكينها زبائن في الجنوب، وعلى طول السون، وفي الجورا، بل وفي المسييف الأوسط، في حين أن الفخار المميز لهذه الشعوب قد وصل حتى إلى إقليم الشارانت (٦٤).

ونحو عام ١٢٠٠ - ١١٠٠ قبل الميلاد، حدث انقلاب ثقافي مهم. ففي أعقاب أحداث عاصفة في بحر إيجه، انتقلت شعوب جديدة إلى وسط أوروبا وفي نهاية الأمر، كما هي الحال غالباً، عبرت الراين. وكانت ثقافة هذه الأقوام ثقافة أصيلة تماماً، حيث إن القادمين الجدد كانوا يحرقون جثث موتاهم - ونحن نعرف إلى أي حد كانت شعائر الدفن مهمة. وكانت الجرار التي تحتوي على رماد الجثث تدفن متجاورة في مقابر تعرف بـ "حقول الجرار". وقد تأثرت ثلاثة أرباع فرنسا بـ "ثقافة دفن الجرار" التي ترسخت في سياق مؤات من الناحية الاقتصادية. والواقع أن التوسع الملحوظ للقرى في المنخفضات واستخدام المحراث واستيطان التلال وإزالة الغابات واستخدام العربة والحصان المستأنس كحيوان جر (٦٥) - كل هذه الأمور تشير إلى زمن نمو سكاني ضخم. أما المنطقة الوحيدة التي ظلت خارج تأثير هذه الحركة فهي الغرب الأطلسي، وهو منطقة تمتد إلى الداخل حتى الحوض الباريسي، ومن ثم فقد أصبح مركزاً لأسواق نشيطة حيث تتنافس المؤثرات الأطلسية و"القارية" فيما بينها.

إلا أنه حتى في المناطق التي استقر فيها القادمون الجدد، يظل وجود الثقافة المحلية ملحوظاً. ففي بوردونيا وأماكن أخرى، على مدار قرنين، كان دفن الجثث وحرقها يُمارسان جنباً إلى جنب، في ساحة الدفن الواحدة نفسها أحياناً. وقد ظلت الاختلافات المحلية واضحة إلى حد كبير بحيث إن بعض الباحثين في مجال الأركيولوجيا، اعتقاداً منهم بأن الشعوب المختلفة لها ممارساتها الثقافية الخاصة بكل منها، قد تحدثوا عن خمس موجات متعاقبة من الغزاة. لكن چان جيلين يرى أننا يجب أن ننظر إلى مثل هذه الاختلافات على أنها نتاج سيورورات تطور مختلفة، بل لقد تساءل ما إذا كانت "قد حدثت أية غزوات بالفعل" أصلاً. وهو يسأل، لماذا لا يجب أن نفكر من زاوية الثقاف وحده، والذي ينتشر من مكان إلى آخر بفضل الاتصالات بين "تجار متنقلين أو جماعات صغيرة لكنها دينامية" (٦٦)؟

ومن الواضح على أية حال أن عصر البرونز كان، بشكل متزايد ومع مرور الوقت، عصر تبادل نشيط (غالباً ما كانت قوالب النحاس والقصدير ترحل إلى مسافات ملحوظة، من بريتانيا إلى الألب أو إسبانيا مثلاً)، عصر تعدد وتداخل لثقافات مختلفة. كما أن عصر الحديد (من عام ٧٠٠ قبل الميلاد إلى الفتح الروماني) كان عصر انقلابات كثيرة. وقد تزامنت بدايته مع تدهور في المناخ، فقد أصبح أكثر برودة وأكثر رطوبة: وغمرت البحيرات ضفافها وغزت الأشجار سفوح الجبال - أشجار الزان

الشكل ١٠

مواقع عصر البرونز في فرنسا



كان هناك مجالان رئيسيان للإنتاج: على طول ساحل المحيط الأطلسي في الغرب وفي الإقليم الواقع بين الألب والألزاس في الشرق.

نقلًا عن:

J. Guilaine, *op. cit.*

وأشجار جار الماء وأشجار التَّنُوب وأشجار البيسية. وطبيعي أن توسع الغابات سوف يكون في نهاية الأمر مفيداً لعدانة الحديد الجديدة، وهي تقنية لها مطالب أكثر مما لتقنية البرونز: فهي تتطلب درجات حرارة مرتفعة واستهلاكاً ضخماً للخشب. وبعد أن ظلت أعمال الحديد لزمن طويل سراً في أرضها الأصلية، المملكة الحيثية، انتشرت ولكن بشكل بطيء وعشوائي فقط، ونحن لا نعرف متى أو كيف وصلت لأول مرة إلى أوروبا الغربية، فمن المحتمل أن تكون قد وصلت عبر البحر المتوسط، على أيدي الفينيقيين، أو على الطرق البرية الأوروبية في إثر موجات مختلفة للهجرة كانت، كالعادة، تعبر الراين (٦٧).

وضمن عصر الحديد، يمكن تمييز فترتين رئيسيتين: ثقافة الهالستات (٦٨)، التي تبدأ في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد؛ وثقافة لا تين، منذ نحو ٥٠٠ سنة قبل الميلاد. ونحن نعرف هاتين الفترتين معرفة لا تتفوق كثيراً على معرفتنا للفترات الأسبق، ومن هنا وفرة المشكلات التي تواجهنا والتي غالباً ما يتعذر علينا حلها (ومن الذي يمكنه أن يستغرب ذلك؟).

وينطبق هذا بالتأكيد على فترة الهالستات. فنحن لا نعرف سوى القليل عن القادمين الجدد، فيما عدا أنهم كانوا أول فرسان يظهرون في الغرب. (كان الحصان مستقراً في الغرب بالفعل منذ عدد من القرون، ولكن كمجرد حيوان للجر). كما كانوا أيضاً أول من جلبوا معهم تكنولوجيا صناعة الحديد، وكانوا يحوزون مجموعة متنوعة من الأدوات والأسلحة الجديدة، تشمل السيف العريض الحد والذي منحهم تفوقاً لا يقهر على أي خصم لا يزال مسلحاً بالخنجر البرونزي القديم. والحال أن الدوريان، الذين كانوا هم أيضاً فرساناً من شمالي البلقان، كانوا قد تمكنوا بشكل مماثل من تدمير الحضارة الميسينية الرائعة في اليونان نحو عام ١١١٠ قبل يسوع المسيح، قبل قرون من ظهور الهالستات.

ومثل هذا الدمار لم يحدث في "غاليا" التي كانت بالأحرى مسرح تسلل وتراكب وحكم أجنبي. فمجملة المنطقة الواقعة "جنوب خط من اللورين وشامانيا إلى مصب اللوار" كان محتلاً من جانب الغزاة. ويمكننا تتبع آثارهم من روايي مدافنهم (٦٩) والتي دائماً ما كان موتاهم من المحاربين سواء كانت جثثهم محروقة (كما في زمن دفن جرار رماد الجثث) أو مدفونة، مصحوبين بدروعهم وسيوفهم، وأحياناً مركباتهم أو أغطية سروج جيادهم. ومن السمات الحاسمة أنه بين هذه المقابر الفردية يمكن دائماً تمييز

الشكل ١١

مواقع العصر الأول للحديد (٧٠٠-٥٠٠ قبل يسوع المسيح)



تتركز هذه المواقع في المنطقة التي احتلها الغزاة الذين تعرف حضارتهم بحضارة الهالستات: في جنوب وفي شرق اللوار.

نقلًا عن:

J. Guilaine, *op. cit.*

مقابر الرؤساء من خلال ما تتميز به من فخامة . ومن الواضح أن مجتمع الفرسان هذا كان تراتبياً بشكل قوي، وهو أمر سوف يكون إحدى الخصائص الرئيسية لغاليا، وسوف يستمر حتى الفتح الروماني وبعده .

ولكن من كان هؤلاء الناس الذين استشفروا غاليا؟ يقول البعض إنهم كلتيون بدائيون . ويرى البعض الآخر أنهم هندو - أوروبيون لكنهم ليسوا كلتيين على الإطلاق، ويذهب هذا البعض الآخر إلى أن الكلتيين "الحقيقيين"، المتمين إلى ما يسمى لفترة لا تين، قد دمروا المواقع الحصينة لسابقيهم عندما وصلوا . ولا يمثل هذا الكلام حجة قاطعة بالمرّة: فالقبائل الكلّية كانت، على أية حال، تتحارب فيما بينها . وطبيعي أن المعيار المقبول الوحيد لتحديد الجماعات الكلّية لا بد من أن يتمثل في لغتها . لكننا لا نعرف شيئاً عن لغة شعب الهالستات . على أنهم قد جاءوا من وسط أوروبا، مثلما سوف يفعل الكلتيون فيما بعد، وقد أمتد نفوذهم امتداداً واسعاً، من الأودير إلى إسبانيا .

بيد أنه في تزامن مع مجيئهم، ساعد عدد من المؤثرات الأخرى على تحويل مشهد ومجتمع ما سوف يصبح يوماً ما غاليا . فقد شهدت القرون السابع والسادس والخامس قبل الميلاد نمو وتوسع مختلف حضارات البحر المتوسط، مع خلق مستعمرات من جانب الدول - المدن الإغريقية ومن جانب الفينيقيين والايثروريين . وفي غاليا الجنوبية، أنشأ الفوسيان مدينتهم ماساليا، مرسيليا الآن، في عام ٦٠٠ قبل يسوع المسيح: ولما كانت تحتل موقعاً مثالياً، فقد أصبحت مركزاً مزدهراً، يجذب إليه عبر ممر الرون - السون موارد "سوق" غاليا (بما في ذلك القصدير البريطاني)؛ ويحافظ على انفتاح العلاقات التجارية مع البحر المتوسط، بالرغم من الهجمات المتكررة من جانب القرطاجنيين والايثروريين . والحال أن هؤلاء الأخيرين الهابطين من إيطاليا الشمالية، قد وصلوا إلى غاليا عابرين الممرات الألبية، التي كانت مسكونة بالفعل . وقد جاء القرطاجنيون أصلاً عبر إسبانيا وقبل انقضاء وقت طويل، راحوا يستخدمون الممر البحري الأطلسي (٧٠) .

فهل كان انفتاح غاليا هذا على التجارة الجنوبية هو السمة الرئيسية لفترة الهالستات التالية؟ في تلك اللحظة ظهرت لأول مرة المدن - القلاع، أو على أية حال القرى الجبلية الحصينة، وفي المقابر الأميرية حيث كان الأشخاص المهمون يدفنون تحت ركाम من الحجارة مع مركباتهم وكل ممتلكاتهم، اكتشف الأركيولوجيون أشياء مستوردة

ثمينة ذات أصل إغريقي أو إيتروري . والحال أنه عند الطرف الأدنى لواحدة من هذه "المدن" التلية، أوبيديوم فيكس في بوجونيا، جرى في عام ١٩٥٣ اكتشاف مقبرة رائعة لشابة ترقد في مركبة مزينة بجميع حليها (٧١). وكان إلى جانبها ثلاث طاسات برونزية إيترورية الأصل، وطاسة فضية وكوبان أثينيان واوينوكوي برونزي وأخيراً إناء فيكس الشهير، وهو قطعة برونزية ضخمة طولها ١,٦٥ متر ومزينة بإفريز يصور محاربين ومركبات (٧٢). وهو لافت ليس فقط بسبب روعته وإنما أيضاً لأنه لا بد وأنه قد قطع مسافة عظيمة حتى يصل إلى فيكس من مكانه الأصلي: إما كورنثه أو ورشة في اليونان الكبرى، ربما فوسيه في آسيا الصغرى.

وترجع مقبرة فيكس إلى نهاية القرن السادس قبل الميلاد. وبحلول ذلك الوقت، نجد أن الغزاة المنتمين إلى ما يسمى بحضارة لا تين، والذين يسود الاعتقاد عموماً بأنهم كلتيون (٧٣)، كانوا قد بدأوا يصلون بالفعل إلى غاليا الشرقية. وقد جرى تدمير فيكس تدميراً وحشياً في الأعوام الأولى للقرن الخامس قبل الميلاد وهو ما حدث أيضاً لقلعة لو بيج، في الدروم. وبعد ذلك بوقت قصير سوف يجيء الدور على قلعة لا كامب دي شاتو في الجورا والتي سوف يتم هجرها (٧٤). لقد كان المجتمع الهالستاتي أخذاً في التفكك لأن فتحاً أجنبياً جديداً - سريعاً وعنيفاً ومتفجراً - كان يجري على الأرض "الفرنسية"، وسرعان ما سوف يغطي الجانب الأعظم من مجمل هذه الأرض، ومن المؤكد أن القادمين الجدد كانوا محاربين بوسائل وفرساناً ذوي عزيمة، ومعدنين مجربين وحرفيين لا نظير لهم في المهارة، كما أنهم كانوا علاوة على ذلك جالبي ميثولوجيا باهرة، وديانة وثقافة أصيلتين، ولغة هندو - أوروبية كانت ملكهم وحدهم. هؤلاء كانوا "أسلافنا الغاليون".

كلتيون أم غاليون:

عن حضارتهم، بأكثر مما عن تاريخهم

مع كلتيي ثقافة لا تين نغادر بالفعل ما قبل التاريخ وندخل منطقة شبه التاريخ الفجرية. لكننا لسنا بعد في رائعة نهار التاريخ، والذي يرجع في أقدم المواعيد إلى زمن الفتح الروماني (من ٥٨ إلى ٥١ قبل الميلاد). وهكذا فإن المعلومات الدقيقة عن المقدمة الطويلة لـ "التاريخ الفرنسي" ضئيلة ومتفرقة.

كان الغاليون كلتيين. ولكن ماذا كان الكلتيون؟ لقد كانوا هندو - أوروبيين - لكن

ذلك لا يمضي بنا خطوة إلى الأمام، لأن الهندو - أوروبيين، الذين ترجع أصولهم إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، قد ضموا مجموعة متنوعة من الشعوب التي انتشرت في مجمل العالم القديم، من المحيط الأطلسي إلى نهر الجانج. وقد جمعت بينهم سمة واحدة فقط: لقد كانوا يتكلمون لغات متصلة فيما بينها، مما يسمح لخبراء اللغة بتمييز الواحدة عن الأخرى. وقبل وقت غير بعيد، كان هناك قبول لتفسير بسيط تماماً للظاهرة الكلّية: لقد كان الهندو - أوروبيون في الأصل شعباً واحداً، يحيا جنوب جوتلاند على حافة البلطيق وبحر الشمال، ثم تفرق هذا الشعب فيما بعد، حيث شق كل فريق من فرقائه طريقه الخاص وطور لغته الخاصة. ومما يؤسف له أن هذا التفسير المطمئن قد تم التخلي عنه ولم يحل محله بعد تفسير آخر.

وهكذا فإن الكلّيتين، الذين ينتمون إلى فرع غربي من الهندو - أوروبيين (شأن الهالستات وشعوب ثقافة دفن رماد الجثث البشرية في الجرار قبلهم وربما أيضاً شعب الثقافة الجرسية الذي يرجع إلى أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد)، قد تعين تحديد موقعهم في ماضٍ غامض وغير محدد. ونحو القرن السابع قبل الميلاد، من المرجح أنهم كانوا يعيشون في المربع الذي توجد فيه بوهيميا الآن، في وسط أوروبا، وهو ملتقى ومفرق طرق لمؤثرات كثيرة. ولذا لا يمكن وصف الكلّيتين بأنهم جنس؛ فقد اكتشف الأثريولوجيون عناصر أقوام قصيرة الرأس وأقوام طويلة الرأس بينهم. وبحلول القرن الخامس قبل الميلاد، "كانوا غير متجانسين بدرجة عدم تجانس السكان اليوم تقريباً"، وسوف يصبحون غير متجانسين بدرجة أكبر بكثير مع احتلالهم لأراضٍ جديدة (٧٥). كما أنه لا يمكننا أن نتحدث بالفعل عن شعب - فحتى هذه الكلمة الغامضة قوية بشكل زائد عن الحد - ومن المؤكد أنه لا يمكننا الحديث عن دولة. وربما كانوا قد جاءوا من قبيلة فرضت قيادتها، قبيلة تمكنت فيما بعد من إخضاع الآخرين؛ وقد جرى تصدير ثقافتهم فيما بعد على نطاق واسع ثم تسنى في نهاية الأمر تكوين كلِّ متماسك.

والشيء الذي يدعو إلى الاستغراب هو أن تتشكل مثل هذه الجماعة المتماسكة على الإطلاق: ولا بد أن ذلك كان نتاج كثير من القوى التي تفاعلت فيما بينها، والكثير من الظروف التي تلاقت، والكثير من التطورات والنجاحات. وتفسير باري كانليف تفسير جد مغرٍ، لأنه التفسير الوحيد الذي يضيف معنى معيناً على سيرورة ناجزة (٧٦). فهو يرى أن انقلاباً بعيداً في الأزمنة السحيقة من الماضي هو المسئول عن كل شيء: فنحو

الشكل ١٢

غاليا الكلتيّة في القرن الثاني قبل يسوع المسيح



تبين الخريطة مختلف قبائل غاليا قبل فتح الرومان لبروفانس في عام ١٢١ قبل الميلاد.

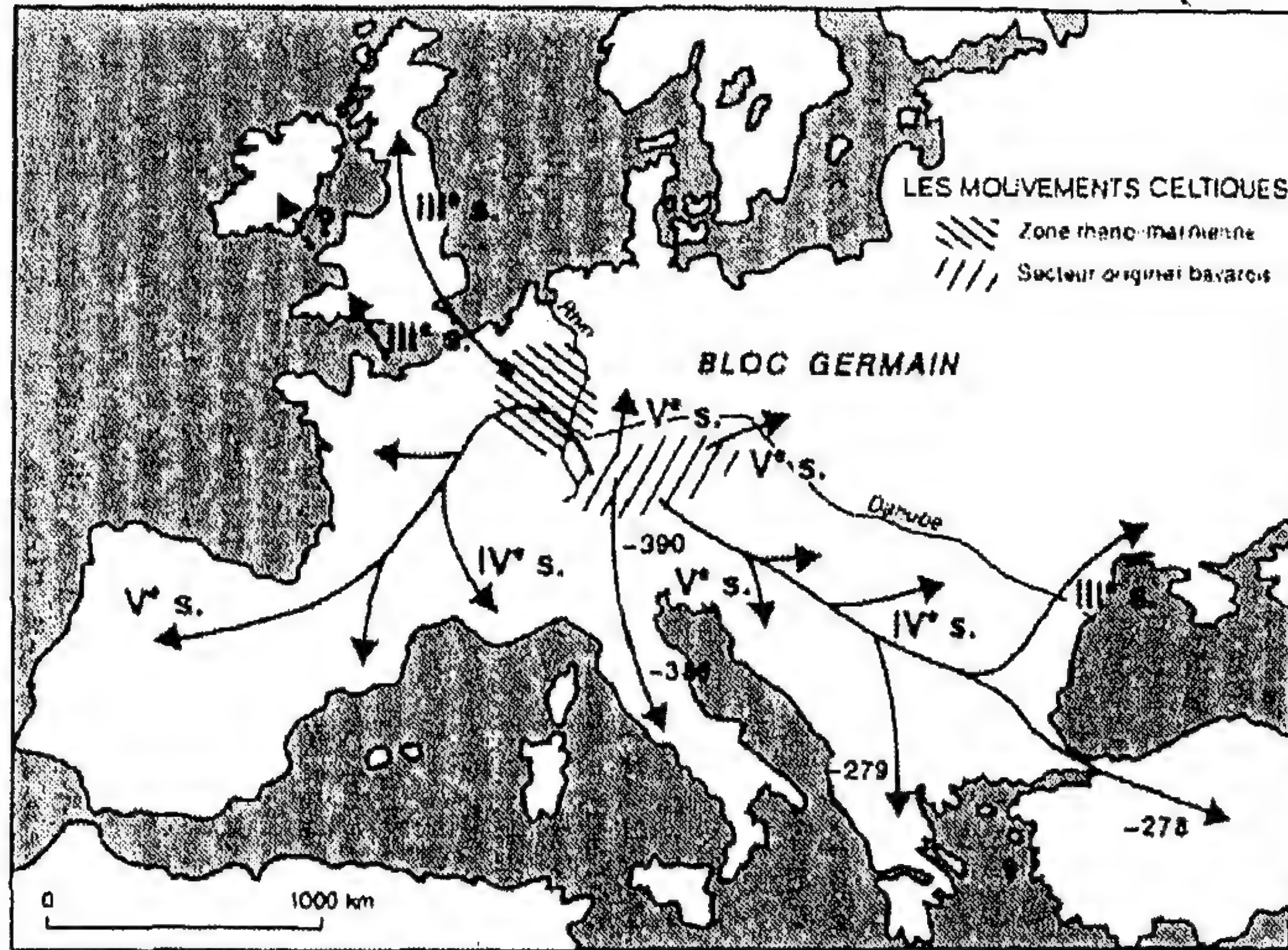
عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، أدت غزوات الشعب الدوري والأفعال التي ما زال يكتنفها الغموض والتي قامت بها "شعوب البحر" إلى الانهيار المفاجيء للحضارة الإيجية المؤثرة التي كانت قد جعلت من شرقي البحر المتوسط، من مصر إلى اليونان وإلى المملكة الحيثية في آسيا الصغرى، مركزاً غير عادي للتبادل التجاري والثقافي، له امتدادات وتشعبات في طول الأرض وعرضها (٧٧). ويمكنكم أن تتخيلوا مصباحاً، كمصباح الصيادين والذي يجتذب الطرائد من جميع الجهات. وعندما انطفأ المصباح، كان على أوروبا الوسطى، المحرومة من نوره، أن تصنع نورها الخاص وتعتمد على مواردها الخاصة، مثلما سوف يتعين على أوروبا الشمالية، المتمحورة حول البلاد الواطئة، بعد ذلك بألفي سنة، أن تبني نفسها من لا شيء حتى تصبح واحداً من المراكز النشطة في أوروبا العصر الوسيط. وهو يذهب إلى أن هذه السيورة كانت في صالح تلك المناطق العليمة بأحدث تقنيات صوغ الحديد. والحال أن العدانة التي حافظ الحيثيون لزمن طويل على أسرارها، ثم انتقلت بعد ذلك غرباً عبر ايليريا والبلقان، كانت عاملاً مساعداً، شجع على ظهور شعب من صائغي المعادن والمحاربين الشرسين. وعلى شكل أحفاد لمثل هذا الشعب، ظهر الكلتيون بعد ذلك بعدة قرون - وهم أحفاد وفيرو الأعداد بشكل كاف ومزدهرون بشكل كاف لأن يشنوا سلسلة طويلة من حملات الفتح.

والحال أن التوسع الكلتي، الذي تألف من سلسلة من الغارات المباغطة والتقدمات الخاطفة، قد دام ثلاثة أو أربعة قرون وامتد على مساحة جد واسعة. وفي الشكل ١٣ الذي أخذته عن چاك هارمان (٧٨)، يتضح على الفور اتساع المساحة التي شملها التوسع. وعلى مدار قرون، كان العدوان الكلتي هو البديل الوحيد لتدخل دول - مدن البحر المتوسط - الإغريق أو الرومان أو الشعب الايتروري - والقوة المحاربة الوحيدة القادرة على صدّهم لأي مدى زمني وعلى بثّ الخوف في صدورهم.

والواقع أن التحركات الكلتية الأولى خارج إقليم بافاريا، قد دفعت الكلتيين في اتجاه الغرب. وبعد استعمار بلاد الراين الأوسط والأدنى، استقروا، بحلول القرن السادس قبل يسوع المسيح، بين الراين والمارن. ومن هذه القاعدة الراسخة تحديداً، شنوا فيما بعد حملات ظافرة عبر مجمل غاليا وعبر البرانس، إلى داخل الشطر الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية (الكلت - ايبير). وبحلول القرن الثالث قبل الميلاد، من المرجح أنهم كانوا قد وصلوا إلى بريطانيا العظمى ثم إلى أيرلندا.

الشكل ١٣

الفتوحات الكلتية (بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد)



من قاعدتها الأصلية في بافاريا والمنطقة الواقعة بين الراين والمارن (والمحتلة منذ القرن السادس قبل الميلاد)، تمتد هذه الفتوحات بشكل واسع في كل اتجاه، ما عدا الشمال حيث أوقف تقدمها المجال الجرمانى.

على أنه، منذ القرن الخامس قبل الميلاد، جرى شن غارات أخرى من بافاريا، عبر ممري برينر وسان - جوتارد. وهكذا فتح الكلتيون إيطاليا، واستولوا على روما في عام ٣٨٦ قبل الميلاد واستقروا في وادي البو (غاليا عبر الألبية)، بين الفينيت والايتروريين والليجور. بيد أن تقدمهم في إيطاليا الجنوبية سوف يصدّه الرومان والايتروريون (٧٩) ولن يحتلوا في نهاية الأمر غير شريط جد ضيق من الأرض بين الألب والبحر الأدرياتي.

وأخيراً، في تطلع الكلتيين إلى الشرق، تغلغلوا عميقاً في البلقان وآسيا الصغرى، متخذين طريق وادي الدانوب في تحركهم، وقد نهبوا ديلفي في عام ٢٧٩ قبل الميلاد، وعبروا البُسفور في عام ٢٧٨ قبل الميلاد، وفي العام نفسه أقاموا دولة جالاتية دامت حتى عام ٢٣٠ قبل الميلاد. ولكن هنا، كما في إسبانيا، بعيداً عن بلادهم، عند أقصى حدود توسعهم، واجه الكلتيون مشكلة الأعداد المتناقصة. وكان عليهم أن يتصالحوا مع الشعوب المقيمة، وأدى تأثيرهم، مع أن بالإمكان رصد ملامحه، إلى "مستوطنات مختلطة، ذات درجات متباينة من الكلتية" (٨٠).

وهذا السيناريو الزماني، الذي أعاد تركيبه جاك هارمان، والافتراضي بالضرورة (فالنصوص الباقية من العصر القديم تسمح بتفسيرات مختلفة)، إنما يبدو لي معقولاً. وربما جاز لنا أن نتصور هذه الغارات الظافرة على أنها شبيهة بالغارات التي شنّها في ١٠٢ - ١٠١ قبل الميلاد السيمبر والتوتون (قبائل جرمانية، وإن كانت ذات عناصر ثقافة كلتية)، أو بشكل أرجح شبيهة بهجرة الهلفيت والتي سوف يوقفها قيصر في عام ٥٨ قبل الميلاد عند بداية الحروب الغالية: طواير طويلة من الرجال والنساء والأطفال والمركبات وراكبي الخيول - شعب بأسره يتحرك، في مسيرات غير منظمة أثرت مع ذلك على مجمل مصائر أوروبا والبحر المتوسط على مدار قرون من الزمن. وخلقت مواجهة بين أوروبا الداخلية وأوروبا المتوسطية، وبين القبائل والدول - المدن (٨١)، وبين البرابرة والمتحضرين، وبين اقتصاد بدائي واقتصاد قائم على النقود. وفي عهدهم الطويل، لم تكن للكلتين قط أية مدن حقيقية ولا دولة ذات هياكل متطورة ولا، بالأحرى، امبراطورية. ولم تكن لديهم أية أهداف سياسية طويلة الأجل ولا فتوحات مخططة بدهاء. فروح المغامرة واشتهاء الأسلاب وأحياناً أيضاً، دون ريب، الأفواه الإضافية التي يجب إطعامها، هي التي دفعتهم إلى غزواتهم. وكان بوسعهم أن يختصموا فيما بينهم أو أن يؤجروا أنفسهم كمرتزقة للإغريق في صقلية أو آسيا

الصغرى، أو للمصريين وللقرطاجنيين. ويقول لنا ميشليه "إن أي واحد يبحث عن الشجاعة العمياء والدم الذي يراق عن طيب خاطر، كان يستأجر غاليين" (٨٢).

غاليون أم كلتيون، لا فرق هناك فهم شعب واحد. فالكلتيون المعروفون لدى الإغريق بالكيلتوي، قد سُموا عندما استقروا في غاليا بالجاللي - الغاليين - من جانب الرومان. وتيسيراً للأمر، سوف أسميهم بالكلتيين عندما أتحدث عن الجماعة ككل، بينما سوف أسميهم بالغاليين عندما أتحدث عن سكان ما سوف تصبح فيما بعد فرنسا. إلا أنه عندما يعرض قيصر في بداية التعليقات أقسام غاليا، نجد أنه يصف بـ "الكلتي" القسم الأوسط من البلد المعرض للهجوم - من الجارون إلى السين - تمييزاً له عن أكتين جنوباً (بين البرانس والجارون) وبلجيكا شمالاً (من السين إلى الراين).

وبعد أن غزا الكلتيون غاليا من جهة الشرق، استقروا بأعداد كبيرة في الألزاس واللورين وشامانيا وبورجونيا (٨٣)، حيث استخدموا الغابات وركائز الحديد. وفي الأماكن الأخرى، كان تركيزهم أقل كثافة - إذ نادراً ما سكنوا في المورفان أو في المسيف الأوسط. وفي اتجاه الجنوب، واجهوا مقاومة من الإيبيريين في الغرب ومن الليجور في الشرق؛ فعلى كل من جانبي وادي الرون الأدنى، أمكن وقف زحفهم. إلا أنه أياً كان الأمر، فإن السكان المحليين، وإن كانوا قد تعرضوا للإخضاع وللقمع بهذه الدرجة أو تلك، لم يتم محوهم في أي مكان. والحال أن هنري هوير (٨٤)، الذي ما تزال أعماله حول الكلتيين من الكلاسيكيات، يشدد على أعداد الغزاة الضخمة جداً: بعبارة أخرى، لا بد من النظر إلى الامتدادات اللغوية والثقافية والاجتماعية لغاليا الكلتيّة على أنها نتاج لتمازج عرقي مهم. والواقع أن هؤلاء الكلتيين - وهم بالفعل خليط من الأجناس عند نقطة انطلاقهم في أوروبا الوسطى، كما تسنى لهم، شأن جميع الشعوب المهاجرة، ضم كتلة من جماعات أجنبية أخرى على طريق تحركهم - قد قضوا وقتاً طويلاً في غاليا، حيث تصرفوا بوصفهم سادة، بما سمح لهم بالاختلاط بالسكان المفتوحين. وقد حدثت سيرورة استيطان وثاقف على مدار عدة قرون.

وتتمثل نجاحات الكلتيين في أنهم قد مدوا وفرضوا لغتهم وأسلوب حياتهم في كل مكان في غاليا، فيما عدا الجنوب، ويمكن جزئياً تفسير نجاحهم الثقافي بالاقتصاد: لقد ازدهر وشجع التبادل. ويجب أن نلاحظ أن الكلتيين لم يجلبوا لا زراعة الحبوب ولا المهارات الحرفية إلى غاليا: فقبل وصولهم، كانت تجرى زراعة المحاصيل حيثما سمحت بذلك الغابات أو السبخات أو فيضانات الأنهار (الواقع أن الغابات كانت أكثر

انتشاراً مما هي الحال اليوم، خاصة في شمال اللوار: فقد كانت تغطي البوس والأورليانية والجاتينية والبليزوا والبيرش... (٨٥). وكان الشعير والقمح يُزرعان منذ قرون بالفعل، شأنهما في ذلك شأن الدخن. وما لم يكن موجوداً بعد هو حشيشة الدينار والشوفان والكستناء وبالأخص أشجار الكروم؛ لكن هذه الأخيرة، بما أنها قد جاءت إلى پروفانس بعد وقت قصير من فتح روما لها في عام ١٢١ قبل الميلاد، لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تصل إلى الأرض الكلتية. وبالمثل، كان الغاليون يتبنون تقليداً أقدم بكثير من تقليدهم الخاص عندما أرسلوا إلى الرعي (في الغابات عادةً) قطعان الأغنام والماعز والثيران والخنازير بأعداد كافية تمكنهم من تصدير اللحوم المملحة والصوف إلى روما، حتى قبل الفتح. ومن الناحية الأخرى، ربما كان الكلتيون مسئولين عن التبنّي الواسع الانتشار للحصان - أحد أهوائهم الكبرى (٨٦) - ومن المؤكد أنهم كانوا مجددّين في تكنولوجيا صوغ الحديد في مقاطعات كثيرة كانت ما تزال تجهل هذه التكنولوجيا في أوائل فترة لا تين. ثم إنهم كانوا مسئولين عن التطوير الواسع النطاق للأدوات الحديدية في الزراعة، وهي الأدوات التي كانت ما تزال نادرة نسبياً في زمن الهالستات.

وأياً كان الأمر، فإن الريف الذي اجتازه قيصر خلال حروبه الغالية كان بحلول ذلك الوقت مأهولاً بمزارعين مجربين من المؤكد أنهم كانوا أكثر تقدماً من الرومان. ومن غير المحتمل (بالرغم من مزاعم بعض المتحمسين) أنهم قد ابتكروا المحراث الثقيل: فشفرات المحراث الحديدية الكثيرة التي عُثر عليها كان بالإمكان أن تتناسب مع مجرد محراث يدوي، وليس مع المحراث ذي العجلات الحقيقي الذي يقلب التربة في عين الوقت الذي يحفر فيه أخدوداً. إلا أن من المؤكد أن الغاليين قد حسّنوا تقنيات الحراثة، لأنهم كانوا عشية الفتح يزرعون تربات ثقيلة كان من شأن المحراث اليدوي البسيط أن يكون غير كافٍ للتعامل معها (٨٧)، وكان الأيدوان، حول بيراكت، قد تبنوا ممارسة تكليس الأرض (٨٨). كما أن الغاليين قد استخدموا أدوات زراعية ممتازة - مناجل كبيرة للحصاد، مناجل عادية، فؤوس، بل وأداة تدعو إلى العجب لم يُعثر على مثل لها في مختلف الأماكن، وهي عبارة عن حصّاد - دراسة، يوضح پليني الأكبر أنها "آلة تتألف من حاوية ذات حافة مسننة، مركبة على عجلتين ويجرها ثور، بحيث إن سنابل القمح تسقط في الصندوق". وكانت غالباً غنية بنباتات الحبوب - وهي نعمة ذات حدين، حيث أن غزاتها لم يجدوا صعوبة في العيش على حساب الأرض أثناء شقهم لطريقهم شمالاً.

وفي غاليا، سوف يجد الرومان أيضاً حرفيين ذوي مهارة غير عادية. وهؤلاء الحرفيون الذين كانوا صائغين للحديد لا منافس لهم وتمكنوا من تكنولوجيا كل من الحديد المطاوع والقصدير (الواقع أن بلييني ينسب إلى البيتوريج ابتكار القصدير)، كانوا أيضاً صاغة بارعين للرصاص والفضة والذهب. وتجاوباً مع عشق الغالين للحلي، صاغ حرفيوهم مجوهرات جميلة وحلياً رائعة مطلية بالميناء (أحد تخصصاتهم) ودروعاً رائعة ولجامات جد مزخرفة للجياد، وقد استخرجوا الحديد والذهب في أماكن مثل براسمپوي على حافة اليز - دو - فرانس في السيفين: وهنا، في عام ١٨٥٠، نجد أن الطحان المحلي، الذي كان أيضاً جيولوجياً هاوياً، قد "عثر على عملات معدنية ترجع إلى زمن غاليا قبل الرومانية" (٨٩). كما أن السيوف الكلتيّة، من القرن الرابع إلى القرن الأول قبل الميلاد، تعد دليلاً على استيعاب متزايد لتقنيات طرق وكربنة الحديد، بينما تظهر نحو ذلك العصر نفسه مجموعة متنوعة غير عادية من الأدوات المتخصصة لتشكيل الجلود وللحفر على الخشب وللنقش على المعادن - أي مجمل سلسلة الأدوات الحديثة تقريباً (٩٠).

كما كان الغاليون نساجين لكل من الكتان والصوف، وكانوا يصبغون منسوجاتهم بالألوان الزاهية التي كانوا مغرمين بها. وكانوا أكفاء في أعمال الخشب والجلود، حيث استخدموا تقنيات غير معروفة للرومان: إن برميل النبيذ، وهو بديل مناسب لقارورة الأمفورة، كان ابتكاراً كلتياً. وكانوا أول شعب في أوروبا يصنع الصابون، ولم يكونوا فقط صناع أحذية أكفاء (يتجوزن القباقيب الثقيلة ذات النعال السميكة والمعروفة بالجاليكاي)، بل كانوا أيضاً صناع خزف وفخاريات جيدين.

كما شهدت غاليا قبل الفتح ظهور المدن، مدشنةً بذلك ما يمكن وصفه دون مبالغة بصناعة حرفية حضرية. ودون رغبة من جانبي في مد المقارنات إلى مسافات بعيدة، فإن ظهور طوائف الحرف في مدن فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي يبدو بالمثل أنه قد رمز إلى نقطة تحول في الحياة الحضرية والصناعية. كما سوف نرى فيما بعد (٩١).

فهل يجب أن نلاحظ ذلك بشكل خاص في غاليا؟ وبما أن الجزء الأدنى من المدينة في بيرراكت قد شمل مركزاً بأكمله مخصصاً للحرفيين، فهل يجب أن نعتبر ذلك علامة على تقسيم متزايد للعمل، هو الظاهرة المصاحبة بالضرورة للتقدم الاقتصادي؟

إن هذا الاقتصاد القائم على الزراعة والحرف قد شجع عليه تدفق رشيق تماماً للحركة. فقد وفرت غاليا قبل الرومانية سبلاً مختلفة للنقل. ولم تكن طرقها البرية قد

أصبحت بعدُ، ربما، طرقاً بالمعنى الصحيح للكلمة، لكنها كانت موجودة مع ذلك كما كانت هناك طرق بحرية ونهرية. وسوف تثرث روما هذه الطرق. ومن غير الممكن تصور أن الطرق كانت سيئة إلى الحد الذي وُصفت به، فهي قد حملت عربات تتحرك على عجلات: ليس فقط العربات الباذخة - الایسیدوم والکارپتوم - وهي مركبات سريعة وخفيفة كالعربات المستخدمة في الحرب - وإنما أيضاً العربات الثقيلة التي تتحرك على أربع عجلات، الكاروكا والريدا والبيتوريتوم (كل العربات الكلتيّة التي صنع الرومان نماذج منها في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد) والتي كانت تجرها حيوانات (٩٢). وعلاوة على ذلك، فإن الانتقال عبر غاليا من الشمال إلى الجنوب إنما يؤدي إلى مد طرق الكهرمان العظيمة، بل وبدرجة أكثر أهمية بكثير، طريق القصدير من بریتانیا وإنجلترا، والذي كان يمر عبر رومان ثم يهبط السين والسون والرون إلى مارسيليا. ويمكن وصف الجزء الأخير من هذا الطريق بأنه طريق الآرفيرن، الذين سيطروا على مساره على طول الرون.

كما كانت هناك ممرات بحرية. ولم يكن الكلتيون شعباً يتعامل مع البحار، وأسباب ذلك واضحة. لكنهم وجدوا في آرموريكا بناء مراكب وبحارة محليين، خاصة في البحر الداخلي لخليج مورييهان، بجزره وجزره الصغيرة. وكان ذلك البلد هو البلد الشهير للفينيّين الذين كانت مصائرهم البحرية (إذا ما صدقنا آلان جيليرم (٩٣)) قد شجع عليها أو أكدها ظهور سفينة فينيقية قبالة الساحل البريتوني في القرن الخامس (رحلة هيميلكون). ويبدو أن هذا قد دشن بداية أسطول الفينيّين الشهير؛ إن سفنهم الكبيرة والمتوسطة الحجم، المبنية في غاليا، قد قامت برحلات منتظمة بين سواحل المحيط الأطلسي والمانش، وإلى إنجلترا وإلى جزر سكيلي حيث كانت توجد إمدادات ثرية من القصدير. وبترتيب مع قرطاجنة، نقلت هذه السفن خام القصدير من كورنواي إلى ميناء فيجو الكبير، وطالما كانت قرطاجنة مهيمنة على إسبانيا، فقد واصلت الملاحة من مورييهان التوسع شمالاً وجنوباً، مثلما فعلت ملاحة بلاد الأوسيسم (فينيستير الحالية). لأن أسطول الفينيّين، مع أنه كان الأسطول الأكبر، لم يكن الأسطول الوحيد في الإقليم. وقد تعاون، مثلاً، مع السفن المتحركة بين فينيستير والایسكو. ثم إن سفن الپيتكون والسانتون، بين اللوار وچيرونند، سوف يصادرها قيصر لاستخدامها في حملته ضد آرموريكا (٩٤).

ويستخدم قيصر في تعليقاته مصطلحين لوصف مدن غاليا: إما أوييدوم، أي

الحصن، أو أوريس. ولكن هل كان يستخدم الكلمة الأخيرة (والتي تشير من الناحية النظرية إلى مدينة متطورة تماماً) كمجرد مرادف لتجنب التكرار؟ إنه يسمي أليزيا، مثلاً، أوريس، تارةً، وأوييدوم، تارة أخرى. والحق إن شبكات المدن - القرى في غالبا قبل الفتح كانت في واقع الأمر شبكات بورجات - قرى - قرى صغيرة. وكانت القرى الصغيرة مجرد مجموعات عشوائية من الأكواخ المبنية من اللبن والمسقوفة بالقش وعديمة النوافذ (كان الدخان يخرج عبر السقف). وربما كانت البورجات قد أدت بعض الوظائف الحضرية، لكنها مجرد وظائف أولية. أما المدن الوحيدة المهمة فهي الأوييدا. ولذا فقد جرت العادة على اعتبار كل مدينة قلعة وكل قلعة مدينة. وفيما عدا بعض المعازل المحمية بالماء - مثل بوج (آفاريكوم)، عاصمة البيتوريج - كانت الأوييدا تبنى على التلال عادة، وتلك حالة بيراكت وجيرجوفيا. . . وكانت تُحمى عموماً بخندق مائي عميق وسور سمكه نحو أربعة أمتار، الموروس جالليكوس الشهير (المبني من الحجارة والتراب والذي يعتمد على دعائم خشبية)، الذي يحيط بها ويترك في الداخل مساحة شاغرة واسعة (١٣٥ هكتاراً في بيراكت، ٩٧ في أليزيا (٩٥)). وفي أوقات الخطر، كانت هذه ملاذات للناس من المناطق المجاورة ولقطعانهم. لكن هذه المساحة كانت تشغلها أحياناً بيوت، وأحياناً مجمع ارستقراطي أو معبد أو ورش حرفيين - وهو تفصيل مهم، كما أشرنا بالفعل. والمشكلة هي ما إذا كان يجب أم لا يجب اعتبار هذه الحصون مدناً بالمعنى العادي للكلمة، أي مراكز سياسية ودينية واقتصادية - أيأ كانت أهميتها أو كفاءتها من هذه الناحية الأخيرة. والحال أن فينشيلاس كروتا، وهو واحد من أكثر المتخصصين دراية بالتاريخ الكلتي، إنما يشدد على أنها كانت مدناً حقيقية؛ لكن مؤرخين آخرين كثيرين ينفون ذلك.

على أنه يبدو لي أن الدليل على دورها الحضري تقدمه التحولات المرئية التي جرت في القرنين الثاني والأول قبل يسوع المسيح. فخلال هاتين المائتين من السنين ظهرت الأوييدا لأول مرة. وحتى ذلك الحين، لم يكن الكلتيون قد شيدوا حصوناً؛ فمن المرجح أن قوتهم التي لا تواجه تحدياً قد وفرت الأمن، نوعاً من السلام الكلتي. وسوف يصدق هذا الكلام نفسه على الأزمنة الأولى للسلام الروماني في غاليا. فهل يجب إذاً أن نعتبر نمو المدن التلية والحصون الملاذات مجرد نتيجة لانحدار في قوة القبائل الكلتية، مع تكاثر الصعوبات والمخاطر حول هذه القبائل؟ ويخطر ببالي احتلال "بروفانس" من جانب الرومان في عام ١٢١ قبل يسوع المسيح، أو الهجرات الدرامية

من جانب السيمبر والتيوتون في عامي ١٠٢ و ١٠١ قبل الميلاد. وهؤلاء الناس الذين لا نعرف بشكل مؤكد أرومتهم، وهي جرمانية على الأرجح، لكنهم يحيون على الحدود الشمالية للأرض الكلتية الأصلية، على البلطيق وبحر الشمال، جنوب جوتلاند، قد تأثروا بانتشار الحضارة الكلتية (بل إن قاداتهم كانت لهم أسماء كلتية). إلا أنهم، سواء أكانوا قد تكلتوا أم لا، قد جاءوا كغزاة، ينهبون المدينة والريف. ومع أن فينشيلاس كروتا يميل إلى التقليل من شأن التهديد الذي مثلوه (زاعماً أن المخاوف الرومانية قد بالغت في تصويره^(٩٦))، فمن المؤكد أن الحرب كانت متوطنة بين القبائل الغالية. ولذا فلا بد أن الأوييدا قد أدت وظيفة دفاعية، حيث وفرت ملاذاً للسكان المحليين. ثم إن هذه المدن التلية سرعان ما سوف تثبت أنها السبيل الوحيد لمقاومة الرومان، في داخل غاليا وخارجها. ولم يتم قهرها إلا عبر حصارات طويلة: نومانس في إسبانيا (١٣٤ - ١٣٣ قبل يسوع المسيح)، أليزيا في غاليا (٥٢ قبل يسوع المسيح). حسناً، ولكن هل هناك أي سبب لأن يؤدي الدور الدفاعي لهذه المدن، وهو دور كل مدنها في العصر الوسيط، تلك المدن المحاطة دائماً بالأسوار، إلى حرمانها من دور اقتصادي؟ إن فينشيلاس كروتا، على العكس من ذلك، إنما يربط ظهور الأوييدا بتغير اجتماعي أدى إليه انتهاء التوسع الكلتي، وهو تغير أصبح حاسماً بحلول عام ٢٢٥ قبل يسوع المسيح. فحتى ذلك الحين، لم تكن هناك مدن: إن "الفلاحين المسلحين"، وهم نوع من "ميليشيا ريفية"، قد عاشوا كرجال أحرار في قرى صغيرة تتألف من بيوت قليلة، مستعدين دائماً للسير خلف زعيم ما في مغامرة مرتزقة ما أو فتح جديد. وبمجرد انتهاء التوسع، تجمع السكان في نقاط معينة من الأرض، وهو تطور أدى إلى وضع الفقراء في وضع تابع بدرجة أكبر، وإلى هيراركية أكثر وضوحاً وإلى التقدم الاقتصادي العام الذي كانت الأوييدا نتيجته بشكل محدد^(٩٧). فكيف لا يمكننا أن نتفق مع كروتا هنا؟ إن الأمر لا يقتصر فقط على قيام مجتمع فلاحي نشيط بخلق الوظائف الحضرية التي يؤديها البورج، بل إن وجود طرق تجارية منتظمة عبر غاليا من شأنه هو نفسه أن يتطلب سلسلة من مواقع الانطلاق المنتظمة، ومن شأن تبادل السلع والخدمات أن يميل إلى التشجيع على الاستقرار البشري الدائم. ألم يصادف قيصر على أية حال، خلال حروبه الغالية، تجاراً من الرومان يحيون في سينابوم (أورليان) ونوفيدونوم (نيفير) وكابيللونوم (شالون - سور - سون)^(٩٨)؟ وعندما تبنى فيرسينجيتوريكس تاكتيك حرق المدن أمام الرومان الزاحفين الذين كان من عاداتهم الحصول على امدادات منها،



رفض البيتوريج السماح بتعريض عاصمتهم آفاريكوم لهذا المصير، بسبب "بهائها". وطبيعي أننا لا يجب أن نتصور أن هذا "البهاء" كان معمارياً؛ إذ لم يتم العثور على بنايات حجرية في مواقع المدن الغالية. فاليوت كانت تُبنى غالباً من الوتل والجص، وقد تساءل شيشيرون: "هل هناك أي شيء أكثر قبحاً من أوبيدا غاليا؟" (٩٩). يجب علينا بالأحرى أن نفكر من زاوية "بهاء" اقتصادي. وفي هذا السياق، دافع البيتوريج عن مدينتهم دفاعاً كلفهم غالياً. وعندما سقطت، وجد قيصر كميات ضخمة من الحبوب المخزونة هناك (١٠٠). ومن المؤكد أن مركز بيراكت الحرفي يقدم دليلاً أقوى بكثير في هذا الاتجاه نفسه. ولا شك أن هذا كان هو رأي البرجرينييه في مقال كُتب منذ وقت طويل، عن أعمال التنقيب هناك (١٠١). فهل يُعتبر آلان جيليرم محقاً إذاً عندما يفسر ترددات پول - ماري ديفال المتعلقة حول هذه المسألة على أنها دعم لرأيه هو - والذي يذهب إلى أن الغاليين لم يعرفوا لا المدن ولا الدول (١٠٢)؟ من المؤكد أن بير بونو محق أكثر عندما يقول إنه "في حين أن الغاليين لم يعرفوا بالفعل مدناً بالمعنى الأصلي للمدن، إلا أن جميع العناصر الصالحة للمدن كانت موجودة بالتأكيد بينهم... ومن هذه العناصر ولدت مدن أوروبية كثيرة في غرب ووسط أوروبا، وكان بعضها متواضعاً، بينما كان كثير منها كبيراً جداً" (١٠٣).

إن هذا العرض السريع جداً لاستقرار الكلتيين في فرنسا قد ترك جانباً عن عمد المشكلة الأساسية التي يطرحونها: كيف يمكننا أن نعرف الحقيقة عن حضارتهم ككل؟ وهل كانت هذه الحضارة تتميز بأي تماسك شامل، يتجاوز تبشر الكلتيين إلى قبائل مختلفة، بل وإلى دول مستقلة، كل واحدة منها تغار من الأخريات غير قاتلة؟ عند النظر في إمكانية مثل هذه الوحدة، سنجد أن مشكلة التنظيم الاجتماعي والعقيدة الدينية مشكلة محورية، ودور الدرويد يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون مجرد حكاية. وسوف أعود إلى هذا الموضوع في فصل آخر.

انتصار العدد

هل يمكننا استخلاص أية استنتاجات مهمة من هذا العرض العام السريع - القصير جداً والطويل جداً في الوقت نفسه بما لا يجعله صالحاً لإيجاز ما قبل التاريخ الفرنسي؟ فهو قصير جداً إذا ما تذكرنا مجموعة المعلومات التي نحوزها، والحق إنها جزئية ومبعثرة؛ لكنه طويل جداً بالنسبة للقاريء غير الملم بمثل هذه الأمور، بحيث يتعذر

عليه أن يتذكر تفاصيل الصورة التي حاولنا رسمها.

ربما تعين، بشكل خاص، استنتاج أن المنطقة التي تغطيها فرنسا كانت منذ أزمنة جد مبكرة مأهولة بشكل غير عادي. وجزئياً، يمكن تفسير عدد السكان الكبير بالموقع الجغرافي: فقد كانت هذه المنطقة مفرق طرق، ونقطة التقاء، وموقع تلاق. وقد وصف إيمانويل دو مارتون (١٠٤) أوروبا مرة بأنها قُمع من الشرق إلى الغرب، حيث تضيق أراضيها عندما يقترب المرء من المحيط الأطلسي. وهكذا كانت فرنسا هي عنق الزجاجة الذي يمر به كل شيء قبل أن يتوقف عند وصوله إلى ساحل المحيط. وهكذا أصبحت شبكة، أو مصيدة، كان على الجماعات السكانية أن تمتزج فيها الواحدة مع الأخرى. ويرى كولان رنفرو أن تركيز الناس على ساحل البحر، وهو تركيز ملحوظ بالفعل في الأزمنة الميزوليتية، إنما يفسر ظهور الميجاليتات في بريتانيا - الظاهرة الأكثر غرابة في ما قبل التاريخ الفرنسي. وهو يذهب إلى أنه بعد إدخال الزراعة على أيدي المهاجرين الجدد، لابد أن النمو السكاني السريع قد أدى إلى أن تصبح الأرض نادرة. ومن ثم فإن كل جماعة قد سعت إلى أن تتجمع حول معالمها المميزة، والتي كانت في آن واحد عبارة عن موقع دفن جماعي ورمزاً لملكية الأرض (١٠٥).

ويقال إن جماعات سكانية مختلفة قد تجمعت وتمازجت هنا: يقول الباحث الأنثروبولوجي ريمون ريكه (١٠٦) إن الزيجات المختلطة قد اتخذت أبعاداً ضخمة في فرنسا، بحيث إنه بحلول الأزمنة النيوليتية كان السكان "قد أصبحوا حديثين ببساطة تامة"، متخذين "مظهراً فرنسياً أكثر وضوحاً بالمعنى الحالي للمصطلح"، أي مظهراً دالاً على التنوعات العرقية المميزة للشعب الفرنسي اليوم - الجماعات الألبية والشمالية والمتوسطية واللورينية. وهذا الكلام يدعم ملاحظة فردينان لو الاستفزازية: "إذا كان فرنسي معاصر يريد أن يعرف الشكل الذي كان عليه أسلافه، فما عليه إلا أن ينظر حوله أو في المرأة" (١٠٧).

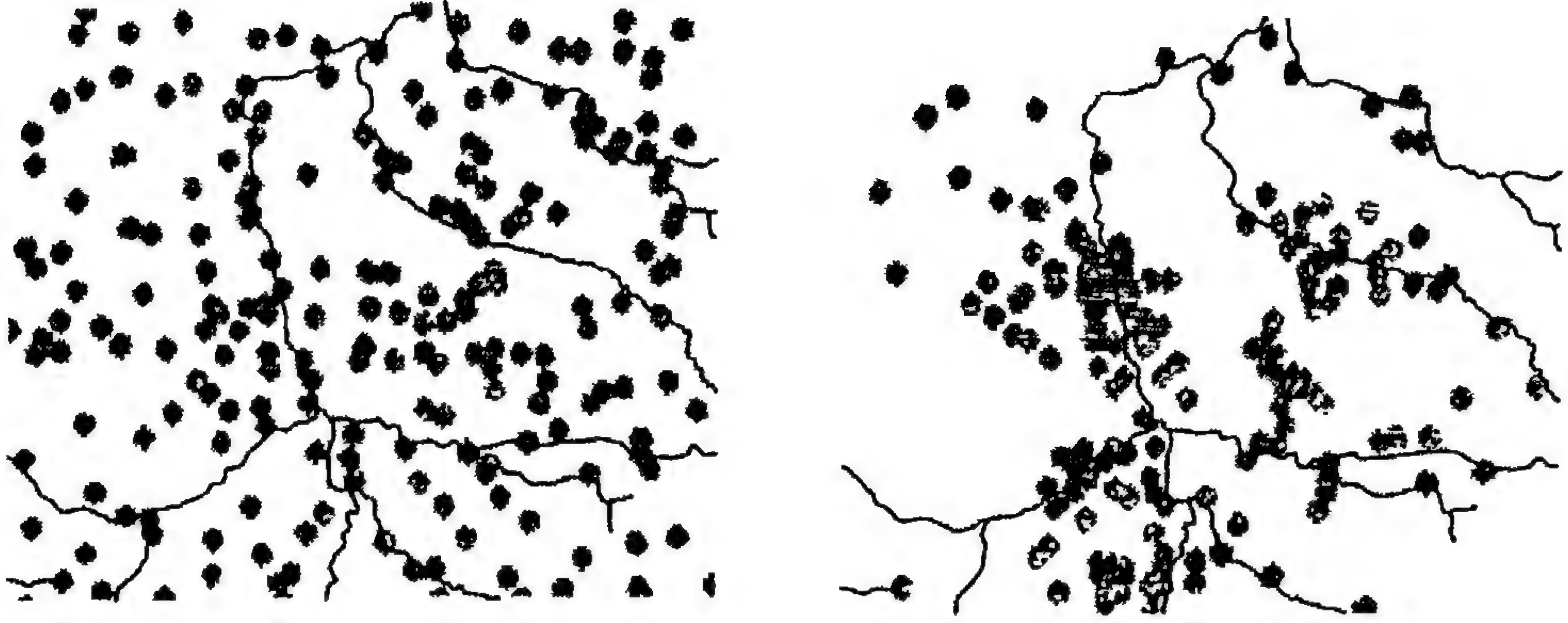
وطبيعي أن الشيء الأهم بالنسبة لاستنتاجاتنا هو مسألة الأعداد. ترى كم كان عدد أسلافنا؟ لا أهمية كبيرة لواقع أننا لا نستطيع تقديم رد حاسم على هذا السؤال. وعلى مدار عشرين سنة على الأقل، أخذ الباحثون في مجال ما قبل التاريخ يبدون اهتماماً متزايداً ببيئة السكان قبل التاريخيين وبحجمهم وبكثافتهم وبتوسعهم. وفي هذه المناقشة، نحتاج إلى بعض المعايير. فعندما تتزايد الكثافة السكانية (كما ذكرنا بذلك كولان رنفرو) (١٠٨) فمما لا شك فيه أن كل شيء آخر إنما يتأثر بذلك: الاستيطان،

كثافة الزراعة، الهيراركيات الاجتماعية، تقسيم الأرض. وبعد آلاف من السنين التي لا تُعد، والتي قضاها الإنسان في الترحل والصيد وجمع الثمار، أصبح "الإنسان الصياد" "الإنسان الزراع" (١٠٩). وقد استقرت الزراعة تدريجياً، بينما زاد السكان قبل التاريخيين زيادة متواصلة، ربما بمعدل ١٠ إلى ١ أو حتى ١٠٠ إلى ١. وأصبحت "فرنسا" تدريجياً ساحة تغطيتها القرى والقرى الصغيرة والأراضي المستزرعة من الغابات والأراضي الزراعية والناس، خاصة في الألف الثالثة، حتى نحو عام ١٨٠٠ قبل يسوع المسيح. ونحو هذه الذروة، إذا ما قبلنا حسابات لوي - رينيه نوجييه المفيدة (١١٠)، فربما كانت الأرض التي عرفت فيما بعد بغاليا قد ضمت زهاء خمسة ملايين من البشر، وفي الحد الأدنى مليونين ونصف مليون إنسان. ويمكن عقد مقارنات مفيدة بين الخرائط التي تبين المناطق الزراعية النوليتية والمناطق الزراعية الحالية. بل إن هناك أقاليم كانت المواقع السكانية فيها في زمن التوسع الكاسي أوفر عدداً مما هي الآن. وسوف يكون الباحثون في مجال ما قبل التاريخ محقين عندما يذكروننا بأن هذه المواقع ليست كلها بالضرورة معاصرة أحدها للآخر، وبأنه لا يمكن الجمع بينها ببساطة دون خطر الوقوع في الخطأ. لكن هناك علامات أخرى على فائض سكاني: القرى التي تحيط نفسها بأسوار وبخنادق مائية حامية، والتي تراكم مخزونات ضخمة من الأغذية، استعداداً للحرب. وفي مواقع الدفن الجماعي، وجد المنقبون أكواماً من الهياكل العظمية التي تخترقها رؤوس سهام (١١١).

ألا يمكننا أيضاً أن نعتبر الانحسار الطويل والعميق الذي حدث خلال الألف الثانية قبل الميلاد علامة على فائض سكاني سابق؟ هناك علامات واضحة على الشقاء خلال هذا الانحدار الذي لم يتم بعد التوصل بشكل مؤكد إلى أسبابه (١١٢). فهل يحتمل أن هذا العصر كان عصر أوبئة، كوباء الطاعون الأسود، الذي دشن إلى هذا الحد أو ذاك حرب الأعوام المائة المتواصلة في أوروبا؟ إن مثل هذه الأوبئة، والتي جرى تقديمها كتفسير بالنظر إلى غياب أي تفسير أفضل، ربما تكون قد ترتبت على تدهور في المناخ. إلا أن بالإمكان طرح افتراضات أخرى: المجاعة مثلاً، والتي ربما تكون قد نتجت على وجه التحديد من الزيادة السكانية المفرطة (كما كانت الحال قبل الطاعون الأسود بوقت قصير)؛ أو الحروب ذات النوع التدميري، والتي نتجت إما عن نقص في الأراضي الجديدة، أو عن غزو أجنبي وهو ما يبدو أنه كان الأمر الذي حدث في أواخر عصر الحديد الأول، في الألف الأولى قبل يسوع المسيح. وأياً كان السبب، فقد كان

الشكل ١٥

الاستيطان في حوض اللوان في الأزمنة النيوليتية واليوم



يكمن الفارق في أنه لم تكن هناك مستوطنات نيوليتية في الوديان الغربية للوان وللغاي، ولا شك أن السبب في ذلك هو أن هذه الوديان كانت سبخة، في حين أن الهضاب تترك اليوم إثارة للوديان. ويرى ل. ر. نوجيه أن كثافة الاستيطان في الأزمنة النيوليتية في هذا الإقليم (حيث كانت هناك مواقع أكثر مما هي الحال اليوم، وإن كانت أصغر بكثير) كانت تتراوح بين ١٠ و ٢٠ في الكيلومتر المربع الواحد. نقلاً عن:

L.-R. Nougier, *Le Peuplement préhistorique*.

هناك استئناف واضح للنمو خلال عصر الحديد الثاني، وقد استمر النمو حتى عشية الفتح الروماني.

ومن غير المحتمل أن غاليا قد ضمت بحلول ذلك الوقت العشرين مليوناً أو أكثر من السكان الذين تحدث عنهم هنري هوبير والكسندر مورو دو جونتيس وفردينان لو وألبير جرينيه وكاميل جوليان. لكن الاحتلال الكلتي، هنا كما في أماكن أخرى من أوروبا، لا مرء في أنه قد تزامن مع عصر زراعة كثيفة، في أرض مزدهرة وكثيفة السكان أيضاً (بل وتشكو من فائض سكاني بحسب الكتاب اللاتينيين الذين اعتبروا ذلك سبباً لنزوح أعداد كبيرة من الغاليين). ومن المحتمل أن السكان قد وصلوا إلى الملايين العشر التي قدرها يوليوس قيصر نفسه. ويقترح كارل يوليوس بيلوك حداً أقصى قوامه خمسة ملايين وسبعمائة ألف (١١٣)، أما جوستاف بلوخ فيقدر عدد السكان بخمس ملايين (١١٤)، بينما يقدره يوجين كافينياك بثمانى أو تسع ملايين (١١٥)، بعد قيامه بتحليل نقدي للإحصاء الذي أورده قيصر في الحرب الغالية، خاصة التقديرات المتعلقة بالتعزيزات التي حشدتها الغاليون خلال حصار أليزيا (٥٢ قبل يسوع المسيح).

فهل يجوز لي أن أقول إن هذه الأرقام الأخيرة تبدو لي منخفضة إلى حد ما - خاصة وأن الناربونيه، التي كانت بالفعل ولاية رومانية منذ أكثر من سبعين سنة، كانت مأهولة بالكثافة التي كانت إيطاليا نفسها مأهولة بها؟ إن كارل فردينان فيرنر، إذ يقبل رقم "أكثر من سبع ملايين" بالنسبة لغاليا وحدها، إنما يؤيد رقم "ما بين ٧ ملايين و١٢ مليوناً" في مجمل المجال الغالي، أي غاليا والولاية الرومانية (١١٦). وأياً كان الأمر، فإن بوسعنا على أية حال أن نحسب من هذه الأرقام أن "غاليا قبل غاليا" - من الألف الثالثة قبل الميلاد إلى العصر المسيحي أو نحو ذلك - كانت مسرح تحولات سكانية مختلفة طويلة الأجل، صاعدة أولاً، ثم هابطة، ثم صاعدة مرة أخرى. وما نحن بإزائه هنا هو دورات متعددة القرون كما أشرت بالفعل، تشبه، وإن كانت أطول زمنياً، الدورة الكلاسيكية، إن جازت هذه التسمية، والتي بدأت في القرن الحادي عشر الميلادي ووصلت إلى الذروة نحو عام ١٣٥٠، لتتحد بسرعة على مدار السنوات المائة التي استغرقتها حرب الأعوام المائة بالتحديد (من عام ١٣٥٠ إلى عام ١٤٥٠). ولم يشهد ما قبل التاريخ مثل هذه الدورات "السريعة" في المنطقة التي شغلها غاليا، لكن تناوب هذه الحركات الدورية يشبه في عمقه تناوب الحركات الدورية التي حدثت بمعدل مختلف في فرنسا في العصر الوسيط.

على أن مثل هذه الدورات، حتى عندما تكون جسد بطيئة ولا نهاية لها على ما يظهر، إنما تنطوي على تماسك معين: إذ لا يحدث تمزق مطلق للاستيطان، بل تبرز درجة ملحوظة من تبادلات السلع والثقافة والتكنولوجيا والناس - بعبارة أخرى يبرز شيء يصبح بالفعل أكثر شبهاً بالتاريخ، الذي لا يمكن إلا أن يكون نتاج أو أثر درجة معينة من الكثافة، مستوى معين للسكان.

وهكذا فقد كانت هناك "غاليا قبل غاليا"، بعبارة أخرى، كانت هناك استمرارية بين ما سبق غاليا وغاليا نفسها. وأنا أميل إلى أن أقبل (بالرغم من التحفظات المقدمة على حجة نوجيه الأساسية: عدد القرى والمستوطنات) رقم الملايين الخمس كرقم للسكان قبل التاريخيين نحو عام ١٨٠٠ قبل يسوع المسيح. ولو كان ذلك هو الواقع، فمعنى ذلك أن التكوين البيولوجي كان بالفعل قد استقر بحلول نهاية العصر النيوليتي، وأن المزيج العرقي كان قد تحقق بالفعل وأصبح محسوماً. والحال أن الغزوات التالية - خاصة غزوات الكلتيين - بالرغم من عنفها وجبروتها، وبالرغم من قوتها من حيث آثارها الثقافية، سوف يتم استيعابها في كتلة الجماعات السكانية الموجودة من قبل، والتي سوف تُقهر وأحياناً تُطرد من أرضها، لكنها تتزايد عدداً من جديد وتستأنف الازدهار. وطبيعي أن هناك أماناً في الأعداد. أُنْ يصدق الأمر نفسه في وجه الفتح الروماني وغزوات البرابرة في القرن الخامس الميلادي، بل وحيال المهاجرين الكثيرين الذين سببوا شيئاً من القلق في فرنسا الآن؟ إن ما كانت له الأهمية في نهاية المطاف هو الكتلة، الأغلبية المستقرة. فعلى المدى البعيد، لا مفر من استيعاب الجميع فيها.

لكننا لسنا بحاجة الآن إلى التطرق إلى هذه المشكلات. فمهمتنا الآن إنما تتمثل في تحديد مكانة التراث الحي الواسع لزمن ما قبل التاريخ. ففرنسا والفرنسيون هم أصحاب هذا التراث ومواصلوه، حتى ولو كانوا غير واعين بذلك. وما يزال علم الدم التاريخي في طفولته (١١٧). ولكن هل هناك ما يدعو إلى العجب إذا ما كانت اكتشافاته قد أشارت بالفعل إلى أن الدماء التي تجري في عروق الشعب الفرنسي اليوم هي بشكل ملحوظ عين الدماء التي جرت في عروقه في أزمنة ما قبل التاريخ؟ لا بد لهذا من أن يجعلنا متبهمين إلى تاريخ يمد جذوره في أعماق الزمن.

من غاليا المستقلة إلى غاليا الكارولينجية

بعد غاليا قبل التاريخية، تظهر أربع صور تتعاقب واحدة بعد الأخرى " أولاً ما يسمى بغاليا الكلتيين "المستقلة" (شبه التاريخية)؛ ثم تليها بحسب الترتيب غاليا الرومانية والميروفينجية والكارولينجية. وهذه التجارب الطويلة تبدو، الواحدة بعد الأخرى، أنها قد أخذت مسارات متشابهة: فكل واحدة قد ازدهرت بدورها ثم انحدرت بشكل منتظم، وكأن كل واحدة منها كان محكوماً عليها منذ البداية بالإخفاق وبالتلاشي، بصرف النظر عن الظروف الخاصة لأفولها.

هل كان هناك نسق معين فاعل في هذا، سيرورة متكررة أساسية معينة؟ ألا يُحتمل أن هذه التغيرات، الملحوظة على المدى البعيد، إنما ترتبط بالجزر وبالمد البطيئين لتقلبات دورية تستغرق عدة قرون؟ من المؤسف أن تفسيرات مثل هذه الاتجاهات ما تزال بعيدة جداً عن متناولنا نظراً إلى غياب البراهين التاريخية. بل هل نحن على ثقة من أن هذه الاتجاهات كانت موجودة أصلاً؟ إن مؤرخاً أو مؤرخين اثنين فقط هما اللذان اهتمتا بهذه المسائل.

ولا يتجاوز هدفنا إدخال قدر من اللغة الاقتصادية إلى هذه المشكلات البعيدة، وإظهار أنه في حين أن العوامل الاقتصادية لم تكن بحال من الأحوال العوامل الوحيدة الفاعلة في تلك القرون البعيدة، إلا أن من المحتمل مع ذلك أن تكون قد لعبت دوراً. ولكن من الذي لا يدرك ذلك سلفاً؟

من هذه الزاوية، يكمن الشيء المهم الذي يجب رصده في أنه خلال هذه التجارب الطويلة الأربع، والتي تغطي فيما بينها نحو ألف سنة تقريباً، وبصرف النظر عن الارتفاعات والانخفاضات الاقتصادية، لم تحدث سيرورة ثورية من شأنها تحويل الهياكل، توازنات الحياة العميقة: أي لم يحدث شيء مشابه لإيجاد الزراعة، قبل ذلك بعدة آلاف من السنين، أو لثورة الطاقة في العصر الوسيط، والتي سوف نناقشها حالاً. وكما لاحظ روبير فوسيه محقّقاً، فإنه "لم يحدث تحول مفاجيء بين الأزمنة الرومانية والقرن التاسع". بل إن المرء قد يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، مع ميشيل روبلان الذي يرى أن "التطور الثابت قد استبعد أي انقلاب مفاجيء أو بعيد الأثر بين القرن الأول الميلادي والقرن الحادي عشر" (١١٨).

تفسير فتح الرومان لغاليا، إذا كان ذلك ممكناً

أدى الفتح الروماني الخاطف والدموي إلى سحق غاليا المستقلة. والحال أن الأحداث - حصارات جيرجوفيا وآليزيا -، والشخصيات - آريوفيستوس، يوليوس قيصر، فيرسينجيتوركس -، معروفة جيداً. وأنا لا أنوي إعادة قصة محفورة في ذاكرة كل تلميذ فرنسي. ليس لأنني أعارض رواية القصص، فالتاريخ هو أيضاً قصة وشكله ليس أقل إثارة. وآمل أن تتاح لي الفرصة في مجلدات تالية من هذا الكتاب لكي أحكي حكاية التاريخ الفرنسي عبر العصور. لكن ما أنا منخرط فيه الآن هو "تجربة" مختلفة. فهذا الفصل يهدف، كما قلت، إلى إلقاء قدر من الضوء على المراحل الرئيسية في التاريخ الفرنسي، مولياً انتباهاً خاصاً للشواهد المتصلة بالسكان، على أمل تحديد إيقاعات تاريخ أساسي. ولذا فإنني مضطر الآن إلى الاختصار على قطاع واحد من المشهد التاريخي. وفي حين أنني سوف أنظر إلى غاليا المستقلة، فإنني لن أحاول حتى رسم صورة عامة لشعبها ومؤسساتها وأحداثها ومجتمعاتها واقتصادها أو حضارتها السرية المعجزة من أكثر من ناحية. وسوف يتعارض هذا مع منطق محاولة تهدف إلى التفسير. لكن تناولات وتفسيرات أخرى سوف تجيء بعد ذلك. فسوف أعود في نهاية المطاف إلى النظر في ضوء جديد إلى المشهد الذي سوف نمر به الآن مروراً سريعاً. والحال أن القاريء الذي يتحمل السير معي إلى هذه النهاية، سوف يرى أنه إنما يعود إلى مجتمع غاليا الكلتيه القاسي والفظ، وإلى الدرويد الذين يقطعون أغصان نبات الهدال الطفيلي بمناجل ذهبية، وإلى المدن الغالية - الرومانية الأولى بتوليقاتها من الثقافات المختلفة.

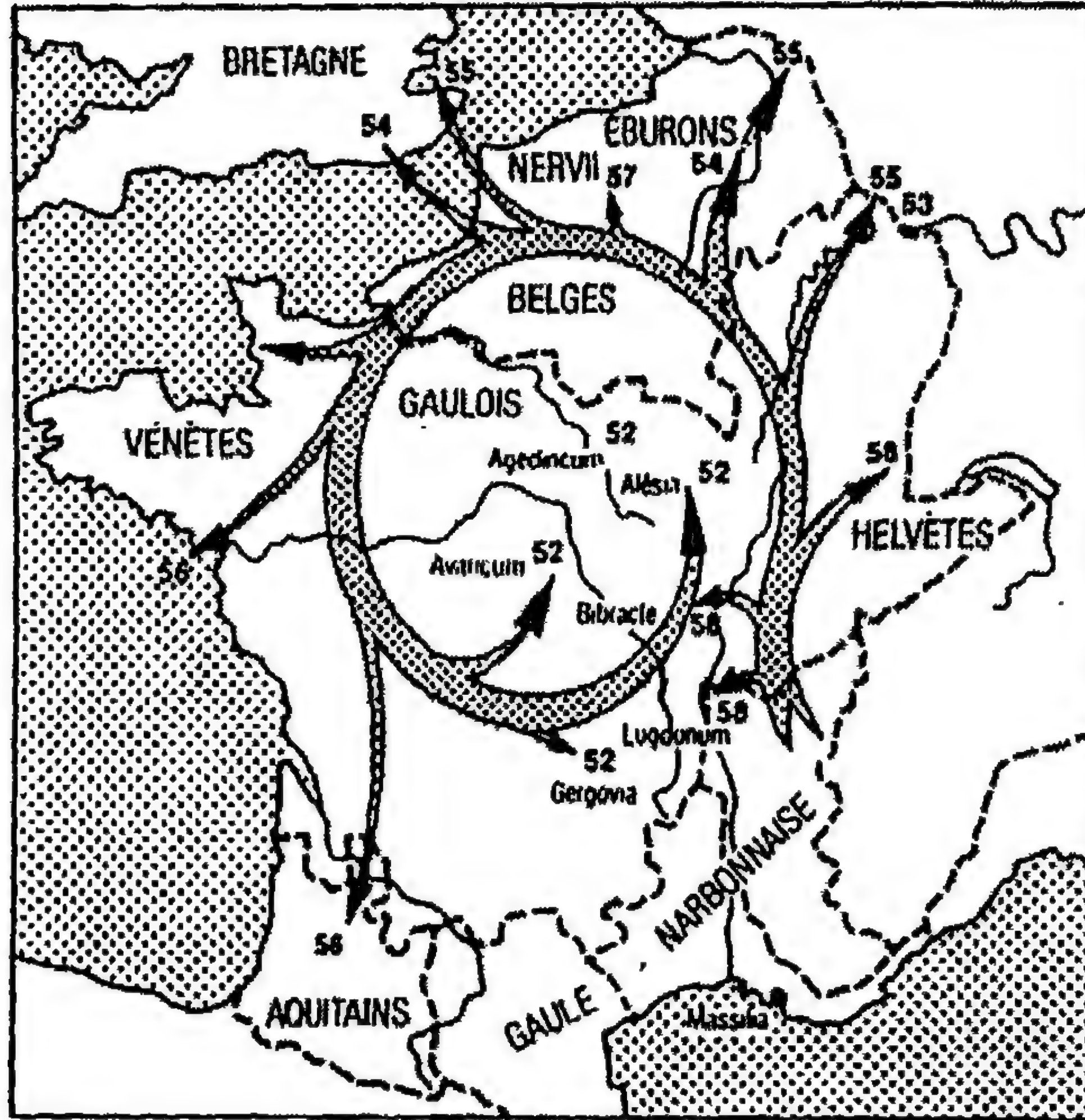
والسؤال الذي أود طرحه الآن هو كيف تدرج سيرورة الفتح العنيفة في المنظور التاريخي لغاليا المستقلة؟ مما يؤسف له أن التفسيرات التي قدمها المؤرخون ليست مرضية أو غير متحيزة تماماً، حيث تفسدها المشاعر المتحيزة: بشكل لا مفر منه، ربما، بالنظر إلى الموضوع.

والمفاجأة الأولى هي أن غاليا قد فُتحت في غضون أعوام قليلة (بين عامي ٥٨ و٥٢ قبل. يسوع المسيح) بينما احتاجت روما إلى قرنين من الزمان حتى تتمكن من إخضاع إسبانيا. وكان سترابون (الجغرافي الإغريقي الذي ولد قرب زمن فتح غاليا) واحداً من أوائل من أشاروا إلى هذا الفارق (١١٩).

ومع ذلك فإن غاليا "ذات الشعر المسترسل" كانت لديها إمكانيات المقاومة: عدد كبير من السكان، ربما عشر ملايين نسمة أو أكثر؛ كثافة أعلى للاستيطان مما في

الشكل ١٦

فتح قيصر لغاليا (٤٨-٥٢ قبل يسوع المسيح)



يثبت التقدم السريع للجيش الروماني عبر مثل هذه الساحة الواسعة أن غاليا لابد أنها كانت تتمتع بشبكة جد متطورة من الطرق وبموارد زراعية كافية لإطعام الجنود والحياد.

الأقاليم المتوسطية الخاضعة للحكم الروماني؛ درجة من الحيوية، بل درجة من الازدهار، مع أن هذه الكلمة قد تبدو غير مناسبة - إذ يرى عدد من المؤرخين أن غاليا كانت تمر آنذاك بالفعل بأزمة اقتصادية حادة تماماً، قبل وصول قيصر مباشرة. لكن هذه الأزمة، إن كانت هناك أزمة، لم تؤد إلى محو شواهد التماسك الاقتصادي والعافية الاقتصادية. ومثل هذه الشواهد لا بد لها من أن تحذرنا من أي تفسير بسيط أو وحيد البعد للانهييار.

يجب أن نحذر مثلاً من إرجاع كل شيء إلى الفيالق الرومانية الأكثر تفوقاً أو إلى العبقرية العسكرية التي تميز بها قيصر (الذي تمكن على الفور من عزل غاليا بصدد الهيلفيت ثم الجرمان، والهبوط إلى "بريطانيا" (إنجلترا) وسحق أسطول الفينيت. وطبعي أننا لا يجب أن نقلل من شأن دور قيصر وبعد نظره وتحركاته السريعة. ولكن هل يكفي القول بأن الغاليين، الذين كانوا على أية حال مقاتلين بواسل، مسلحين بسيف ممتازة ومدعومين بسلاح فرسان قوي، قد استسلموا ببساطة لدى أول انتكاسة؟ إن ذلك سيعني أنهم قد أبدوا الخصال والمثالب التي ينسبها الناس أحياناً إلى فرنسيي اليوم.

إن هزيمة الغاليين لا تتطلب تفسيراً واحداً بل عدة تفسيرات. ويجب أن نتذكر أن فتح غاليا لم يكن الفصل الأول بل الفصل الثالث والأخير في مسلسل متتابع. فبعد رعب الحرب البونية الثانية الخيالي، وقبل هزيمة قرطاجنة، كان الرومان قد خاضوا ثلاث حملات ضارية (في أعوام ١٩٧ و ١٩٤ و ١٩١ قبل يسوع المسيح) في محاولة لإخضاع غاليا المواجهة للألب، والتي كانت قد قاومتهم مقاومة شرسة - كان محاربوها قد وصلوا إلى روما نفسها وحاربوا عرايا ضد الرومان، من باب السخرية من دروعهم الثقيلة. ثم في عام ١٢١ قبل يسوع المسيح، كان الرومان قد احتلوا "الولاية"، الناربونية، وهي المنطقة الأكثر ازدهاراً بالسكان في غاليا عبر الألبية، أي بين الألب وأكيتين. وبهذا الانتصار الحاسم، لم تفتح روما فقط الطريق إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، بل وجهت أيضاً ضربة قاتلة إلى الهيمنة الأفرنية، واحتلت أرض الأللوبروج، من الرون إلى بحيرة چينيف. ووفرت الولاية قاعدة أمامية للزحف على الشمال.

وهكذا فإن فتح قيصر لغاليا قد سبقته مقدمات لها وزنها، أدت، كما يقول آلان جيليرم، إلى تفكيك "المجال الكلتي" (١٢٠). وصحيح أن آخر هذه الأحداث قد وقع قبل ستين سنة من حملات قيصر. لكن هذا لا يلغي وجود صلة بين هذه الأحداث

والانهيار السريع لغاليا المستقلة. وقد تتمثل إحدى المقارنات في الأسلوب الذي احتلت به فرنسا الاستعمارية الجزائر أولاً (١٨٣٠) ثم تونس (١٨٨١ - ١٨٨٣) قبل أن تشق طريقها بعد ذلك بوقت قصير إلى مراكش (١٩١١ - ١٩١٢).

أليس من الوارد - بشكل واضح تماماً - أن غاليا قد جرت الهزيمة على نفسها من جراء انقساماتها، إفتقارها إلى الوحدة السياسية، "فوضاها"، بحسب تعبير ميشليه (١٢١)؟ ولو كانت غاليا "أمة" أو حتى وحدة سياسية متماسكة، لأمكن الحديث بشكل مبرر تماماً عن خيانة: من جانب الأيدوان والريموا وكثيرين غيرهم من "المتعاونين مع الغزاة" - كل أولئك الفرسان الغاليين مثلاً الذين ساروا على متون الجياد جنباً إلى جنب قيصر أو اللينجون، وهم قوم أقوياء في إقليم لانجريه أقرضوا الغازي نقوداً أكثر من مرة. الواقع أن غاليا كانت موزاييك من "القبائل" المتحاربة أبداً فيما بينها، تبلغ نحو خمسين إلى ثمانين سفيئات، كما سماها الرومان؛ وكان كل قسم من هذه الأقسام منقسماً هو نفسه. باختصار، كانت غاليا مقسمة بشكل ميئوس منه؛ لقد كانت بلداً "كانت التنافسات فيه أقوى من أخوة الجنس أو وحدة اللغة والعقيدة والثقافة" (١٢٢). بل إن الدرويد كانوا عاجزين عن توحيد الغاليين ضد الغازي، بالرغم من كل ما بذلوه من جهود في هذا الاتجاه. وهكذا كان البلد فريسة سهلة. وكان بوسع قيصر أن يستخدم جماعة ضد أخرى، اعتماداً على مبدأ فرق تسد. ومن الممكن دائماً تصور أن غاليا متحدة بما يكفي لأن تشكل دولة قوية ربما كان بوسعها أن تصمد بشكل أفضل في وجه الرومان.

حسناً، هذه وجهة نظر. إلا أن بوسع المرء طرح وجهة النظر المقابلة دون أن يسقط في مفارقة. فإذا ما عدنا إلى التباين الصارخ بين فتح غاليا السريع وإخضاع إسبانيا الذي استغرق زمناً طويلاً، سوف نلاحظ أن الجغرافيا ربما تكون قد لعبت دوراً. فغاليا، التي تقع شمال البرانس، كانت أرضاً مكشوفة، غنية، مأهولة بعدد كبير نسبياً من السكان، وكانت بها شبكة من الطرق الصالحة للاستخدام: أي أنها لم تطرح أية مشكلات فيما يتعلق بتوفير العلف للجياد أو المؤن للجنود. أما إسبانيا، جنوب البرانس، فقد كانت شرسة العداء خلف متاريسها الطبيعية، وكانت جرداء، لا توفر غير القليل من الموارد (١٢٣). ويرصد سترابون فرقاً آخر، من المرجح أنه كان حاسماً: ففي حين أن المقاومة الإسبانية كانت مبعثرة بشكل واسع، وكانت مكرسة لما نسميه اليوم بحرب العصابات، سنجد أن المقاومة في غاليا سرعان ما أصبحت متمركزة، الأمر الذي لم

يجعلها أقل حيوية، لكنه جعلها أكثر هشاشة، إذ أصبحت معرضة للانهييار في حملة واحدة. باختصار، يمكن القول إن تماسك غاليا نفسه، والذي ساعد على تعبئة جيش مساعد جرار، هو الذي ساعد على سحقها في مواجهة رئيسية واحدة، حصار أليزيا في عام ٥٢ قبل يسوع المسيح. وكان ممكناً، من جهة أخرى، لحرب عصابات أن تلاحق العدو وتعطل زحفه بشكل خطير. والحال أن ملاحظات سترابون إنما تدعمها تجربة فتوحات "كولونيالية" أخرى في التاريخ. خذوا الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي مثلاً: لقد اجتاحت بسرعة بلاد الشام (عام ٦٣٤) ومصر (عام ٦٣٦)، بل وفارس (عام ٦٤١) التي كانت قبل مجرد سنوات قليلة قد تصدت بمفردها لروما جوستينيان وألحقت بها ضرراً فادحاً. ومن ناحية أخرى، سوف يحتاج المسلمون إلى خمسين سنة (٦٥٠ - ٧٠٠) حتى يفرضوا سيطرتهم، وبشكل جزئي فقط، على المغرب الأقل تنظيماً. لكن إسبانيا القوط الغربيين، وهي وحدة متماسكة، قد سقطت في أيدي المسلمين بضربة واحدة في عام ٧١١.

وأياً كان الأمر، فليس من السهل تفسير نجاح قيصر. وربما يرجع ذلك إلى انقسام الرأي فيما بين المؤرخين. والحال أن كتاباً معينين، خاصة في الماضي، قد أشادوا بانتصار روما على أساس أنه قد دفع فرنسا إلى تبني ثقافة لاتينية، هي أحد المكونات الرئيسية لحضارتنا الحالية. وهذا هو الرأي الذي تبناه جوستاف بلوخ في المجلد القيم الذي أسهم به في عام ١٩١١ في كتاب *Histoire de France* (تاريخ فرنسا) الذي حرره أرنست لافيس (١٢٤). بينما رأى آخرون، مثل فردينان لو (١٢٥)، أن الفتح الروماني هو الكارثة الكبرى في تاريخنا القومي، حيث خنق التطور الخاص، وقضى على ما كان يمكن أن تكونه "فرنسا". أمّا كاميل جوليان، والذي تعتبر نزعته القومية أكثر وضوحاً بكثير، فهو يذهب إلى حد تصور أن غاليا، من غير روما، ربما كان بالإمكان استيعابها في الحضارة الإغريقية لمارسيليا (والتي تأسست في عام ٦٠٠ قبل يسوع المسيح) (١٢٦) - وهي أطروحة تصعب البرهنة عليها. والحق إن غاليا قد استخدمت بالفعل الأبجدية-اليونانية وإن هذه الأبجدية لم تكن قاصرة على نخبة مثقفة. ويذهب سترابون إلى أن "الغالين كانوا يحررون عقودهم التجارية باليونانية" (١٢٧).

والحقيقة أن المسألة مفتوحة لأي افتراض يتعارض مع الحقائق، ذلك الهوس أو تلك الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ بشكل يخالف ما جرى به بالفعل. فالآن جيليرم مثلاً واثق من أن غاليا لو كانت قد تركت لحالها لاستوعبت وحيدت جرمان

أريوفيستوس (١٢٨)، في حين أن غاليا الرومانية لم تكن قوية بما يكفي في القرون التالية لكي تصمد في وجه غزوات البرابرة التي أسقطتها في نهاية الأمر. ومادمننا في هذا المقام، فلماذا لا نخترع سيناريو آخر: ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن قيصر خسر حصار أليزيا ثم تخلت روما عن محاولة فتح غاليا، مثلما تخلت بعد فشل فاروس (في عام ٩ بعد يسوع المسيح) عن محاولة إخضاع جرمانيا التي كانت أقل تقدماً من غاليا مرة وكانت لهذا السبب عينه (بين أسباب أخرى) أصعب على الاستحواذ عليها؟ ولكن لماذا لا نتخيل العكس أيضاً؟ لو كانت روما قد تمكنت من مد حدودها على طول الإلب، بدلاً من الراين، فربما تغيرت كل مصائر أوروبا.

تبقى حقيقة أن غاليا، بمجرد فتحها، سرعان ما خضعت للمنتصر، فاتحة أبوابها لحضارة إيطاليا والبحر المتوسط؛ وسواء كان هذا قد تم عن طيب خاطر، عن دراية تامة بالنتائج أم لا، إلا أنه سوف يغير مصائر البلد تغييراً عميقاً. والحق إن النبلاء الغالين قد بدأوا التعاون في مرحلة مبكرة وأسهموا في استيعاب روما الثقافي لغاليا. ثم إن الحكم الروماني، مع أنه كان قاسياً غداة الفتح مباشرة، قد أصبح أكثر تسامحاً في ظل دينك "الامبراطورين العظيمين تييريوس (١٤ - ٣٧ بعد الميلاد) وكلاوديوس (٤١ - ٥٤ بعد الميلاد) اللذين كانا المؤسسين الحقيقيين لاستقرار ولبقاء الامبراطورية الرومانية بالرغم من إفراط الكتابة التاريخية القديمة في الافتراء عليهما". بل إن المؤرخ سيجفريد جان دو لاييه يجرؤ على القول بأنهما قد أحلا محل "الاستعمار الجمهوري نوعاً من الكومنولث" (١٢٩). وربما جاز لنا أن نشير بالمناسبة إلى أن كلاوديوس كان مسئولاً عن بناء معظم شبكة الطرق في غاليا الشمالية، بما يشكل هدية رائعة (١٣٠). وفي عام ٤٨ بعد الميلاد، متجاهلاً اعتراضات الارستقراطية السياسية في روما، فتح مجلس الشيوخ أمام "شيوخ" غاليين - رومان.

لكننا يجب أن نحذر من الأحكام القاطعة. ومن المؤكد أن كلاوديوس، الذي كان يلقب في روما، من باب السخرية منه، بـ "الغالي" (لأنه كان قد وُلد في ليون)، كان يريد خلق غاليا مسالمة متصالحة مع الامبراطورية، لكن هذا لم يمنعه من اضطهاد الدرويد الذين اضطروا إلى الهرب إلى "بريطانيا" (إنجلترا) بحثاً عن ملاذ. وهكذا، فإن ما نحن بإزائه ليس تسامحاً بقدر ما أنه محاولة ذكية تهدف إلى الاستيعاب، وهو أمر كان أوجوستوس قد شرع به بالفعل. وقد زار خليفة قيصر غاليا أربع زيارات، أطولها (من عام ١٦ إلى عام ١٥ قبل الميلاد) إلى ليون، وهي مدينة تأسست في عام

٤٣ قبل يسوع المسيح؛ وآخرها في عام ١٠ قبل الميلاد، من أجل القضاء على تمرد على حدود الراين. كما أنه كان على أية حال قد قسّم غاليا إلى أربع ولايات (ناربونية، أكتين، ليونية، بلجيكا) وواصل، مثلما فعل قيصر قبله، تجنيد جنود من تلك الولايات. كما أنشأ مدناً كثيرة ولكي يُجمّلها لم يتردد في إنفاق جزء من كنوز أنطونيو وكليوباترا إلى جانب جزء من ثروته الشخصية هو؛ إننا ندين له بالميزون كاريه في نيم وبجسر الهون دي جار وبالمسارح الرومانية في أورانج وآرل وفين وليون. . . . "لقد كانت غاليا في ظل أوجوستوس ساحة ضخمة" للأشغال العمومية (١٣١). والحال أن المدن الجديدة، التي سوف تستقر فيها الارستقراطية الغالية تدريجياً، كانت مراكز فعالة للرومنة كما كانت حافزاً للتقدم الاقتصادي. ونحن نميل اليوم إلى قول إنه لو "سار البناء على ما يرام، فسوف يسير كل شيء آخر على ما يرام"؛ وربما كان هذا صحيحاً أكثر من مرة خلال تاريخنا.

ومن بين العوامل الأخرى التي كانت ملائمة لاستيعاب الثقافي أن غاليا كانت تحدها من الجنوب إسبانيا والناربونية، وهي ولاية ترومنت قبل "أجزاء غاليا الثلاثة" بوقت طويل.

ثم إن جيشاً قوياً كان يحميها من الغارات عبر الراين: فالحدود كان يحرسها مائة ألف جندي. وسوف يزيد فيسباسيان ودوميسيان من تعزيز هذه الدفاعات عن طريق بناء الليمات على طول الضفة اليمنى للراين، حيث كانت هذه الليمات حدوداً حصينة تمتد من مستوى كوبلنتز وتهبط بمحاذاة النيكار لتصل إلى الدانوب. وخلف الليمات، حتى الراين، كانت تتراعى الحقول "التي تخضع لضريبة العُشر" والتي استقر فيها المستوطنون.

وأخيراً، في عام ٤٣ بعد الميلاد، وتحت دفع من كلاوديوس، فتحت الفيالق البريطانية أي إنجلترا، التي تعين تنظيمها بعد ذلك؛ ومن ثم، أصبحت غاليا آمنة من التعرض لهجوم من الشمال. وأصبحت بولونيا مدينة بينما صار بسوس مينائها، المزود بفنار ضخمة، أن يستقبل لسنوات طويلة أسطولاً رومانياً مكلفاً بالقيام بدوريات في المانش وبحر الشمال. ومن المؤكد أن الأمن والسلام الروماني كانا مؤثرين قويين على السكان الذين لم يسبق لهم، لأعوام كثيرة، أن عرفوا السلم والأمن. وأعطت روما غاليا والغالين أسماء لاتينية (جاليا، جاللي)؛ وتلاشت مصطلحات "الكلت" و"الكلتيين". كما منحت روما غاليا حضارةً، بعد استيلاء استعماري كان ناجحاً من هذه الزاوية. ثم

إنه مع حدود الراين، التي رسمها يوليوس قيصر، أعطت روما غاليا حدوداً فصلتها عن أوروبا الوسطى الكلتية (المنسية) والجرمانية.

على أن غاليا الآمنة، المحاطة بالحدود المحمية، المزودة بالطرق وبالمدن والمدارس وبجيش كانت صفوفه مفتوحة لها، قد احتاجت إلى قدر من الزمن حتى تقبل قدرها الجديد عن طيب خاطر. فبالرغم من تيبيريوس، وبالرغم من كلاوديوس، وبالرغم من مزايا حضارة أرقى، كان القرن الأول للحكم الروماني قرن متاعب، يتميز بعدم الاستقرار وبالتمردات، التي كان بعضها مثيراً وكانت كلها دامية. والحال أن عدداً من المؤرخين الفرنسيين قد تورطوا في نوع من النزعة القومية الاسترجاعية بسبب هذه المقاومة، مبالغين جداً في أهميتها (١٣٢). وأنا أفضل الحكم الأكثر توازناً والذي طرحه جوستاف بلوخ (١٩١١) ومعظم المؤرخين الآخرين. فهذه التمردات كانت في واقع الأمر تعبيراً عن المذلة التي استشعرها بهذه الدرجة أو تلك من الوعي شعب مغلوب؛ كانت تعبيراً عن الاستياءات المختلفة لمختلف الأقاليم؛ عن سخط الفلاحين الرازحين تحت عبء الضرائب والمنزعجين من تدابير قياس مساحات الأراضي؛ وعن انزعاج الاستقراطيين الذين كسبت الحضارة اللاتينية تأييدهم لكنهم غضبوا من الممارسات السيئة داخل الإدارة الامبراطورية؛ وعن سخط الحرفيين الذين كانوا يضطرون أحياناً إلى الهرب عبر الراين فراراً من ملاحقات سلطات جمع الضرائب.

وقد وصل التمرد إلى الذروة خلال الأزمة التي هزت الامبراطورية في أواخر عهد نيرون وبعد موته في عام ٦٨ للميلاد. فقد اندلعت سلسلة من التمردات في عدة مناطق من غاليا، حرض عليها أحياناً النبلاء الذين كانوا من قبل خدماً مخلصين لروما. وبمجرد قمع تمرد في أحد الأماكن، كان تمرد آخر يظهر في مكان آخر. وأصبحت الأمور أكثر سوءاً من جراء تمرد عدة فيالق، استفادت من ظروف الانقسامات السياسية في روما. والحال أن جيش الراين، الذي كان يضم كثيرين من القوات المساعدة البلجيكية والجرمانية، قد زحف ضد غاليا في عام ٦٩، وقد أفلت البلد بأعجوبة من النهب الشامل. لكن كايوس يوليوس سيفيليس، وهو باتافي، والحق إنه جرمانى، استغل الموقف، وتزعم الفيالق المُسَرَّحة وأتاح لمدن غاليا فرصة استعادة حريتها، وتأسيس امبراطورية غالية لهذا الهدف. بل إن مثل هذه الامبراطورية قد أعلنت لمدة قصيرة، في حماسة غاليا لم يكن فيها أي جيش روماني.

وفي تلك اللحظة. تدخل عاملان لتهدئة الأمور. أولاً، كان هناك ارتياب تستشعره

غاليا تجاه عدوها الجرمانى القديم . ولم يكن مثل هذا الارتباب دون سبب : فمن المرجح أن سيفيليس كان يعد لحروبه الغالية الخاصة - ألم يكن يدمر بصورة منهجية الحصون على طول الليمات؟ ثانياً، جاءت أنباء من روما عن انتهاء الحرب الأهلية، وانتصار فيسباسيان، "الامبراطور العاقل"، والعودة إلى حكومة قوية. وقد صدرت أوامر بإرسال جميع القوات من البلدان المجاورة - إيطاليا، إسبانيا، بريطانيا، إلى غاليا. ووسط الاضطراب العام، دعا الريمي جميع مدن غاليا إلى إرسال مندوبين إلى دوروكورتوروم (رانس). وأدت مداولات هذا الاجتماع إلى انتصار حزب السلام، وجرى إرسال بيان إلى التريفير يدعوهم، باسم غاليا كلها، إلى وقف الصراع. وقد رفض التريفير أن يفعلوا ذلك، إلا أن جيشاً رومانياً قوياً تحت قيادة بيتيليوس كيرياليس، سرعان ما تغلب عليهم وشتت شملهم. وكان ما يزال يتعين التصدي لسيفيليس. لكن هذا كان قد أصبح شأناً بين الرومان والجرمان، وبعد أن توالى الهزائم على سيفيليس اختار التقهقر عبر الراين (١٣٣).

وقد مثلت هذه الأحداث الدامية آخر مقاومة جادة للفتح في غاليا. وهكذا فمن عام ٥٢ قبل الميلاد إلى عام ٧٠ بعد الميلاد، نجح قرن من الحكم الرومانى في نهاية الأمر في جعل الرومنة مقبولة تقريباً.

وكان الزمن فاعلاً بالفعل: وسوف يكون الزمن فاعلاً أطول من ذلك بكثير. ويجب أن لا ننسى أن خمسمائة سنة قد مرت بين حصار أليزيا (٥٢ قبل يسوع المسيح) وانهيار الامبراطورية الغربية، من الناحية النظرية على الأقل، في عام ٤٧٦. فما الذى كان يمكن أن يحدث في الجزائر لو كانت فرنسا قد احتلت اىالة الجزائر الوليدة للتو في عام ١٥١٦ وظلت هناك حتى عام ١٩٦٢؟ كان التاريخ في تلك الأزمنة يتحرك بشكل أبطأ من اليوم. وخلافاً لنهر يتدفق بسرعة من منبعه لكنه يتحرك بشكل أبطأ في اتجاه مصبه، فإن موجة التاريخ تتدفق ببطء في البداية ولا تتسارع إلا عندما تصل إلينا وإلى زماننا. إن تراكمًا للخبرات وللظروف قد جعل غاليا رومانية. أمّا أن هذا كان حسناً أم سيئاً، فتقدير ذلك متروك لكل واحد.

على أنني لا أعتقد أن بوسعنا الاتفاق مع ميشليه على أن "غاليا قد غرقت مثلما غرقت أطلنطس" (١٣٤). بعد أليزيا، لم تغرق غاليا تماماً. ويرى پير لانس أن غاليا تظل التيار التحتي، والحي دائماً، لتاريخ فرنسا (١٣٥). وهكذا فإن تراثنا الكلتى، سواء فضله المرء أم لا على تراثنا اللاتينى، لا يمكن نفيه؛ وسواء رضينا أم كرهنا، فإننا نظل

موسومين بميسم هذه الازدواجية التراثية. ومع ذلك، فمن الناحية الثقافية، خسر العالم الكلتي معركتين رئيسيتين في غاليا: فلغته، بالرغم من أن الناس كانوا ما يزالون يتحدثون بها على مدار زمن طويل في مناطق ريفية معينة، حتى القرن الثاني عشر أحياناً (١٣٦)، لم تَخْلُف غير آثار باهتة في الفرنسية الحديثة (كانت البريتونية لغة أعيد استيرادها من الجزر البريطانية في القرن السادس أو قبل ذلك بقليل). أما الديانة الكلتية، التي كانت قد ازدهرت لزمن طويل جداً، حيث جرى تأييدها دون صعوبة خلال الفترة الرومانية التي تميزت بتعدد الآلهة، فقد اجتاحتها المسيحية في النهاية بربها الواحد الأحد. وهي لن تبقى إلا في مستودع الفولكلور الوثني والدين الشعبي. فهل يمكن للمرء أن يتحدث بالفعل عن "إبادة ثقافية" لغاليا (١٣٧)؟

أوج غاليا الرومانية في ظل كومودوس

بلغت غاليا الرومانية أوجها بعد قرنين من الفتح، في عهد كومودوس، الابن الأقل من جدير لماركوس أوريليوس. لقد ارتبط مصير البلد بحظوظ الامبراطورية: فعندما كانت الامبراطورية تزدهر كانت غاليا تزدهر؛ وعندما كانت الامبراطورية تنحدر، كانت حظوظ غاليا تنحدر هي الأخرى. فالواقع أن غاليا كانت مستوعبة ضمن نوع من اقتصاد عالم، ضمن ذلك الكيان المركب من أقاليم تتمحور حول البحر المتوسط، حيث تخفق نبضاتها على إيقاع واحد: وهو كيان مركب يمتد شرقاً، من الناحية الاقتصادية، حتى فارس والهند والمحيط الهندي. وعلى حافته الشمالية، كان متاخماً للفراغ، ويتطلع إلى البلطيق وبحر الشمال حيث داوريات الأسطول الروماني الذي يتخذ من بولونيا قاعدة له. وإلى الجنوب، كان هذا الكيان يجد حاجزاً له في الصحراء المترامية الأطراف، لكنه كان يتلقى الذهب القادم من السودان على طرقٍ عبر ما أصبح الآن المغرب. باختصار، كان وجود غاليا التابع محكوماً بالمصائر وبالظروف المتغيرة لهذا الكيان المركب الجبار.

وقد ظلت الامبراطورية على ما يرام إلى موت ماركوس أوريليوس في عام ١٦١ للميلاد، وقد تمتعت غاليا بمكاسب السلام الروماني حتى ذلك الوقت. إذ كان اقتصادها آخذاً في التوسع: وكانت الطرق والمدن والتجارة تساعد على تحولها. أما سكانها فقد أخذوا في التزايد من جديد، بما أدى إلى ما هو أكثر من تعويض الخسائر الدامية التي ترتبت على الفتح والمجازر والاسترقاق الذي كان قد اختزل شعب غاليا.

ولا يمكن لأي كلمات أن تقدر على وصف فظاعات الفتح: إن قبائل بأكملها، مثل الآدواتوك والايورون، بين الراين والاييسكو، قد أيدت أو بيعت كرقيق (١٣٨)، وكان قيصر قد تمكن حرفياً من "إغراق كل أسواق العبيد في إيطاليا بالسلعة البشرية (١٣٩). وكان فردينان لو (١٤٠) يبالغ عندما قدر عدد سكان غاليا قبل قيصر بعشرين مليوناً، لكن من المؤكد أن كارل چوليوس بيلوك كان مذنّباً بدوره عندما قلل من شأن العدد وقدر أنه لم يكن بالإمكان أن يوجد في غاليا في عام ١٤ بعد الميلاد أكثر من إجمالي أربعة ملايين وتسعمائة ألف نسمة (١,٥٠٠,٠٠٠ بكثافة ١٥ في الناربوتيه و ٣,٤٠٠,٠٠٠ بكثافة ٦,٣ في بقية غاليا) (١٤١). ويبدو لي غريباً أن ينسب إلى غاليا المزدهرة مثل هاتين الكثافتين المنخفضتين للاستيطان داخل امبراطورية يحدد عدد سكانها بنحو ٥٤ مليوناً في مساحة حجمها ٣,٣٤٠,٠٠٠ كيلو متراً مربعاً، أي بمعدل ١٦ ساكناً في كل كيلو متر مربع. وإذا كان هذا هو المتوسط، فإن غاليا بمساحتها التي تتألف من ٦٣٨,٠٠٠ كيلو متر مربع، لابد أنها كانت تضم أكثر من ١٠ مليون نسمة. وربما كان بوسعنا أن نقبل كحد أدنى الملايين الثماني أو التسع التي قدرها كافينياك، والتي يرى تاريخ أحدث للسكان أنها "مؤكدة تماماً" (١٤٢). ولكن ماذا كان الرقم بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً، في أيام ماركوس أوريليوس وكومودوس، عندما كانت غاليا في ذروة ازدهارها؟

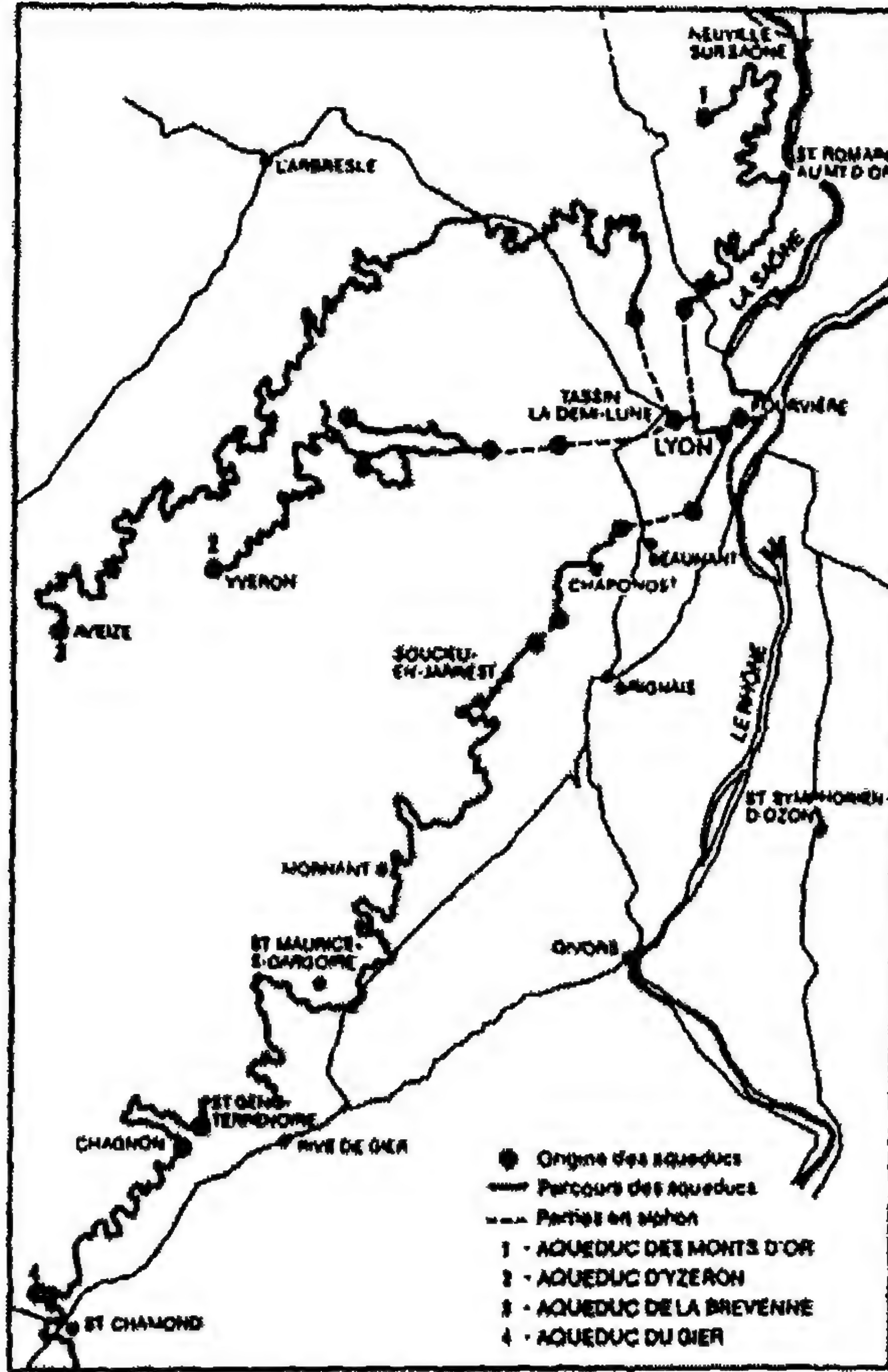
هذه المرة لا يتردد كارل چوليوس بيلوك في طرح رقم أعلى بكثير، فهو يقول إنه لم يحدث قط أن كانت الامبراطورية الرومانية على ما كانت عليه من كثرة سكانية في أوائل القرن الثالث: لقد تضاعف عدد السكان منذ موت قيصر. ومن ثم فإن ملايين الغاليين الخمس التي سمح بها في عام ١٤ للميلاد (وهو رقم راجعه في الواقع ليصعد إلى ست أو سبع ملايين) كان من شأنها أن تصبح عشر ملايين على الأقل، إن لم يكن اثنا عشر أو أربع عشر، بكثافة نحو ٢٠ ساكناً في الكيلو متر المربع الواحد (١٤٣). وأعتقد أن هذه الأرقام قد تكون أدق من أرقام روسيل. ولكن دعونا نقبل حداً أدنى قدره نحو ١٠ مليون. ودعونا نفترض أن السكان الحضريين كانوا يشكلون نسبة ١٠ في المائة من هؤلاء (وليس ٢٠٪ كما يرى روبر فوسيه (١٤٤): "كان أربعة غاليين من كل خمسة سكان أرياف"). وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن نحو مليون غالي قد عاشوا في المدن، وإذا افترضنا أنه كان هناك نحو ألف مستوطنة حضرية جديدة بهذا الاسم، فإن هذا سيعني أن كل مدينة كانت تضم نحو ألف نسمة.

ولا يجب للقاريء أن يحتج على تواضع هذا الرقم: فمن المرجح أنه يظل مع ذلك جد مرتفع. فالأرقام المماثلة بالنسبة لألمانيا (١٤٥) حتى في القرن الخامس عشر المزدهر لا تقدم غير متوسط سكاني قدره خمسمائة نسمة فقط للمدينة الواحدة! وقد يكون رقمنا جد مرتفع لأنه إلى جانب المدن الغالية والرومانية التي تتراوح مساحة الواحدة منها بين مائتين وثلاثمائة هكتار، كان هناك الكثير من البورجات الأصغر، والتي كانت بيوتها ما تزال تسقف بالقش؛ وهنا كانت الساحة العامة هي السوق التي كان الفلاحون من الريف المجاور يجيئون إليها لبيع المؤن لسكان المدينة. لكنها كانت مدناً على أية حال. ولا يجب أن ننسى أنه، حتى في القرن الثامن عشر، كانت ديجون ما تزال تضم بيوتاً كثيرة مسقوفة بالقش (١٤٦). ويقول فردينان لو إن "المدن الأكبر (في غاليا الرومانية)، نيم، تولوز، أوتان، تريف، لم يكن بوسعها قط أن تحوز أكثر من ٥٠,٠٠٠ نسمة" (١٤٧). لكن هذه الأرقام هي في الواقع أرقام كبيرة نوعاً ما بالنسبة لذلك العصر، على أن ليون، عاصمة الغالين الثرية، ربما تكون قد ضمت ما يتراوح بين ٨٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ نسمة. ثم إن هذه المدن الرومانية بمسارحها، وبأقواس النصر فيها، وبحماماتها، وبحلبات المصارعة فيها، كانت ذات مشهد رائع. ويا له من إنجاز غير عادي أن يتم توصيل المياه إلى ليون! أو إلى فين! وبمجرد وقوع البصر على هذه القنوات الجبارة، لا يكاد يصدق المرء عينيه. وطبيعي أنها كانت بشكل ما زخارف، "استعراضات مسرحية" (١٤٨). فالمستقبل سوف يثبت إلى أي حد كانت هشة، ولكن أليس المستقبل، في أغلب الأحيان، خيانة للماضي؟

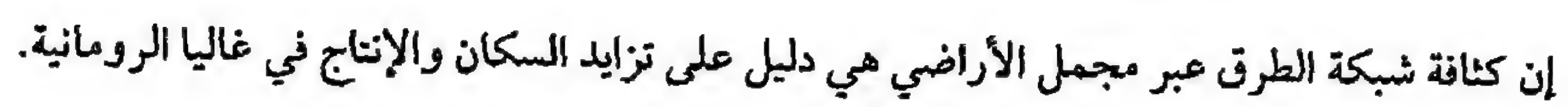
على أن التحول الحضري لغاليا، والشكل الذي اتخذته، كانا علامة سافرة على رومنتها. والحال أن التأثير الروماني، المتباين في عمقه من مكان إلى آخر، إنما يقدم الآن دليلاً على تاريخ تفاضلي، يضيف سمات جديدة إلى التباينات الموجودة من قبل. وهكذا فقد ركز الرومان جهودهم على طريقي الرون والسون المائتين، المتجهين شمالاً عبر المير والموزيل إلى حدود الراين المضطربة أبداً. وعندما أصبحت المصاعب خطيرة في هذه المنطقة، أصبحت تريف العاصمة الحقيقية للبلد، على حساب ليون. كما أسبغ الرومان حظوة على الناربونيه: إن ألفيا دوميسيا وألفيا أوريليا كانا يخترقان بروفانس ولانجدوك في اتجاه إسبانيا. والحال أن الناربونيه، الأكثر كثافة من الناحية السكانية والأكثر تأثراً بالثقافة الرومانية والمحتلة قبل بقية غاليا بسبعين سنة، سوف تتمتع فيما بعد، في العصور المظلمة، بامتياز البقاء تحت الحماية "الرومانية" حتى ٤١٥ - ٤٤٣

الشكل ١٧

القنوات الرومانية في ليون

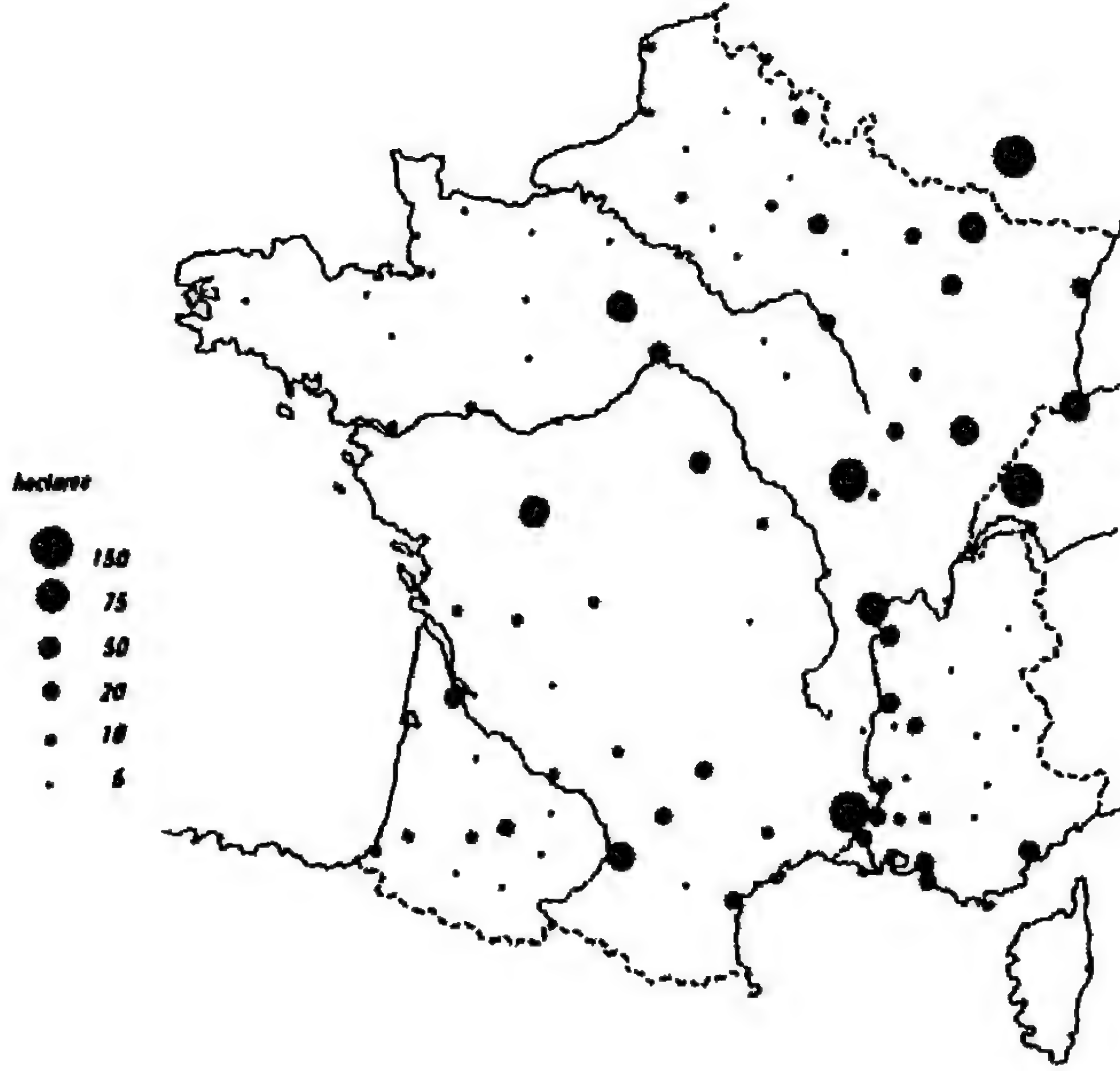


إن القنوات الأربع التي زودت ليون بالمياه هي بحد ذاتها دليل على أهمية الاستيطان الغالي - الروماني هناك. وعندما أدت غارات البرابرة إلى إلحاق ضرر لا علاج له بهذه الشبكة المائية، اضطرت ليون جزئياً إلى هجر موقعها السابق.



الشكل ١٩

الشبكة الحضرية في غاليا الرومانية



تُدخل هذه الخريطة تصحيحاً على خريطة شبكة الطرق السابقة. ويوضح توزيع المدن ماهية المحاور الاستراتيجية للإمبراطورية: طريق الرون - السون الممتد حتى حدود الراين، والطرق الممتدة عبر بروفانس ولا نجدوك والتي تؤدي إلى إسبانيا ووادي الجارون.

ووصول القوط الغربيين والبورجونيين .

وقد أسهم هذا كله في زيادة الاختلافات والتباينات بين شمال فرنسا وجنوبها، كما أن الأيل دو فرانس قد حافظت على ثقافتها الرومانية لوقت طويل في وجه الفرنك، لكن الأيل دو فرانس كانت أقرب ما تكون إلى جيبٍ وسط عالمٍ بربريٍّ شاملٍ .

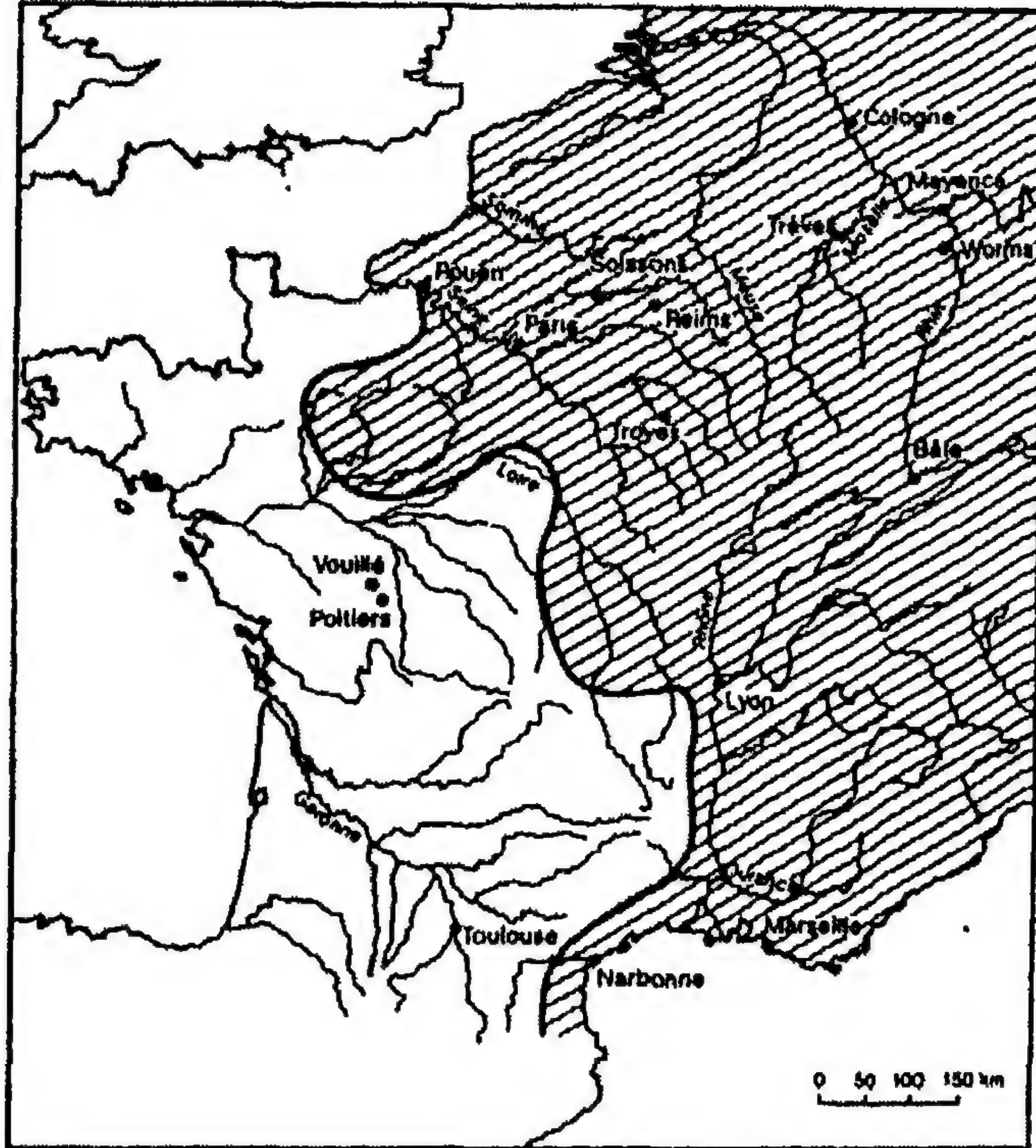
غاليا الرومانية في وجه متاعبها الداخلية وغزوات البرابرة

بحلول أواخر القرن الثاني، نحو ١٧٠ - ١٨٠ للميلاد، كان السلام الروماني قد ترعزع بالفعل وأخذ يميل إلى الانهيار . فحدود الراين كانت الآن تحمل السلاح: ففي عام ١٦٢، كانت العصابات الجرمانية تتسلل إلى بلجيكا الشمالية؛ وفي عام ١٧٤، وصل آخرون إلى الألزاس . ولا يجب لنا أن نبالغ في أهمية هذين الحدثين، فقد استعيد النظام بسرعة وبسهولة (١٤٩). والحدود التي وفرت لغاليا السلم والهدوء لن تتعرض لانتهاك خطير إلا بعد ذلك بزمان طويل، في عام ٢٥٣، من جانب الفرنك والألامان . ويبين الشكل ٢٠ أن شطر غاليا الشرقي كان عرضة لغارات امتدت جنوباً حتى وادي الرون الأدنى بل وعبره إلى إسبانيا . وكان الذعر والفوضى من الجسامة بحيث إنه، في عام ٢٦٠، جرى إعلان ضابط غاللي، هو بوسوموس، امبراطوراً لغاليا من جانب جنوده، ليس في روح تمرد ضد روما، بل من أجل صد الغازي . وقد نجح في عمل ذلك على مدار ثمانية أعوام، بل ونجح في طرد البرابرة ومطاردتهم عبر الراين، وفي استعادة النظام ورد الثقة إلى غاليا . إلا أنه في عام ٢٦٨، اغتاله جنوده وهو خارج ماينس، لأنه كان قد منعهم من نهبها . ولم تعش "امبراطورية" غاليا طويلاً بعده: ففي عام ٢٧٣، تمكن الامبراطور أوريليان من إلحاق الهزيمة بتريكوس، آخر خلفائه، وبعد ذلك بعامين، في عام ٢٧٥، انفتحت ثغرات فاغرة عديدة من جديد في الحدود الشرقية .

وهذه المرة، تأثرت غاليا كلها: فخلال اجتياحها، جرى حرقها وإراقة دمائها . وأصبح من الواضح أن النظام لا يمكن الآن أن يُستعاد، كما كان الناس يأملون قبل ذلك ببضع سنوات . ففي تلك المرحلة، لجأت المدن إلى الاعتماد على مواردها الخاصة وراحت تبني بسرعة تحصينات خاصة بها . على أننا يجب أن نلاحظ أن هذا كان ما يزال قبل أكثر من قرن من غزوات البرابرة الكلاسيكية (الحقيقية) . ففي ٣١ ديسمبر

الشكل ٢٠

غزوات القرن الثالث بعد الميلاد



كانون الأول ٤٠٦ فقط، حدث ما يسمى بـ "الغزو الكبير"، تحت قيادة راداجيزوس . وفي عبورهم لنهر الراين المتجمد، اجتاح أتباعه كل غاليا، في تيار من الأقوام المختلطة؛ وهو غزو كان، بشكل مفارق، أقل تدميراً في نهاية الأمر ربما من اختراق عام ٢٧٥ (١٥٠).

يجب أن نتذكر هذه التواريخ: ٢٥٣، ٢٧٥، ٤٠٦؛ فهي تثبت أن انحدار غاليا كان قد بدأ قبل وقت طويل من غزوات القرن الخامس الكبرى. فانحدار غاليا مرادف لانحدار الامبراطورية الرومانية - الرجل المريض الذي طال احتضاره. وقد تجادل المؤرخون لزمان طويل حول ما إذا كانت الامبراطورية قد ماتت من الداخل، متحملة المسؤولية عما حدث، أو ما إذا كانت قد استسلمت لضربات البرابرة، "أعدمت"، كما يرى أندريه بيانبول (١٥١). ومثل هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابة، حتى وإن كان من غير المحتمل أن نحسم الجدل، خاصة وأني قد اخترت تناولها من زاوية خاصة. ولكن هل يمكن لأحد أن يكون واثقاً من تقديم الإجابة الصحيحة في مجال كهذا؟

تمرد من المستحيل إطفاء ناره

شأنها شأن الامبراطورية، هوجمت غاليا أيضاً من الداخل. فقد شهدت في وقت واحد أزمة سياسية تشكل تحدياً لسلطة الدولة، أي للامبراطورية؛ وأزمة اجتماعية هددت استقرار هيراركياتها؛ وأخيراً، تدهوراً خطيراً في مجال الاقتصاد، منشأه غير مؤكد لكن أثره ملحوظ - فقد حدث هبوط في عدد السكان، وهو بحد ذاته مؤشر على أن الأمور لم تكن على ما يرام.

أما السمة الأهم للأزمة - وهي نتيجة بقدر ما هي سبب لها ربما - فهي الاضطرابات التي انتشرت بين صفوف الجماهير الريفية (أي غالبية السكان): "تمرد فلاحي" مدمدم، يكاد يكون من المستحيل كبتة ويصعب على المؤرخين تعيين أي مركز واحد له. فـ *ager* أو *lactoratorium*، الأرض المزروعة، كانت تترامى الغابات الممتدة والمستنقعات والتلال وأراضي الأشجار المنخفضة التي غطت مساحة جد واسعة وكان بوسع أي خارج على القانون أن يختفي فيها. وكانت المصطلحات شائعة الاستعمال، *tractus* أو *saltus* (١٥٢)، تشير إلى هذه الأراضي المترامية الأطراف، والتي لم يمسهما الاستيطان البشري إلا جزئياً - إنها "البرية" التي شكلت فئة ثالثة إلى جانب المدينة والريف (١٥٣). والحال أن الأحراج، والتي كانت مساحات

ضخمة منها ما تزال تغطي غالباً، قد تباينت ليس فقط مع فضاء المدينة المفتوح وإنما أيضاً مع الريف "المتحضر"؛ وهي تثير الخيال والرعب: وقد قيل إن ركوب الجياد عبر غابة في الليل كان يصيب الناس بالجنون وإن كل من كان يغامر بذلك كان يعد مجرماً، وفقاً للقانون الأنجلو - ساكسوني، إلا إذا أعلن وجوده بإصدار صوت عبر بوق (١٥٤). ولا ريب أن قليلين من غير الخارجين على القانون أو المطاريد قد بحثوا عن ملاذ هناك على أية حال: وهو ما يذكرنا بالعبيد الهاربين من المزارع في أمريكا الكولونiale والذين لم يكن بوسعهم أن يجدوا ملاذاً إلا في الغابات البكر.

وكان وضع فلاحي غالباً، أكانوا عبيداً أم صغار ملاك للأرض (أحراراً من الناحية النظرية لكنهم تابعون بشكل مفرط من الناحية العملية)، قد تدهور بشكل متزايد. فمع تزايد ندرة العمل، سعى ملاك الأرض الأقوياء، الـ *potentes*، إلى توفيره بالقوة في ضياعهم الواسعة والمهيبية، الـ *villae*، والتي نعرف الآن من أعمال التنقيب وخاصة من التصوير الفوتوغرافي الجوي أنها كانت أوفر عدداً مما كان يُظن في وقت من الأوقات. ففي وادي السوم مثلاً، والذي ساد الظن لوقت طويل بأنه لم يكن يُزرع إلا حول المدن، حيث تظل بقية الأرض ياباً، كشفت الملاحظات الجوية المنهجية التي قام بها روجيه أجاش على العكس من ذلك عن "إقليم تغطيه مزارع شاسعة" (تم حتى الآن رصد ٦٨٠ مزرعة بشكل مؤكد) تتداخل فيما بينها مستوطنات ومستقرات صغيرة قليلة (١٥٥). ويجري الآن الاضطلاع بمسح جوي مماثل في بريطانيا.

ومن المرجح أن الـ *villae* الغالية - الرومانية قد شكلت الجانب الأعظم من المزارع. والحال أن هذه المزارع، التي تتألف عموماً من نحو ألف هكتار، وأحياناً أكثر، من الأرض الزراعية والمراعي والأحراج، كانت واسعة جداً، وكانت بها بنايات فسيحة: إن فيللا غالية - رومانية في مونموران في الجارون الأعلى كانت تتألف من ١,٥٠٠ هكتار من الأراضي الزراعية ومن ١٥ هكتاراً من البنايات (١٥٦). وهناك فيللا أخرى في *département* السوم، وارفوسيه أبانكور، كانت بها بنايات تمتد على مساحة ٣٣٠ متراً (١٥٧). وكانت فيللا أخرى في كانيه، قرب بيزيه، ذات مقاييس أكثر تواضعاً: فبناياتها قد غطت ٦٢ متراً من مساحتها الإجمالية التي تصل إلى مائة هكتار (١٥٨). وقرب بوردو، كانت توجد فيللا حصينة، كانت آخذة في التحول بالفعل إلى قلعة، بوجوس ليوتتي، وأصبحت فيما بعد بوج - سور - جيروند. وحيثما جرت اليوم أعمال تنقيب، في كريل على الواز، مثلاً، تُكتشف فيلات جديدة ذات أسوار سميكة وأكوام

من القرميد الفخاري ومجار رصاصية خربة لنقل الماء. بل عُثر على بعض النوافذ أو بالأحرى بقايا نوافذ، كانت ما تزال مطوقة على نحو فج بأطر رصاصية (١٥٩).

وكانت كل فيللا تتألف من قسمين على الأقل: فمن ناحية، كانت هناك ال *urbana*، حيث يسكن السيد، محاطاً بكل ما يريد من أسباب الراحة، على النمط الروماني!؛ الفناء، بهو الأعمدة، المدافئ، الحمامات، وما إلى ذلك. والحال أن أبولسليانريس سيدوينوس (٤٣٠ - ٤٨٧) الذي عاش في فيللاه في آفيتاكوس، في أوفرنيا، على بُعد نحو عشرين كيلو متراً من كليرمون (تأكد أن قرية آيدا الحالية هي آفيتاكوس القديمة)، قد كتب في يونيو/ حزيران ٤٦٥ إلى صديق له مكث في المدينة وقت الجو الحار، متباهياً بمسرات منتجعه الريفي وجمال حماماته "التي تضاهي" الحمامات الموجودة في البنايات العامة (١٦٠). ولا شك أن مسكن السيد كان مكاناً بهيجاً. إلا أنه إلى جواره كانت هناك بلا ريب بنايات ال *rusticana* التي تضم كلاً من مخازن وأهراء المزرعة ومساكن العبيد: المطبخ الواسع الذي كانوا يأكلون فيه والغرف التي كانوا ينامون فيها. وفي جانب من عزل كانت توجد ال *ergastulae*، حيث يجري حبس المشاغبين، ومنزل ال *villacus* وزوجته اللذين يشرفان على عمل مجموعات العبيد ويتحملان المسؤولية عن إدارة المزرعة. وكان يمتد حول الفيللا سور فاصل؛ وأحياناً كان يوجد معبد، وإن كان المرء يتردد أمام تمييزه كمعبد.

ويبدو أن مخطط البناء العادي يتبع توجيهات المهندسين الزراعيين الرومانيين، فارو أو كولوميللا - في اختيار الموقع وتصميم البنايات وواجهة منزل السيد (التي تطل على الجنوب والشرق). ويوجد هذا المخطط في أماكن أخرى في مختلف أرجاء الامبراطورية الرومانية. وقد كف كثير من هذه الفيللات عن الوجود بهذه الصفة، وتغير معنى كلمة "فيللا" نفسها، مع تولي القرى زراعة الضياع (١٦١)، التي استمرت لزمان طويل كمشروع قابل للحياة. وأياً كان الأمر، فمن المؤكد أن "الأديرة سوف تتبنى شكل الفيللا الريفية (الرومانية) في عهد سان بينوا" (١٦٢).

لكننا لسنا مهتمين بطراز المساكن والأسوار المحيطة بالفيللا قدر اهتمامنا بشاغلها من البشر. لقد كانت الفيللا الغالية - الرومانية مقر تركيز فطيع، "كانت مصنعة ريفياً حقيقياً... أسوأ بكثير... من المصانع الحضرية في القرن التاسع عشر في إنجلترا (أو) في فرنسا" (١٦٣). إذ كانت جهازاً لاستعباد ولسحق الكائنات البشرية. ونحو عام ٤٥١، كتب راهب أحزنه حظ هؤلاء الضحايا العاثر: "عندما يفقد صغار ملاك الأرض

بيوتهم وأراضيهم على أثر عمل من أعمال اللصوصية، أو عندما يطردهم مسئولو جباية الضرائب، يلوذون بضيعة أحد الأثرياء ويصبحون من سكانها. . . . والحال أن جميع أولئك الذين يذهبون للعيش في أراضي الأغنياء إنما يتحولون كما لو كانوا قد شربوا من كأس سيرسيه ويصبحون عبيداً" (١٦٤). بل إن المتسولين والمتشردين والخارجين على القانون والفارين من الجيش سوف يجري إدراجهم بالقوة في العمل، و"ربطهم بالأرض تحت سيادة السيد" (١٦٥). ولذا يجب أن لا تضللنا مصطلحات "المزارع الصغير" أو "المستوطن". فالامبراطورية الرومانية كانت تتميز بهذا الالتباس الجدلي بين العبد والمستوطن: وفي أحسن الأحوال كان المستوطن واحداً من أحلاس الأرض، إذا ما استعرنا مصطلحاً استخدم فيما بعد.

وكانت هذه الدراما حادة ومحل استياء جسيم، وذلك بقدر ما أن العبودية، التي سرعان ما سوف تنتشر في كل مكان، يبدو أنها كانت أقل تطبيقاً بين الكلتين مما بين شعوب البحر المتوسط (١٦٧). ثم إن الضياع الكبيرة، بسبب كفاءة أساليبها الانتاجية، كانت قد أصبحت أكبر بكثير، إذ ضمت إليها، ولكن دون أن تهدف إلى ذلك تماماً، أراضي المزارعين الصغار المحيطة بها. وهكذا كان نظام عبودي آخذاً في التوسع المتواصل؛ وربما مثل العبيد ثلث السكان. وقد اعتمد النظام على مدد متواصل بعد انتهاء الوجود الروماني في غالبا. ففي عهد داجوبير مثلاً (٦٢٩ - ٦٣٩)، عاد الجيش الملكي من حملة على آكيتين، ساحباً وراءه طوابير طويلة من الأسرى، كل اثنين منهم مقيدين أحدهما بالآخر، "مثلما يفعل مع الكلاب" (١٦٨). على أن العبيد كانوا يموتون بسرعة: ففي المزارع الأمريكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان العبد لا يحيا لأكثر من سبع سنوات في المتوسط.

وللحفاظ على الأعداد ولمنع الهرب، كانت هناك ضرورة لدولة قوية، تمثل تهديداً حاضراً دائماً بالقمع. ألم يكن الانتقال في روما نفسها من جمهورية إلى امبراطورية، أي إلى نظام قوي تدعمه الطبقات المالكة، قد ترتب على تمردات العبيد؟ إلا أنه في غالبا، كانت سلطة الحكم قد تدهورت خلال عهد كومودوس: لقد تتابعت الاحتجاجات والانتفاضات و"التمردات الفلاحية" بسرعة. وفي ظل ديوكليتيان وماكسيميانوس، خلافاً لذلك (٢٨٤ - ٣٠٥)، أعاد النظام الامبراطوري تأكيد سلطته وعادت العبودية إلى حيز التطبيق. ولكن ليس لزمّن طويل: فسرعان ما نشبت انتفاضات فلاحية من جديد.

وكان أول مظهر معروف للتمرد نوعاً من أعمال قطع الطريق الجماهيرية قاده المدعو ماتيرنوس (١٦٩)، نحو ١٨٦ - ١٨٨، وهو حركة تشبه الكثير من الحركات الأخرى الموجهة ضد القرى والمزارع والفيللات. وقد تعززت صفوفها بعد النجاح الأول، ثم تبعثرت بعد مواجهاتها الأولى مع قوات النظام، التي لم يكن بوسع هذه الحركة الصمود في وجهها: وفي كل عصر، أثبتت الانتفاضات الفلاحية أنها عاجزة عن مقاومة جيش منظم. لكن الهزيمة لم تمنعها من الاستمرار بشكل سري. لقد أحمد ماكسيميانوس جميع الانتفاضات بين الألب والراين؛ على أن حرب العصابات قد استمرت.

وفي القرن الثالث، من جراء عبء الضرائب والتضخم النقدي الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار، تزايد الخطر الفلاحي إلحاحاً، إلى حد أن كلمة جديدة قد سكت للإشارة إلى المتمردين: *Bagaudae* (ربما من كلمة *baga*، وهي كلمة كلتية تعني المعركة) (١٧٠). ونحو عام ٢٤٠، كتب سالفيان مبرراً الـ *Bagaudae*: "سوف أتحدث الآن عن الباجود الذين جردهم من ممتلكاتهم أناس أشرار ومتعطشون للدماء، وضربوا وقتلوا، بعد أن جردوا حتى من شرف الاسم الروماني. وهم الذين يوجه إليهم اللوم على هذه المصيبة، وهم الذين نسميهم بهذا الاسم اللعين، نحن الذين نتحمل المسؤولية عن كل ذلك. إننا نسميهم بالخارجين على القانون، أولئك الناس الذين جعلنا منهم مجرمين. لأنه، أليس جورنا وانعدام نزاهة قضائنا، وأحكام النفي التي أصدرناها، وأعمال السلب التي انهمكنا فيها، هي التي أوجدت الباجود؟" (١٧٢).

وربما كان الشيء الأخطر من سواه هو أن الفلاح المتمرّد قد رحب بالبرابرة وتفاهم معهم واستفاد من المتاعب التي تسببوا فيها لكي يشن غاراته هو، الأمر الذي زاد من حدة هذه المتاعب. وإلى جانب البرابرة الذين حاربوا ونهبوا، كان هناك أيضاً برابرة مرتبطون بالأرض. وسواء أكانوا قد فروا من الجيش من تلقاء أنفسهم أم اختزلوا إلى حالة العبودية على أيدي كبار ملاك الأرض، فقد أصبحوا شركاء الفلاحين الغاليين - الرومان في البؤس.

والحال أن التمردات الفلاحية، المتحركة من حيث الجوهر، كانت تنتقل أحياناً إلى مسافات بعيدة. ولعلها كانت أكثر هيمنة في غاليا الغربية بملاذاتها التي لا حصر لها في الغابات حيث سرعان ما تبخرت السلطة الرومانية التي لم تكن قط جد قوية. ومن شأن هذا أن يفسر حواراً في كوميديا ترجع إلى القرن الخامس، هي كوميديا *Querulus*، المتذر - التي نجهل مؤلفها. فأحد الشخصيات يطلب من ربه العائلي "أن يهبه القوة

لمحاربة الأجانب وسلبهم ممتلكاتهم". وعندئذ يجيبه الرب: "اذهب وعش على ضفاف اللوار" (١٧٣). ففي تلك النواحي، في ما يوضح الرب، يحيا الناس "بموجب شريعة الغاب" و"كل شيء مباح". ومن المرجح أن المؤلف كان يفكر في الباجود. وفي كتاب صدر مؤخراً (١٧٤)، دافع پير دو كيس عن المتمردين وضخم من دورهم. بل إنه كتب يقول: "إن الباجود المذبوحين قد انتصروا على أية حال". فصلابتهم قد أرغمت النظام العبودي على التحول نحو نظام حلسية الأرض الأقل قسوة - فالعيش في ظله كان أيسر لأن الحلس، خلافاً للعبد، كان له بيت وأسرة وقطعة من الأرض، وكان الإكراه الاجتماعي قد انتقل من كاهله إلى الأرض. وكان الحلس يتمتع بحرية أوفر من العبد ومن ثم فقد كان عمله منتجاً أكثر. على أن التحول لم يكن قد أصبح كاملاً بعد، بل كان بعيداً عن ذلك، بحلول نهاية غاليا الرومانية. وسوف يتعين الانتظار إلى زمن الكارولينجيين على الأقل، وإلى ما بعده! والحال أن عوامل كثيرة - اقتصادية وسياسية واجتماعية - سوف تتدخل بقدر لا يتماشى تماماً مع المنطق جد البسيط لهذا التفسير المتمركس. وأعتقد أيضاً أن انحطاط المدن المتزايد قد مكن الريف من إحراز قدر من الحرية. وفي ظل الكارولينجيين، يبدو أن الفلاحين الأحرار كانوا ما يزالون كثيرين جداً، مع أن الملكية الصغيرة للأرض قد أخذت منذ تلك اللحظة في "الانحدار الحاد" (١٧٥).

على أنني لست مهتماً الآن بتمردات الباجود من هذه الزاوية العامة قدر اهتمامي بإظهار إلى أية درجة من الخطورة أدى هذا التمرد إلى زعزعة غاليا الريفية وإضعافها. إن ما انقضت عليه غزوات البرابرة ومزقته كان مجتمعاً مهلهلاً بالفعل. وربما جاز للمرء أيضاً أن يتساءل ما إذا كانت المسيحية قد أخذت تتسلل إلى غاليا كشعاع من الأمل بسبب هذه المتاعب والمحن في القرن الثالث؟ من المرجح أن الإجابة بالنفي. فقد ظهرت الجماعات المسيحية الأولى نحو سبعينيات القرن الثاني في مدن قليلة: مارسيليا، ليون، أوتان. ولكن حتى في زمن شهداء ليون في عام ١٧٧، سنجد أن هذه الجماعات كانت ما تزال جماعات محدودة العدد جداً، تتألف غالباً من يونانيين أو من شرقيين يتكلمون باليونانية. فالواقع أن المسيحية لم تبدأ في مد جذور لها في غاليا إلا بحلول نهاية القرن الرابع الميلادي - بعد وقت طويل من مرسوم ميلانو (٣١٣) الذي أكد الحرية التامة للعبادة في الامبراطورية؛ لكن الجماهير لن تفتح أذرعها بالفعل للمسيحية إلا بعد وقت طويل أيضاً من ذلك.

ومع ذلك، لا يجب أن ننسى غزوات البرابرة

فيما مضى، كان المؤرخون يلقون اللوم بالكامل عن انهيار كل من الامبراطورية الرومانية وغاليا على غزوات البرابرة. وقد اعتادت التفسيرات التقليدية على التشديد بقوة على مغامرات البرابرة، بدءاً من "الغزو الكبير" الذي قاده راداجايروس في عام ٤٠٦ وحتى وصول القوط الغربيين في عام ٤١٢ والبيورجونيين في عام ٤٤٣ إلى غاليا. وقد قيل إن المحنة قد انتهت عندما تمكن الرومان وحلفاؤهم "البرابرة"، في معركة الساحات الكتالونية الحاسمة في عام ٤٥١، من الانتصار على آتيلا وحشوده من الفرسان المغول الذين كانوا قد خرجوا من أعماق آسيا ودفعوا أمامهم أقوام أوروبا الوسطى وجرمانيا. لقد تم تفادي خطر قاتل. فهل أدت موجة غزوات البرابرة إلى تغيير مسار التاريخ بالفعل؟ أم أن المؤرخين المحدثين محقون حين ينسبون لها أهمية أقل؟ الإجابة نعم ولا في وقت واحد.

إن الحجة الأولى التي يقدمها المؤرخون الساعون إلى التقليل من شأن دور البرابرة هي العدد القليل للغزاة، والذي أثبتته منذ عام ١٩٠٠ دراسة هانز ديلبروك الكلاسيكية (١٧٦).

ولعل عدد الفرانك كان نحو ثمانين ألف وعدد البيورجونيين مائة ألف وعدد الفاندال نحو عشرين ألف (بالمقارنة مع نحو ثمانين ألف عندما عبروا مضيق جبل طارق)، وكان عدد الآخرين مماثلاً تقريباً. ومن ثم فلم يكن هناك مفر من أن يتفوق عليهم في العدد سكان يصل عددهم إلى زهاء سبع ملايين. وقد اعتاد هنري پيرين (١٧٧) قول إن البرابرة ربما كانوا قد "بربروا" الامبراطورية، لكنهم قد جرى ابتلاعهم أنفسهم في سكانها، حيث نجحت اللاتينية واللغات الرومانية في إزاحة لغتهم كما نجحت المسيحية في إزاحة ديانتهم.

لكن المؤرخين نادراً ما ترددوا مع ذلك في التعبير عن احتقارهم، بدرجات مختلفة، لـ "المغامرين الشرهين، الحنجوريين، ذوي الروائح الكريهة"، كما سماهم لوسيان رومييه (١٧٨). ويرى مؤرخ شهير أن الفرانك مثلوا "مرتعاً للرديلة، وأرضاً خصبة للفجور وللغدر وللوحشية" (١٧٩). كما لو أن تاريخ الامبراطورية الرومانية في عهدها الأخير كان تاريخ الفضيلة والورقة والوفاء! إن الصورة القديمة للفرسان المتوحشين المتدفقين على الغرب قد حلت محلها صورة الحمقى، "الرجال الذين ينشدهون لرؤية الأسوار المنهارة للامبراطورية التي كانوا يدقون أبوابها والتي يدخلونها

الآن على أطراف أصابع أقدامهم" (١٨٠). (كان الجرمان على أية حال يصفون الليمات بالـ **Teufelmauer**، حائط الشيطان). أمّا فيما يتعلق بزعمائهم، فقد وصفهم فرانسوا جيزو، وهو كاتب رائد في هذا الاتجاه، بأنهم "يتعلقون في عناد بأسمال الأبهة الرومانية، كملك زنجي يرتدي زياً أوروبياً" (١٨١).

فهل لهذا كله معنى بالفعل؟ أم أن المؤرخين يتحركون على بندول من رؤية متطرفة إلى رؤية متطرفة أخرى؟ إن لم أكن مخطئاً، كان روبير فوسيه أول من طرح وصفاً عادلاً لكل من الفريقين، لأولئك الذين جاءوا إلى غاليا ولأولئك الذين استبقلوهم طوعاً أم كرهاً. دعونا نعيد عرض الحجج المطروحة.

فلنأخذ أولاً عدد الغزاة: من الصواب الإشارة إلى الحجم المتواضع لهؤلاء السكان المتحركين في اتجاه الغرب. إلا أنه، بشكل مستقل عن "الغزوات"، كانت غاليا تستقبل بالفعل مدداً متواصلاً من الدم "البربري". ويشار في هذا الصدد إلى عدد إجمالي قدره نحو مليون إنسان. لكن هذا العدد لن يكون مع ذلك مهماً جداً لو أن سكان غاليا الرومانية كانوا بالفعل ما بين عشرين إلى ثلاثين مليوناً (وهو رقم جرى طرحه لكنني لا أصدقه). وطبيعي أن نسب الامتزاج تتغير إذا كان هذا الرقم أقرب إلى ١٠ مليون. على أن پول ديفورنيه (١٨٣) يرى أن الاحتلال البورجونني في سافوي كان تافهاً بحيث إن أثره كان ضعيفاً. وهو يستنتج أن الغاليين - الرومان المقيمين هناك كانت فرصتهم قليلة في رؤية البورجوننيين بأعداد أكبر من الأعداد التي رآها الفلاحون الفرنسيون من الألمان خلال الحرب الأخيرة (العالمية الثانية - المترجم). ثم إن التوترات في بروفانس ولانجدوك كانت أقل وضوحاً مما كانت عليه في شمال ليون، أو في غرب المسيف الأوسط أو في الحوض الباريسي (١٨٤).

بيد أنه حتى لو كان القادمون الجدد أقلية بشكل واضح، إلا أن الأقليات هي غالباً العنصر النشط داخل المجتمعات، فهي التي تغير شكلها ومظهرها. ثم إن تسلل البرابرة عبر الراين كان قد بدأ منذ وقت مبكر جداً. وقد حدث بأشكال متباينة - عبر الجيوش الرومانية مثلاً، وهي ممارسة قديمة تماماً؛ فالليمات على طول الراين كانت منفذاً بقدر ما كانت مانعاً، إذ كانت أحد سبل تجنيد الجنود والعمال اليدويين دون خطر. والحال أن البرابرة، سواء أكانوا قد اتخذوا أماكنهم كعبيد في الضياع الكبيرة، أم امتزجوا بالسكان المحليين بعد زرعهم في صفوفهم كجنود "قد أسهموا... بعد أن ابتلعت الجماهير الفلاحية أعدادهم الصغيرة، في ميلاد المجتمع الريفي ولكن الميال إلى

الحرب في أوائل العصور الوسطى" ، والذي سوف يكون تفسيره صعباً لولا " ذلك التغلغل الطويل البطيء لعنصر عسكري في أدنى مراتب المجتمع " (١٨٥) ، ولابد أنهم قد غيروا المشهد الزراعي في عدد من الأماكن ، إذ نمت على مواقع الفيللات - التي انهار كثير منها حرقاً - قرى أو قرى صغيرة مبعثرة تعيد سيرة أنماط الاستيطان الجرمانية السابقة. كما أن تطور الرعي قد غير وجه الزراعة من عدة نواح. وأخيراً، كان الغزاة الجرمان قد كفوا، بالرغم من جميع التعليقات غير الإيجابية، عن أن يكونوا عين الشعب الذي سبق لتاسيتوس وصفه. فبشكل مستقل أو من خلال الاتصال بالرومان، كانوا قد أحرزوا تقدماً فعلياً. وتشير الوثائق إلى أن عدداً غير قليل من الجرمان قد خدم في الجيش الروماني كضباط في أركان الفيالق أو القوات المساعدة، وبهذه الصفة، جرى تصعيدهم إلى مصاف مواطنين رومان. باختصار، نجد فلاحين ونبلاء يتمازجون على مستوياتهم الخاصة، ليس عبر الغزو والنهب بل عبر الأشكال السلمية للاندماج والتي لا تخلق متاعب.

ودون رغبة منا في إحياء نظرية أغسطين تييري، والتي تذهب إلى أن الفرانك هم أسلاف نبلاء النظام القديم وأن الغاليين هم أسلاف أحلاس الأرض والبروليتاريين، وهي نظرية لا يقبلها اليوم أي مؤرخ، أود مع ذلك أن أشير إلى أن الارستقراطية الفرانكية قد انضمت إلى الصفوف الأوفر عدداً بشكل ملحوظ للارستقراطية الغالية - الرومانية القائمة، والتي فازت بالبقاء عبر "التعاون مع الأجنبي"، كما عبر العثور على ملاذ في المراتب الكنسية العليا. والحقيقة الحاسمة، في رأيي، هي أن الارستقراطية الفرانكية قد عززت وأكدت هيراركية اجتماعية كتب لها الاستمرار، بالرغم من جميع التغيرات والتحويرات التي لا مفر منها، بدرجة استمرار النظام القديم، إن لم يكن بدرجة أكبر.

على أن غالباً قد جُرحت جرحاً رهيباً مع ذلك من جراء غارات البرابرة الكثيرة وأعمال النهب والقتل والاغتصاب واشعال الحرائق وأعمال التخريب وتحركات القوات وفي نهاية الأمر من جراء احتلال الغزاة الدائم وسلبهم لها. ولابد أن النتيجة التي ترتبت على ذلك، وإن كان من المستحيل قياسها، هي الخراب الاقتصادي والانحدار الحاد لعدد السكان. ويكتب أحد المؤرخين فيقول: "ربما جاز لنا أن نغامر بافتراض أن ربع أو ثلث السكان كانوا ضحايا للغزوات، وإن كان يجب أن نتذكر بالطبع أنه في بعض الأقاليم، خاصة في الشمال والشرق، ليس من المبالغة القول بأن أكثر من نصف السكان قد تلاشوا، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المجاعة والأوبئة التي تلت الغزوات"

وكذلك "عصابات قاطعي الطرق التي كانت تجوب البلد".

وقد عانت المدن معاناة جسيمة وسرعان ما انزوت داخل أسوارها. وضمن حدودها، شيدت معازل حصينة للاحتماء بها. وجرى تدعيم أسوار هذه الحصون المرتجلة بحجارة مأخوذة من العمائر الأثرية. ولم يكن من شأن هذا أن يؤدي بالضرورة إلى حماية المدن من السقوط أمام حصارات مباغته أو طويلة الأمد من جانب البرابرة: فالخيانة والخوف والجوع أو عدم توفر الماء كان يسلمها إلى العدو. والحال أن الامبراطور يوليوس (٣٦١ - ٣٦٣) الذي استمتع بإقامته في لوتيس (لوتيسيا [باريس]) خلال زيارة قصيرة إلى غاليا، قد كتب إلى الأثينيين يقول: "إن عدد المدن التي دُمّرت أسوارها [في غاليا] قد وصل الآن إلى نحو خمس وأربعين" (١٨٧).

والحق إن بعض الأقاليم قد خرجت من المحنة سالمة: فالجنوب "لم يعرف شيئاً مشابهاً لما حدث في شمال ليون أو في غرب المسيف الأوسط" (١٨٨). وفي تولوز في القرن الرابع، وفقاً لأوزونيوس، "سارت الحياة سيرتها السابقة، عين سيرة قرون خلت" (١٨٩). إلا أنه بشكل عام، أخذت المدن تنكمش: فقد استولت الحقول والبساتين على أرضها. وأصبحت مدن سابقة (أو عادت لتصبح من جديد) ما لا يزيد كثيراً عن قرى، حيث كانت الأكواخ ذات الأسقف المنخفضة تصطف على جوانب شوارعها الضيقة، وكان ملاك الأرض الأغنى يتركون المدينة وينسحبون للإقامة في فيلاتهم، للدفاع عنها أو للدفاع عن أنفسهم داخلها، ولكي يكونوا أكثر قرباً من ممتلكاتهم ولكي يهربوا من الضرائب الباهظة المفروضة على سكان المدن. وكما كتب الكسندر روستو (١٩٠)، فإن المدن، المحرومة من أسواق الماضي المزدهرة، والتي تدبر عيشها من مواردها المختزلة، قد مالت إلى الاكتفاء الذاتي، حيث لا تأكل إلا ما ينتجه جيرانها المباشرون، من الحقول المحيطة بالمدينة. والحال أن ليون، التي انهارت قنواتها، قد ترحزحت عن موقعها الأصلي. وأصبح الريف أيضاً شبه مقفر. وانتهت فيلات كثيرة نهاية مأساوية، كما نعرف من الشواهد الأركيولوجية الوفيرة. وانتشرت الـ *agri deserti* في كل مكان دون توقف. ومع ذلك، فبالرغم من الكارثة التي حلت بالمدن، وبالرغم من كل ما قيل، إلا أن العالم القديم "لم يؤد بحكم الواقع إلى موتها التام" (١٩١). فهي لم تصبح بين عشية وضحاها "جثث مدن"، بحسب تعبير سانت أنطوان البليغ ولكن المبالغ. وقد اختار الملوك البرابرة مدناً معينة لكي يقيموا فيها قصورهم، وكانت هذه القصور تمثل ذرى الإنجاز ضمن حدود مستوى التجارة

والحضارة في ذلك الزمن. وسوف يكتب لها البقاء. بل إنه لمن المدهش إلى حد ما أنه في حين أن الاتجاه الاقتصادي الهابط قد استمر لوقت طويل جداً في ممارسة ضغطه الضار، وفي حين أن غالباً الرومانية قد واصلت الانحدار بشكل لا مفر منه، إلا أنها قد صمدت مع ذلك في وجه هذه الضربات. فهل يرجع ذلك، كما أميل إلى الاعتقاد، إلى أن غالباً كانت تحوز مستوى معيشياً مرتفعاً بدرجة معقولة في المقام الأول؛ إلى أنها كانت تتميز بتكوين سليم البنيان بشكل أساسي؟ أم أنه يرجع إلى أن الاتجاهات الاقتصادية السائدة لم تؤثر دائماً على غالباً بشكل عميق؟ إلى أن الامبراطورية، من حيث هي كيان عام مركب، كانت تنحدر بالتأكيد، ولكن بمعدل سرعة بطيء؟

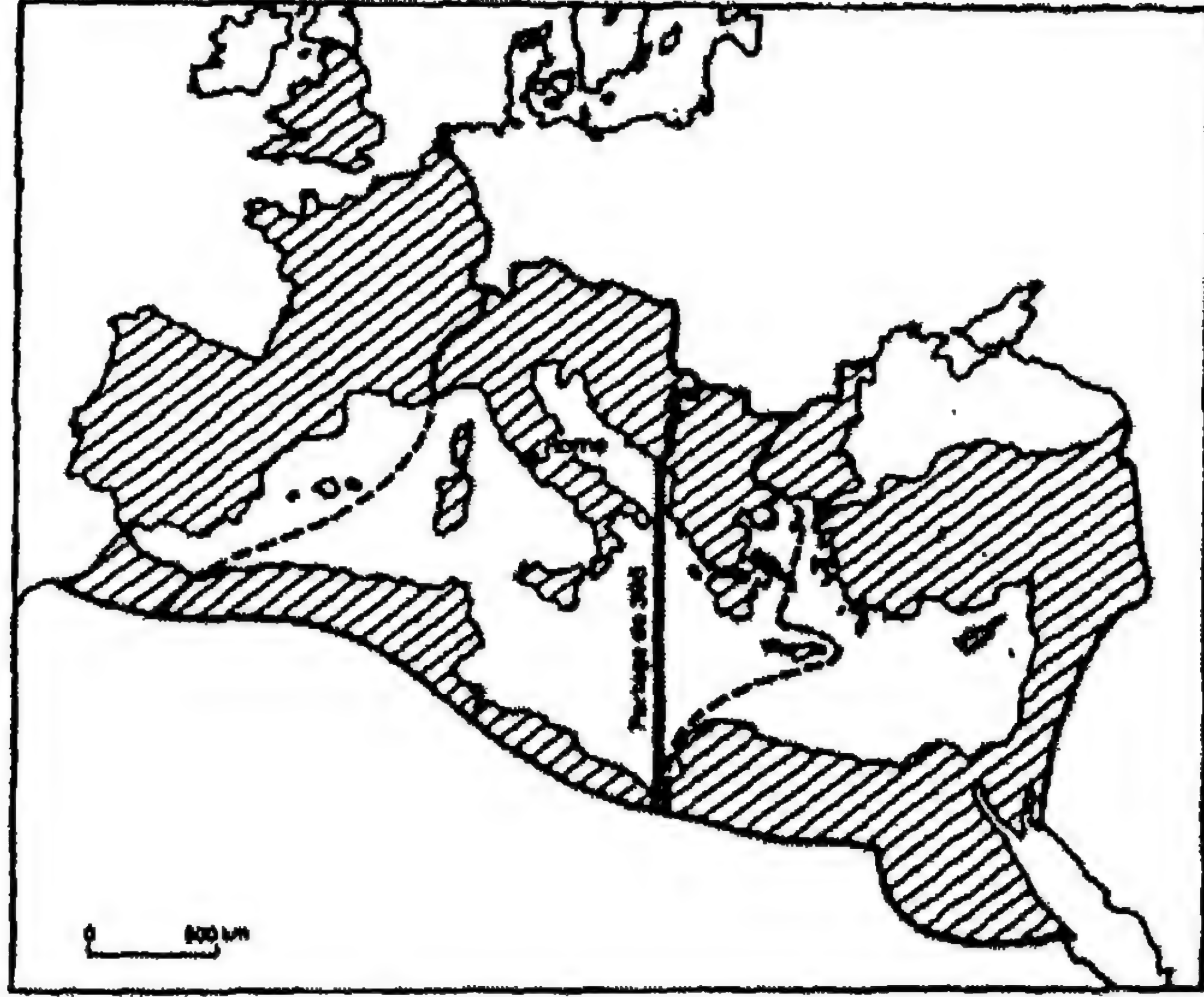
روما، اقتصاد عالم

تشير الشواهد إلى أن انحدار الامبراطورية الرومانية هو الذي حكم وقرر مصير غالباً، لكن هذا لا يجعل الأمور أكثر وضوحاً، فما أبعدنا عن ذلك! والحال أنه ما من مؤرخ جاد يشعر بأنه مؤهل لحل المسألة حلاً قاطعاً، ولذا فإننا نحاول كلنا اتخاذ احتياطات معقولة. ويخطر ببالي على نحو خاص الاستنتاج الشامل الذي انتهت إليه دراسة ماري - بيرناديت بريجبيير الجميلة، وهي دراسة تحاول التوفيق بين جميع جوانب المسألة (١٩٢).

إلا أننا لو كنا نريد رؤية الأمور بشكل أوضح قليلاً، فليس أمامنا من خيار سوى البدء من بعض الافتراضات المعقولة وإن لم يكن بالإمكان التحقق من صوابها. يمكن تتبع انحدار الامبراطورية على عدد من المستويات - هي المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وبوسعنا كلنا الاتفاق على أنه كان بطيئاً، وكان بالإمكان رصده على مدار فترة طويلة، كما كان متفاوتاً، أي أنه اتخذ شكل تدهور في أوقات مختلفة وفي أماكن مختلفة.

وكانت العلامات الأولى على الضعف سياسية - انحدار الامبراطورية، مؤسساتها وجيشها. وعادة ما تجرى المطابقة بين انهيارها النهائي وسقوط الامبراطورية الغربية: ففي عام ٤٧٦، قام أودواسير، قائد الهيرول، بخلع رومولوس أوجوستولوس في رافينا، ونقلت شارات الامبراطورية إلى القسطنطينية. ولم يكن ذلك غير إجراء شلطي، شهادة وفاة متأخرة ليست أكثر من اعتراف رسمي بما كان قد حدث منذ وقت بعيد. وكما قال فيستيل دو كولانج، فإن "الامبراطورية الرومانية كانت قد ماتت، لكن أحداً

الشكل ٢١
اقتصاد العالم الروماني



لم يؤد تقسيم الإمبراطورية الرومانية في عام ٣٩٥ إلى جزء شرقي وجزء غربي إلى تدمير وحدة اقتصاد العالم الروماني، الذي امتد إلى ما وراء حدود الإمبراطورية في اتجاه الدانوب والبحر الأحمر والمحيط الهندي.

لم يلحظ ذلك" (١٩٣).

على أن الامبراطورية كانت واقعاً اقتصادياً، مثلما كانت واقعاً سياسياً: فهي ساحة يمكن للتجارة أن تحدث فيها، مركزها البحر المتوسط، وتمتد داخلياً عبر طرق تخترق البلدان المتاخمة لها من جميع الجهات. وكانت المنطقة التي سيطرت روما عليها وحفزت تطورها اقتصاد عالم، وحدة متماسكة تغطي مساحة كبيرة من الكوكب. وهذه الوحدة المتماسكة، التي كانت غالباً قطاعاً تابعاً لها، سوف تستمر حتى القرن الثامن أو التاسع على الأقل، أي حتى عهد شارلمان. إذ يبدو أن روما كان مقدراً لها أن تحيا إلى أجل غير مسمى.

وفي هذه المناقشة التاريخية، فإن عمل هنري بيرين، خاصة كتابه محمد وشارلمان (١٩٣٧) يعد مهماً لكونه قد رصد أهمية هذا الاقتصاد العالمي: فقد اشتبه في أن إيقاعاته كانت مهمة، وأدخل منظور الاقتصاد السياسي إلى هذه القرون السديمية، المحصورة بين غزوات البرابرة في القرن الخامس والغزوات الإسلامية في القرون السابع والثامن والتاسع. وحجج بيرين معروفة الآن جيداً. وقبل خمسين سنة، أثارت دهشة المؤرخين؛ فقد رأى أن الفتح الإسلامي كان مهماً بالدرجة الأولى من زاوية الاستيلاء على البحر المتوسط، الذي سيطر الكفار عليه وأغلقوه في وجه الملاحة المسيحية ومن ثم حسموا سقوط الغرب الذي لا علاج له.

وإذا ما صبر القاريء عليّ قليلاً، فسوف يرى إلى أي حد أقبل أو أرفض أطروحة بيرين التي أصبحت الآن موضع خلاف. والحال أن الانتقادات والتحفظات التي أحاطها بها في الماضي مؤرخون مثل مارك بلوخ (١٩٤) أو ايتيان ساب (١٩٥) أو فرانسوا - لوي جانثوف (١٩٦) - الذين ظنوا أنهم قد نسفوا بالفعل "نظرية" بيرين - لا تثبت إلا أن البحر المتوسط لم يكن مغلقاً تماماً خلال تلك القرون، بل وأن بعض الصلات التجارية كانت قائمة بين غاليا وشرقي البحر المتوسط. وما لا يقولونه بما يكفي من الوضوح هو ما إذا كانت تجارة البحر المتوسط قد أخذت تتباطئ أم لا، وإذا كانت قد أخذت تتباطئ فبين أية تواريخ كان ذلك.

وأنا أعتقد أن التجارة قد أخذت تتباطئ بالفعل، وهذا هو المهم في النهاية. إن ما نجده في الواقع هو انحدار بطيء، يمتد على عدة قرون، وهذا الانحدار هو المسئول أساساً عن خراب الامبراطورية الرومانية وانهيارها التدريجي. ودون تبرئة البرابرة بالكامل، إلا أنني أميل إلى التقليل من شأن مسؤوليتهم و، بدرجة ليست أقل،

مسئولية سادة الامبراطورية، التافهين غالباً بالفعل وإن كانت بينهم شخصيات عديدة ذات وزن مثير - ديوكليتيان أو قسطنطين مثلاً. كما أنني لا ألوم المحاربين، من أمثال ستيليكو (٣٥٩ - ٤٠٨) أو آتيوس (٣٩٠ - ٤٥٤)، الذين لعبوا دوراً رائعاً وغير متوقع في الدفاع عن وحدة غاليا. على أن جهود الجميع، الرائعين والتافهين، كان محكوماً عليها بالفشل منذ البداية إلى حد ما.

وإذ أتخذ كنقطة انطلاق لي عام ١٥٠ للميلاد، والذي يمثل بشكل عام ذروة غاليا الرومانية، وكنقطة وصول عام ٩٥٠، والذي يمثل بشكل عام المرحلة المنخفضة للعصر الكارولينجي، فإنني أسمح لنفسي بالتساهل وتخيل اتجاه عام يميل إلى الانحدار المتواصل، منذ عام ١٥٠ إلى عام ٩٥٠، دون أن أدهش بشكل زائد عن الحد حيال واقع أن هذا الانحدار قد استمر نحو ثمانية قرون دون انقطاع - ومن المؤكد أنها القرون الثمانية الأكثر سديمية في تاريخ كل من فرنسا والعالم الغربي.

وأنا لا أزعم أن هذا الاتجاه يتطابق بشكل دقيق مع تدهور بطيء ومتواصل للساحة الاقتصادية التي غطتها غاليا أو حتى للاقتصاد العالمي الذي شكل قاعدة حياة الامبراطورية الرومانية - وهي قاعدة ظلت راسخة بشكل ما على مدار مد التاريخ وجزره. إنني اعتبره، بالأحرى، مؤشراً على اتجاه عام، ربما يكون اقتصاد غاليا، شاغلنا الرئيسي، قد تباين ضمنه، حيث يتحسن أحياناً ضد التيار، وينحدر أحياناً بشكل أسرع من القاعدة العامة، وحيث يؤدي مده وجزره إلى تخفيف أو زيادة حدة آثار الركود العام من حين إلى آخر. ومع أن الشواهد المتاحة غير كافية، كما سوف نرى، إلا أنني أعتقد أنه ربما كان قد حدث قدر من التحسن من عهد كلوفيس (مات في عام ٥١١) إلى عهد داجوير (مات في عام ٦٣٩) ثم مرة أخرى خلال العصر الذي شهد صعود الكارولينجيين من أواخر القرن السابع إلى منتصف القرن التاسع، وهو تحسن تجلّته انحدارات في الفترات الفاصلة بين العصرين. وكل هذا افتراضي وتخطيطي عمومي بالضرورة، ليس المراد به سوى إيجاد إطار تفسيري يتميز بقدر ما من المعقولة.

وهكذا فإن ما نحن بإزائه، في نظري، بالرغم من الصعوبات المؤقتة، إن كانت هذه قد حدثت، هو انحدار طويل الأمد من المرجح أنه قد استمر حتى نحو عام ٩٥٠. ومن ثم فإنني دون أن أتبنى كل رؤى هنري پيرين، التي أجدها دائماً حافزة إلى التفكير، يمكنني مع ذلك ملاقاته في منتصف الطريق.

أنا لا أشاطره، مثلاً، رأيه الذي يذهب إلى أن الوضع برمته كان نتيجة للفتوحات

الإسلامية التي أدت، من القرن السابع فصاعداً، إلى السيطرة على مجمل الملاحة عبر البحر المتوسط، خاصة بعد الاستيلاء على صقلية بموقعها المهيمن على الطرق البحرية من الشرق إلى الغرب (هُوجمت الجزيرة في عام ٨٣١ واحتُلت باليرمو في عام ٨٣١ وسيراكوز في عام ٨٧٨). فهذه السلسلة من الفتوحات - بلاد الشام في عام ٦٣٤، مصر في عام ٦٣٦، إفريقيا الشمالية بين عامي ٦٥٠ و ٧٠٠، إسبانيا في عام ٧١١ وأخيراً صقلية - لم تؤد ببساطة إلى إغلاق البحر المتوسط في وجه الملاحة المسيحية. وبعد ذلك بزمان طويل، سوف يكتب ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) أنه في تلك الأيام البعيدة لم يجرؤ المسيحيون على إنزال لوح خشبي إلى مياه البحر المتوسط، لكن هذه الإشادة الاستراتيجية بأمجاد الإسلام إنما تبدو أشبه ما تكون بالتفاخر الذي لا موجب له. فما الذي كان يمكن للمسلمين أن يصنعوه بالبحر المتوسط إن لم يستغلوا البلدان المسيحية الواقعة على شواطئه؟ الحق إنهم كانوا بحاجة إليها.

وقد جرى تسليط ضوء جديد على هذه الجوانب المحددة للمناقشة عبر عمل إلياس آشتور (١٩٧)، السند إلى وثائق عربية لم تُستخدم من قبل. إذ يبدو أن البحر المتوسط، عندما استولى المسلمون عليه، لم يكن مواراً بالحركة على الإطلاق، بل كان شبه مهجور بالفعل وكان راكداً بقدر ما يتعلق الأمر بسكان سواحله. ومن ثم فإن العامل الرئيسي لم يكن يتمثل في إغلاق البحر المتوسط بحد ذاته، بل في التدهور العام لحياته الاقتصادية. والحال أن هذا الاتجاه طويل الأمد لم ينقلب إلا في القرن التاسع أو العاشر، فآنذاك فقط حدث إحياء للنشاط عبر مجمل البحر المتوسط، أثر على جميع البلدان حول شواطئه، سواء أكانت لاتينية أم يونانية أم إسلامية. وبحلول نحو ٩٧٠ - ٩٨٥، كان الذهب العربي يتدفق على برشلونة (١٩٨). وطبيعي أن وصوله لم يبدل المناخ الاقتصادي. فقد كان مجرد علامة على انقلاب اتجاه طويل دام قروناً وأخذ يتحرك الآن في اتجاه صاعد وفي توفير حافز قوي لمجمل حياة البحر المتوسط وأوروبا.

على أننا لم نقترح بعد أسباباً لهذا الركود الذي دام قروناً عديدة، من شأنها تقديم تفسير مناسب لسيرورة يصعب فهمها في غياب مثل هذه الأسباب (١٩٩). ولا بد لهذا، يوماً ما، من أن يكون مهمة تاريخ عام، إن توفر لنا يوماً ما تاريخ عام كهذا، على غرار الجغرافيا العامة. فالمشكلة هي أنه في العلوم الاجتماعية كما في العلوم الطبيعية، لا بد لكل افتراض، حتى وإن كان جد راسخ، وهو ما لا يتوافر في هذه الحالة، من أن يجد

تفسيراً له هو بدوره وهلم جراً. فالقول بأن الركود الذي عرفته العصور الوسطى الأولى ليس غير انعكاس للتدهور البطيء للاقتصاد العالمي الذي قرر ثروة روما المادية، إنما يعني أن روما كانت واقعاً اقتصادياً، اقتصاداً عالمياً، استمر طويلاً بعد الانهيار السياسي للامبراطورية. لكن الاستمرار يطرح مشكلات ضخمة على المؤرخ! فالواقع أن البنية التحتية الاقتصادية لروما لم يكن جانبها الوحيد الذي استمر بشكل يثير عجبنا. فالمجتمع الروماني قد ترك لقرون طويلة تراث انقسام هيراركي، يجتمع بعالم العبودية المظلم. وماذا عن الثقافة اللاتينية التي استمرت إلى زماننا؟ إن أوروبا برمتها وفرنسا، وهي بلد في قلب أوروبا، ما تزالان مشتبكتين مع تراث روما.

وأنا إذ أنهى قسماً أعرف أنه محل خلاف وجدل، لا بد لي من الاعتراف بأنني منجذب إلى افتراض حديث، وهو افتراض مضيء في رأيي، لأنه إن كان صحيحاً أو حتى شبه صحيح، فسوف يحل جميع مشكلاتنا مرة وإلى الأبد. إن فرانسوا سيجو، المؤرخ وعالم الزراعة، قد رد صعود وحظوظ روما إلى الفتوحات التي أتاحت إمكانية توسيع نظام اللاتيفونديات وعمل العبيد. وهو يرى أن العبودية قد وفرت القوة التي أدارت المحرك الذي أخذ يكتسب القوة شيئاً فشيئاً وأصبح طويل العمر، أي كانت مصدراً متفجراً للقوة إلى أن انتهت حروب الفتح فدخل النظام في أزمة مديدة بشكل بالغ. وإذا كان هذا هو المدخل إلى الإجابة بالفعل، فإنه يصبح من الأسر تفسير جميع مشكلات روما الاقتصادية: فالمسألة هي مسألة نظر في الكيفية التي تماشت بها التجارة والاستثمار التجاري الكبير وأعمال الصرافة والتجار مع نظام ظل راسخاً لزمان طويل قبل تفككه في نهاية المطاف خلال الانحدار البطيء للامبراطورية الرومانية. فهل كان النهوض من جديد، عندما جاء، نتيجة لتأسيس حلسية الأرض؟ إن المناقشة ما تزال مفتوحة.

غاليا الميروفينجية

إذا أخذنا كل الأمور بعين الاعتبار، فسوف نجد أن غاليا الميروفينجية، التي ظهرت إلى الوجود بشكل غير متوقع إلى حد ما، كنتيجة لانتصارات كلوفيس (على سيراغريوس في سواسون في عام ٤٨٦؛ وعلى الآلامان في تولبياك في عام ٤٩٦؛ وعلى القوط الغربيين في فوييه في عام ٥٠٧) لم تمثل بداية من العدم. فalcرون المضطربة التي سبقتها لم تشهد قط، بالرغم من الانحدار الملحوظ، هبوط السكان

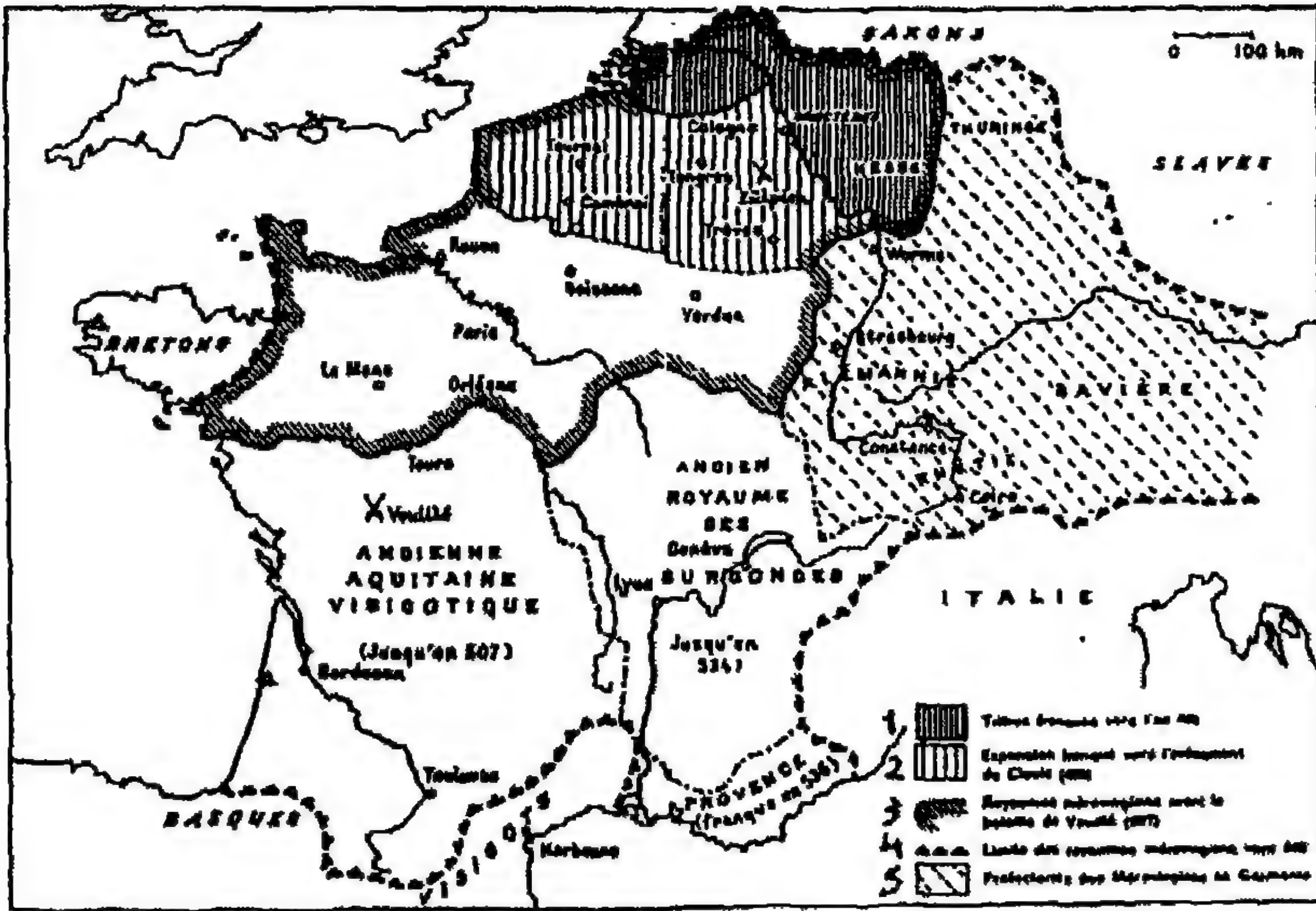
تحت الحد الأدنى للكثافة الضروري لتمكين الحياة البشرية من الاستمرار. ومن المحتمل أن عدد سكان غاليا عند نهاية القرن الخامس كان خمس أو ست ملايين: وهو ما يتيح كثافة، إذا ما اعتبرنا مساحتها عين مساحة غاليا الرومانية، لا تقل إلا قليلاً عن ١٠ أفراد في الكيلو متر المربع الواحد. إلا أن العدد لو كان قد هبط إلى ثلاث ملايين، كما قدره روسيل، بعد الغزوات، فهل كان يمكنهم أن يصمدوا للصدمات التالية، خاصة لوباء الطاعون الدبلي الرهيب القادم من الشرق، والذي انتشر عدة مرات خلال الشطر الأخير من القرن السادس ثم من جديد في أواخر القرن السابع (٢٠٠)؟

وأياً كان الأمر، فقد حدث بالتأكيد هبوط ملحوظ في كثافة الاستيطان، الأمر الذي ربما يفسر السهولة والسرعة النسبيتين للفتح الفرانكي. ثم إن هذا الفتح قد امتد وراء المنطقة الواقعة بين السوم والراين، وهي منطقة تمتع فيها الفرانك، المختلطون الآن بأقوام جرمانية أخرى، بالميزة المزدوجة المتمثلة ليس فقط في الحصول على تعزيزات مستمرة من وراء الراين، وإنما أيضاً، في استيعابهم التدريجي للحضارة الغالية - الرومانية، بما أن الرومان قد وافقوا إلى هذا الحد أو ذاك على السماح لهم بحراسة الحدود. والحال أن تنصر وتعميد كلوفيس على يد القديس ريمي (ربما في كريسماس عام ٤٩٦، وإن كان التاريخ ليس مؤكداً) كان ضربة حظ لهم. وفي حين أن برابرة آخرين في غاليا كانوا قد تحولوا إلى اعتناق الآريوسية، إلا أن كلوفيس والفرانك اختاروا الأرثوذكسية السائدة في غاليا، وسرعان ما بدأت الأرستقراطية العسكرية الحاكمة تتعاون مع النخبة الغالية - الرومانية المدنية والكنسية (٢٠١).

وقد فتح هذا لهم أبواباً كثيرة، وساعدت غاليا القادمين الجدد على الانتصار، خاصة أن الفتح الفرانكي، آخر الغزوات، لم يكن كارثياً بشكل موحد، حتى في الشمال حيث كان الوجود الفرانكي أعظم مما في جنوب اللوار. ومن الناحية العملية، فإنه لا بورجونيا ولا بروفانس، ولا المسيف الأوسط ولا آكيتين، بالرغم من ارتباطها، غير المباشر دائماً، بالـ **Regnum Francorum**، لم تكن في أي وقت من الأوقات مستعمرة استعماراً كثيفاً.

ويتمثل ظرف مؤات آخر في أن الميروفينجيين كانوا قد استولوا أيضاً على بافاريا وتورينجيا على الجانب الجرمانى؛ وفي رسالة إلى الامبراطور في القسطنطينية نحو عام ٦٣١ (٢٠٢)، زعم داجوبير من ثم أن حكمه قد امتد من الأطلسي إلى الدانوب. وقد تمثلت النتيجة على أية حال في أن حدود الراين لم تعد مهددة. وهكذا، فبالرغم من

الشكل ٢٢
التوسع الفرانكي



- 1- القبائل الفرانكية نحو عام ٤٠٠.
- 2- التوسع الفرانكي عند ارتقاء كلوفيس العرش (٤٨٦).
- 3- الممالك الميروفينجية قبل معركة فوييه (٥٠٧).
- 4- حدود الممالك الميروفينجية نحو عام ٥٦٠.
- 5- محميات الميروفينجيين في جرمانيا.

نقلًا عن:

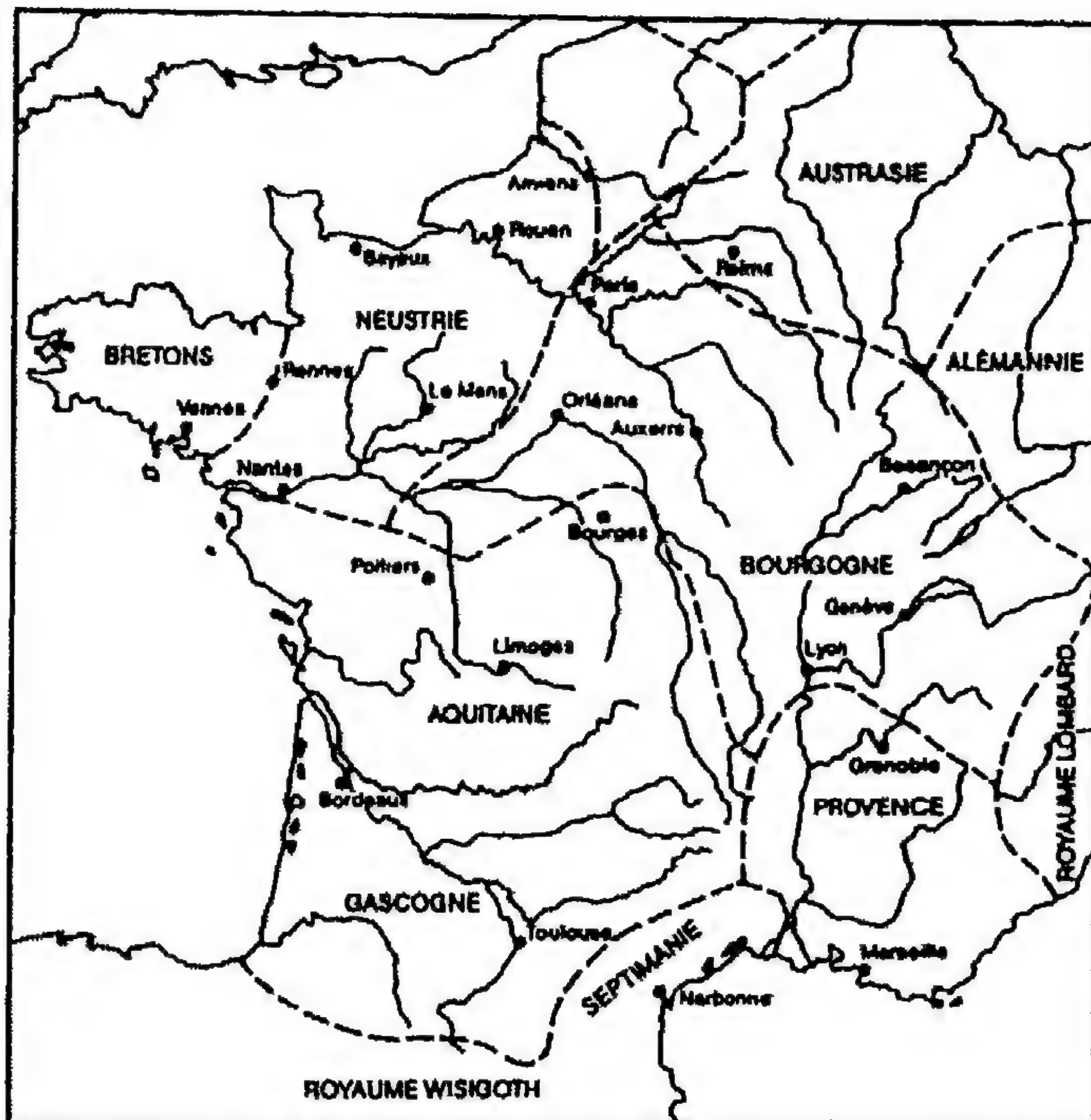
L. Musset, *Les Invasions, les vagues germaniques*.

النزاعات المتواصلة بين أمراء العائلة المالكة، الذين لا يبدو بالمرّة أنهم كانت لديهم أية فكرة عن الدولة أو عن الصالح العام - فبالنسبة لهم، كان الـ **Regnum Francorum**، كما في التراث الجرمانى، مجرد ملكية خاصة يتعين تقسيمها بين الورثة الذكور - بالرغم من هذه المثالب الكبرى واستحالة الحكم التعاونى، كانت الظروف متوافرة أمام البلد لكي يكون قادراً على التنفس من جديد ولكي تستأنف الحياةُ مسيرتها من جديد في جو من السلم النسبى. فقد بدأت السلع والناس في الحركة مرة أخرى. وكانت المدن والبورجات (**vici**)، والريف والفيللات - بعبارة أخرى كل نسيج غاليا الرومانية القديم - ما تزال في مكانها. بل إنه يبدو أن الـ **vici** قد أخذت تتزايد في الأماكن التي تلتقي فيها الطرق والتجارة. وقد ساعدت الأسواق على تداول منتجات المزارع في المدن والقرى المحيطة بالضيق الكبيرة وبالأديرة (٢٠٣). ووفرت الأسواق الكبرى حافزاً للتجارة: وقد أنشأ داجوبير في عام ٦٢٧ سوق سان دينى الكبرى قرب باريس. وأخيراً، عادت النقود إلى التداول؛ وكانت الورش الملكية والخاصة على حد سواء تتولى سك العملة الذهبية. والحق إن هذا ينطبق على جميع الحكام البرابرة في الغرب - أكانوا من الفاندال أم من البورجونيين أم من القوط الشرقيين في إيطاليا أو من القوط الغربيين في إسبانيا - بل إنهم قد دمغوا صور أباطرة بيزنطة على عملاتهم.

وإذا كانت هناك حاجة إلى برهان على بقاء اقتصاد البحر المتوسط، فمن المؤكد أن هذا هو البرهان المطلوب. ثم إن مارسيليا وناربون، بل وبوردو قد ظلت على اتصال بشرقي البحر المتوسط الذي واصل إرسال الفلفل والتوابل وورق البردي والعقاقير الطبية ومنسوجات الحرير، بل وعملات ذهبية بيزنطية. وقد تكشف حطام عُثر عليه مؤخراً في خليج فوس عن سفينة كانت في طريقها إلى الشرق وعليها شحنة من الحبوب السائبة وأمفورات مليئة بالقار وفخاريات مدموغة (٢٠٥). وكان الرخام القادم من الپرانس يُرسَل ليس فقط إلى غاليا الشمالية، لاستخدامه في بناء الكنائس، وإنما أيضاً إلى إسبانيا وإلى القسطنطينية. وكان الـ **Syri**، التجار السوريون واليهود الذين يتكلمون باليونانية، يلتقون في المدن وعلى طول طرق التجارة؛ وكان هؤلاء هم الرجال الذين حفزوا بنشاط تجارة المسافات البعيدة. فهم الرجال الذين كانوا يوفرون للأمراء المنسوجات الحريرية الثمينة والتوابل والعقاقير، أو الذين كانوا يشترون قوالب الذهب والعبيد. وفي عام ٥٨٥، تلقى الملك جونترام، لدى دخوله أورليان، ترحيباً رسمياً من جالية التجار السوريين الذين حيوه بلغتهم. وصحيح أن أورليان كانت ذات موقع خاص؛ فمع باريس، التي

الشكل ٢٣

غالبا في عهد داجوبير



نقلًا عن:

G. Duby, *Histoire de France*

أصبحت العاصمة في عام ٥٠٢، كانت تقع في قلب غاليا، لكن التجار السوريين كانوا موجودين أيضاً في نابون في عام ٥٨٩ (٢٠٦).

ولذا فمن حقنا التحدث عن اقتصاد منفتح على العالم الخارجي، اقتصاد لم يُدرّ ظهره لجاذبيات تجارة البحر المتوسط، لكن ضغوطاً أخرى داخلية وخارجية على حد سواء، كانت تجذبه إلى اتجاه الشمال.

وكانت غاليا الميروفينجية مجزأة منذ البداية نتيجة لاقتسام التركة بين أبناء الحكام، لكن خطوط الانقسام هذه غالباً ما كانت تتطابق مع حقائق موجودة من قبل. وهكذا فإن الخط الحيوي على طول اللوار، أو بالأحرى الحدود العريضة التي يشكلها وادي اللوار، قد أصبحت أكثر وضوحاً. والحال أن هذا الخط الفاصل الذي يرجع إلى الأزمنة الأولى (الليمات الداخلية التي أوضحها بحوث روبير سيكلان التاريخية والجغرافية) قد شطر الفضاء الفرنسي شطرين بشكل أعمق مما في أي وقت مضى (أنظر المجلد الأول، الشكل ٩). فلم يكن لشيء في شمال اللوار أن يكون مماثلاً لشيء في جنوبه. وحتى منتصف القرن الثامن، وصف الفرانك شعب آكيتين بالروماني (٢٠٧).

ولم يكن هذا كل شيء. فإلى الشمال تقع أراضي أوسترازيا (التي يمكن وصفها في شيء من المبالغة بأنها أشبه ما تكون بامتداد لجرمانيا)؛ ونيوستريا (التي تتطابق مع جزء كبير من الحوض الباريسي)؛ وأخيراً آرموريكا، أو كما نسميها بريتانيا، التي استعمرها في القرنين السادس والسابع كلتيون من بريطانيا، خاصة من ويلز. وكان هذا غزواً حقيقياً أدى، إن جاز القول، إلى إعادة كلتة شبه الجزيرة البريتونية لغوياً وإثناً ودينياً: ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، سوف يتمتع الميروفينجيون بحدود غربية ثابتة بشكل أكثر رسوخاً بكثير، وهي حدود سوف تتعين مراقبتها وحراستها بشكل دائم. وفي اتجاه الجنوب، يمكن تمييز أربع مناطق: بوجونيا؛ بروفانس؛ سيطيمانيا، التي يحتلها قوط غربيون قادمون من إسبانيا؛ آكيتين. والحال أن هذه الأخيرة بالإضافة إلى بوجونيا، والتي يمكن للمورفينجيين الوصول إليها بشكل أيسر، كانتا جد حريصتين على صون استقلالهما مهما كان الثمن، وعلى أن تظلا متفرجتين على تاريخ مضطرب كان يدور أساساً، لحسن حظهما، في الشمال.

لكنني سوف أعفيكم من الحديث التفصيلي عن المعارك الدامية بين الأمراء الأشقاء، أو عن النزاعات الوحشية بين فريديجوند وبرونهيلدا، الملكتين المتنافستين اللتين حاربتا إحداهما الأخرى حرباً ضارية - حيث كانت الأولى تتحرك في نيوستريا،

بينما كانت الثانية، وهى على الأرجح شخصية عالية الدرجة، تحكم أوسترازيا. والشيء المهم، بالنسبة لنا، هو أن الشمال العاصف كان، في بادئ الأمر، القسم الأقل ازدهاراً والأكثر بربرية والأقل تحضراً في غاليا. وكان على كل من نيوستريا وأوسترازيا استخدام متعلمين ورجال دين من الجنوب. ومع ذلك فإن الشمال هو الذي سوف يفرض في النهاية أسلوب حياته على مجمل البلد.

وواقع الأمر أن حركة بندقية بطيئة لكنها مؤثرة، يصعب تحديد تاريخ بداياتها، قد رفعت غاليا إلى الميل في اتجاه الشمال، الأمر الذي أبعدا جزئياً عن التأثير المتوسطي. والحق إن هذا الأخير كان قد أخذ يشحب بالفعل. فمرسيليا وآرل قد أخذتا تنحدران في القرن السابع، بينما كانت أقاليم الموز الأدنى والراين - البلدان الواطئة - آخذة في التوسع، وذلك بفضل الصلات التجارية بين الأطلسي وإنجلترا وبحر الشمال وسكاندينافيا والبلطيق. وبينما كان نشاط بولونيا يتضاءل، كان صعود كونيتوفيكوس، عند مصب الكانش، علامة دالة، شأنه في ذلك شأن انتشار العملة الفضية، المميز للتجارة الشمالية، على حساب العملة الذهبية الجنوبية التي أخذت تميل إلى التراجع ثم تلاشت في نهاية المطاف (وتجد هذه السيرة تفسيراً واضحاً لها في مقال ليوبولد جينيكو الذي يرجع إلى عام ١٩٤٧ والذي ما يزال يتمتع بمرجعية قوية) (٢٠٨).

وقد سار التوسع الاقتصادي جنباً إلى جنب مع تطورات أخرى. فالتبشير في الشمال قد صاحب تقدماً اقتصادياً؛ وهناك جرى بناء المزيد من الكنائس ومن الأبرشيات والأديرة - مثل دير لوكسوي الذي أنشأه القديس كولومبان في عام ٥٩٠ ثم تبنى القاعدة البينديكتية في عام ٦٢٠. والخلاصة أنه "ليس من قبيل التهور القول بأن غاليا الشمالية كانت، بحلول القرن السابع، مسرح تجارة نشيطة تماماً وبأنها، بحلول القرن الثامن، كانت من الناحية الاقتصادية الجزء الأكثر ازدهاراً" (٢٠٩) بين أجزاء الممالك الفرنكية. ومع ذلك، فلا يجب لنا رسم صورة جد زاهية لغاليا الميروفينجية. صحيح أن المدن قد عادت إلى الحياة: فقد كانت تبنى كنائس داخل أسوارها وكانت تشهد ظهور الأديرة على مشارفها، لكنها ظلت متواضعة في حجمها ونشاطها على حد سواء. وكان الريف في تلك الأثناء ما يزال تحت نير الضياع الكبيرة القاسي. إلا أنه بحلول ذلك الوقت - وبما يعد علامة واضحة على الانحدار الديموجرافي - كانت هذه الضياع تعاني من نقص حاد في القوة البشرية العاملة (٢١٠). ونحن نعرف بشكل مؤكد أن غابات كثيفة

قد غطت معظم الأرض، ممتدة امتداداً شبه متصل من الألب، عبر الجورا والفوج، إلى ساحات الأردن الشاسعة المليئة بالأحراج، وفي حين أنه كان بوسع البشر وقطعانهم العيش عبر استغلال هذه البرية، إلا أنه صحيح أيضاً أن الغابة لا تسترد الأرض الزراعية إلا إذا هجرها الفلاح. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الزراعة قد انكمشت بوجه عام، قياساً إلى العصر الغالي - الروماني، بحيث إن ما بقي كان عبارة عن "ريف مفكك"، حيث توجد "قرى كانت عبارة عن جيوب كثيرة في مناطق متزعة من الغابات. وكانت الأشجار تهيمن على المشهد الطبيعي" (٢١١). وكانت غالباً غاصة بالأراضي الخربة (٢١٢).

وهكذا، فإنه إذا كانت غالباً تبدو محظوظة فما ذلك إلا بالمقارنة مع القرون الرهيبة التي انقضت. ولا بد للمرء من الاحتراس بعض الشيء من وصف هنري پيرين لها: لقد مال إلى رسم غالباً الميروفينجية في صورة وردية، سعيًا إلى التقليل من شأن العصر الكارولينجي، إذ من المفترض أن الأخير يبرهن عبر انحداره على إغلاق البحر المتوسط وما ترتب على ذلك من ركود اقتصادي. وتتمثل إحدى حججه الممتعة تماماً، وهي حجة ليست عديمة الأهمية، في المقارنة بين الكتابة اليدوية للمخطوطات في العصر الميروفينجي - وهي كتابة متصلة الأحرف وواضحة، قد لا تكون جميلة جداً، لكن من المؤكد أنها نابضة وحيوية - والكتابة الكارولينجية؛ فهذه الأخيرة منتظمة، وحسنة المظهر ودءوبة لكنها تفتنقر إلى أية حركية. وقد استنتج من ذلك أن "الأولى كانت كتابة تجارة وإدارة، بينما كانت الثانية كتابة دراسة" وشغل لوقت الفراغ (٢١٣).

ولا يعتقد الآن أي مؤرخ أن فورة غالباً الميروفينجية النسبية قد دامت إلى ما هو أبعد من منتصف القرن السابع. فبعد عهد داجوبير (٦٢٩ - ٦٣٩)، الذي كان قد تسنى له بعد مسلسل من الحوادث الملكية توحيد غالباً كلها تحت حكمه، أخذت الأمور تسوء، أو بحسب تعبير پير ريشيه، أخذ يظهر "انقلاب تدريجي للاتجاه السائد" (٢١٤). وسوف يستمر الركود حتى نهاية القرن. وإذا كان عليّ أن أختار تاريخاً فسوف أختار تاريخ معركة تريري (٦٨٧) التي رمزت إلى انتصار أوسترازيا وسلالة البيبان، وأنهت بالفعل عهد الملوك "الكسالي"، أو بالأحرى العاجزين، آخر الملوك الميروفينجيين (٢١٥). وهو تاريخ له أهمية سياسية، بل واقتصادية أيضاً، يرمز إلى ما يرجح أنه كان بعثاً مؤقتاً ونسبياً ترافق مع صعود الكارولينجيين.

ولعل أهم جانب للعصر الميروفينجي - والذي يستغرق قرنين من التاريخ الفرنسي

على أية حال - قد تمثل في نهاية الأمر في سيرورة الانصهار بين مجتمعين، الغالي - الروماني والفرانكي، وهي سيرورة بطيئة وغير مثيرة. فقد امتزج هذان المجتمعان " في البلاط، وفي مقار الكونتات والأساقفة وعبر مجمل الريف" (٢١٦). وفي الجبانات، لم يعد بالإمكان تمييز مقابر أحدهما عن مقابر الآخر. وكان هذا الامتزاج التدريجي لثقافتين ولجماعتين سكانييتين علامة لا تُنكر على التقدم. ومما لا مرأى فيه أن المسيحية، التي احتاجت إلى وقت حتى تتغلغل في صفوف جماهير الشعب، لكنها نجحت في ذلك في نهاية المطاف، كانت السمة الرئيسية الأخرى لهذين القرنين، اللذين كانا بوجه عام غير عامرين بالأحداث الجسام.

وفي لعبة المؤرخين الأثيرة هذه، حيث يختارون ما كان أو ما لم يكن مهماً، فإنني أؤثر بلا تردد الأديرة، وسط الغابات، على قصور أو فيلات الملوك.

هل كانت هناك امبراطورية كارولينجية؟

أرجو أن يغفر لي القاريء هذا العنوان الاستفزازي - الذي سوف أشرحه حالاً. فكل ما أريده من وراء هذا العنوان هو لفت الانتباه إلى مشكلة أولية (وإن لم تكن في رأيي المشكلة الرئيسية) تتصل بحظوظ غاليا الكارولينجية.

يجري عادة تمييز غاليا في ظل الكارولينجيين بسلسلة من الأحداث التي تعتبر مهمة: إن الانتصار الأوسترازي في معركة تريري، في عام ٦٨٧، قد أدى إلى توزيع جديد للأدوار؛ وفي عام ٧٣٢ أو ٧٣٣، في معركة پواتيه، نجح شارل مارتل (نحو ٦٨٨ - ٧٤١)، المؤسس الحقيقي للأسرة المالكة الكارولينجية الجديدة، في صد سلاح الفرسان الخفيف للغزاة المسلمين؛ وفي عام ٧٥١، نجح ابنه پيآن القصير، في تمرير انتخابه وتويجه ملكاً؛ وشهدت الفترة من عام ٧٦٨ إلى عام ٨١٤ عهد شارلمان الرائع، الذي ما يزال يأسر مخيلتنا إلى اليوم: وفي كريسماس عام ٨٠٠، نجح في تمرير تويجه امبراطوراً للعالم الغربي. لكن كل ما كان هناك من قوة ومن أمجاد، وهي ليست أساطير، قد تبخر خلال العهد الكارثي لابنه، لويس الورع (٨١٤ - ٨٤٠) - وهو شخصية جذابة من بعض النواحي، حيث أفتتن به ميشليه الذي اعتبره أشبه ما يكون بسلف صالح للقديس لويس [الملك لويس التاسع] - لكن ضعفه وورعه الذي عبر عن نفسه في المكان الخطأ قد جراً كوارث رهيب على امبراطورية كانت ما تزال في مهدها وكان من الصعب الدفاع عنها بالفعل، ناهيك عن تدعيم أركانها. ثم إن

النزاع بين أبناؤه على خلافته، حتى قبل موته، قد أدى إلى خراب وكوارث لا يمكن علاجها، ومن المؤكد أن تقسيم الامبراطورية في فردان لم يعالجها (٢١٧). ومن جهة أخرى، كان النورمان، منذ نحو عشرين سنة، يشنون بالفعل غارات على شواطئ ومصبات أنهار الامبراطورية، بحيوية تتزايد من عام إلى آخر.

على أن الامبراطورية قد استمرت في الوجود، على الأقل بمعنى أن الأباطرة قد واصلوا التتابع على العرش. وهكذا فإن شارل الأصلع (٨٣٨ - ٨٧٧) الذي لم يكن يفتقر إلى العزيمة أو إلى الذكاء، قد ذهب إلى إيطاليا في عام ٨٧٥، عابراً الألب حتى يتم تتويجه امبراطوراً في روما. والمشكلة أنه بمغادرته "فرنسا" قد نسي الخطر الفعلي، وكان عليه أن يسارع بالعودة عبر الألب: وبموجب مرسوم كيرسي - سور - واز (٨٧٧)، اضطر إلى تقديم تنازلات لوجهاء مملكته. على أنه، كما يذكرنا جان دونت، كان قد وُلد "في وقت وفي وسط كانت اليوتوبيا الامبراطورية ما تزال حية فيه وعلى ما يرام" (٢١٨). وهكذا فقد استمرت الامبراطورية بشكل ما في البقاء، لزمان طويل تال: وكما قال چاك مادول (٢١٩)، فإنه حتى إذا "كان الواقع قد أخذ يتلاشى، إلا أن الأسطورة سوف تواصل البقاء لوقت طويل قبل أن تموت". ولم يحدث هذا إلا في اليوم الذي استولى فيه أوتو الأكبر على التاج الذهبي في عام ٩٦٢، خالفاً الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، التي سوف تستمر حتى عام ١٨٠٥. وبعد خمس وعشرين سنة من هذا النقل للشرف الامبراطوري إلى جرمانيا، أصبح هوج كايه، في عام ٩٨٧، ملك فرنسا، مؤسساً أسرة كايه المالكة. والحال أن هذا الحدث، غير المهم في حد ذاته، كان الحلقة الأولى في سلسلة جد طويلة - بما يتناسب مع تعريف "حدث طويل الأجل" (٢٢٠).

ومن هذه القرون الثلاثة، لا شك في أن الفترة الأهم هي العصر الذي هيمنت عليه شخصية شارلمان القوية، ولا مرأى في أن إنجازاته الأكثر إثارة هو تأسيس الامبراطورية الغربية. وأعتقد أنه ربما يجوز لنا استبعاد ملاحظة إرنست كورتيس غير المبررة والتي تذهب إلى أن شارلمان كان "أول ممثل للعالم الحديث" (٢٢١): فالحق إنه أشبه برجل من الماضي، ديوكليتيان متأخر زمنياً، مع مراعاة جميع الفوارق، يحاول إقرار أو إعادة إقرار السلم والأمن في الغرب. وهذه الأيام - ولكن هل هذا عدل؟ - يبدو أنه قد فقد خطوته لدى المؤرخين. وبسبب هذه الآراء السلبية تحديداً تساءلت ما إذا كانت قد وجدت بالفعل في أي وقت من الأوقات امبراطورية كارولينجية. فلنوضح هذه المسألة



- 1- المملكة الكارولينية في عام ٧٦٨.
- 2- الإمبراطورية الكارولينية في عام ٨١٤.
- 3- بلاد محتلة، إلا أنه لم تتم بعد تهديتها، عام ٧٦٨.
- 4- مناطق تابعة: عام ٨١٤.
- 5- مناطق فتحت بين عامي ٧٦٨ و ٨١٤.
- 6- منطقة خاضعة للنفوذ الكاروليني في عام ٨١٤.

قدر الإمكان.

لا شك أن الشاهد الأول الجدير بالإدلاء بشهادته في هذه المحاكمة هو نيكولاس يورجا، لأنه، هذه المرة، لا يتردد في الانخراط في الجدل والمفارقة. فهو يكتب فيقول إن الامبراطورية "لم توجد قط، أكان ذلك من ناحية ترابية أم من ناحية إدارية... ولا يجب أن تضللنا المدن بحامياتها. لقد كان هناك امبراطور إلا أنه لم تكن هناك امبراطورية، وفي حين أنه لا يمكن تصور امبراطورية دون امبراطور، إلا أن من الممكن تماماً تصور امبراطور دون امبراطورية" (٢٢٢). ومن الواضح أننا هنا بإزاء ما هو أكثر من المبالغة، لكن يورجا ليس المؤرخ الوحيد الذي يرفض التأثير بالأسطورة الكارولينجية. إن پيسير بوناسيه (٢٢٣) قد نبذ امبراطورية شارلمان بوصفها "شيئاً مفارقاً للزمن منذ البداية"؛ وقد وصفها روبرت فوسيه بأنها "مبتسرة". أما عن انحذار الامبراطورية فهو يقول إن "خرق ومزق روما التي أعاد الكارولينجيون تركيبها قد تهاوت خرقاً ومزقاً مرة أخرى" (٢٢٤). ثم إن جان دونت، في أكثر الكتب إثارة بحسب علمي حول أوائل العصور الوسطى في أوروبا الغربية، لا يكاد يكون أقل تشاؤماً (٢٢٥). فهو يقول إننا لا يجب أن نتخيل "امبراطورية واسعة ومتماسكة، تحيا في صفاء وأمن". فقد كانت، بالأحرى، "مجبرة، ذات نواة صلبة، وتزايد سلطتها هشاشة على أطرافها الخارجية"، بينما "كان أعداؤها يحتشدون على كل حد من حدودها".

وصحيح أن امبراطورية شارلمان كانت محاصرة من كل جانب، يبحر "البرابرة" الصاحب. وصحيح أنها كانت أبعد ما تكون عن التماسك، إذ كانت تتألف من أجزاء مختلفة ومن شعوب متباينة، بعضها موال وبعضها الآخر غير مبال أو معاد بشكل سافر. ولكن ألم تكن فرنسا بالفعل، في ظل الميروفينجيين، كما في كل عصر، جماع شعوب مختلفة؟ وأوروبا أيضاً، التي حاول الامبراطور الكارولينجي توحيدها في ظله، كانت أيضاً متباينة دائماً بشكل لا يمكن اختزاله. والمشكلة هي أن الهجمات والقتال من كل من داخل وخارج الحدود قد تتابعت الواحدة إثر الأخرى بسرعة. ولم تُعطِ الامبراطورية انطباعاً معيناً بالقوة إلا بين نحو عام ٨٠٠ وعام ٨٤٠، إن كان ذلك قد حدث أصلاً. وبحلول وقت موت شارلمان، كانت الامبراطورية في محنة بالفعل. وبوجه عام، فإذا كان ما نبحت عنه هو إيجاد سلطة امبراطورية، فربما يكون من الأنسب الحديث عن حدث كارولينجي - دام أقل من نصف قرن.

مولد أوروبا؛

مولد وتدعيم الإقطاع

ولكن هل نقتصر على النظر في هذه الفترة القصيرة من التاريخ السياسي؟ وهل يجب التهورين من شأنها في جمل قليلة سريعة؟ صحيح أن الآراء التي أوردناها أعلاه تمس عصباً حساساً، ولكن هل هي عادلة تماماً؟ إن ما تسمى بفرنسا الكارولينجية قد شهدت منذ معركة تريري (٦٨٧) حتى انتخاب هوج كايه (٩٨٧) ثلاثة قرون من التاريخ: فهل لم يحدث شيء ذو أهمية في تلك الفترة؟

الجواب بطبيعة الحال هو أن التجربة الكارولينجية كانت خالقة - أو، إن شئتم، أكدت خلق - كل من الملكوت المسيحي وأوروبا، وهما مصطلحان كانا آنذاك متطابقين كشكلين هندسيين متطابقين.

لقد كانت صدمة پواتيه الحادة حاسمة، أكثر من أساسية، كانت حدثاً رمزياً. ولو أسرفنا بشكل نلوم عليه تلميذاً مبتدئاً يدرس التاريخ لتساءلنا: ألم تكن الحرب الصليبية الفعلية الأولى، الصدام الفعلي الأول {مع الإسلام} الذي كانت له أصداء قوية؟ والحال أن المسيحية، بعد أن أزالها الإسلام جزئياً من البحر المتوسط، قد انتشرت في الشمال وفي شرقي أوروبا: إن القديس بونيفاس وجيوش شارلمان قد حولت جرمانيا إلى المسيحية، ووضعتها تحت جناح أوروبا. وفي الأزمة الميروفينجية، لم تكن جرمانيا مرتبطة بغاليا إلى هذا الحد، لم تكن متحدة معها بهذه الدرجة من الحميمة. ولعل غالباً تكون قد ضاعت في ثوب فضفاض عبر الفتوحات الكارولينجية - الـ *dilatatio regni* - وسمحت للعدو بالتسلل عبر بوابتها. فمن المؤكد أنها قد وجدت نفسها مطوقة، محاصرة بنوع من عالم ثالث جهة الشرق. لكن قليلين هم الذين يمكنهم إنكار أهمية هذا التقارب الأول، وإن لم يكن الناجز، بين مختلف الأجزاء التي تُكوّن أوروبا. والحال أن الكارولينجيين لم يحققوا فقط مولد أوروبا، بل حققوا أيضاً مولد الإقطاع، أي مولد كل ما ينطوي عليه المصطلح من تنوع وانقسام وتجزؤ وتعددية. والحق إنه منذ الأزمة الميروفينجية كانت الدولة مضطرة، متى كان يعوزها المال، إلى مكافأة من يقدمون الخدمات التي تحتاجها بمنح أراض لهم، وهي عملة ثقيلة وغير مناسبة، كان يتعين اقتطاعها من الأراضي "الأميرية" السابقة (٢٢٦) أو توفيرها عبر اقتطاع شرائح كبيرة من الأراضي الملكية. والحال أن ما أخطأ فيه الميروفينجيون هو السماح بأن تصبح هذه الأراضي الموزعة وراثية، الأمر الذي أدى إلى خرابهم. إلا أنه فور

انتهاء معركة ترترى، اتجه الكارولينجيون، من أجل تعزيز مواقعهم، إلى تشجيع أوسع لهذا التطور، بينما حاولوا السيطرة عليه بشكل أكثر حزمًا. ومن المؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك بيد رخوة؛ لقد غيروا كونتاتهم بالسرعة التي نغير بها الآن مديري الشرطة (٢٢٧). وقد ملأوا الهيراركية الكنسية بحلفائهم. وقام شارل مارتل بتوزيع ثروة الكنيسة الضخمة بالشكل الذي ارتآه، بذريعة (أو أحياناً دون ذريعة) النضال ضد الإسلام. وكانت أراضي الكنيسة تُصَادَرُ ثم تُسَلَّمُ إلى المستفيدين الذين أصبحوا - كمقابل تافه نوعاً ما - أتباعاً للكنيسة.

ومما لا مرأى فيه أن الحكام الكارولينجيين الأوائل الثلاثة، شارل مارتل وبيبان القصير وشارلمان، كانوا رجالاً رائعين يتميزون بحيوية عالية. فهم لم يترددوا في استرداد الأراضي: فمنذ تلك اللحظة فصاعداً لن تُمنح الأرض إلا لمدة حياة المستفيد بها (أي كأرض "انتفاع"، بحسب مصطلح يرجع إلى فترة تالية)، وليس بصفة توريثية. وكانت الـ *missi dominici* تراقب الكونتات الذين كانوا الممثلين الرئيسيين للسلطة الملكية: ومن وقت إلى آخر، كان يجري نقلهم إلى كونتيات أخرى سعياً إلى تجنب قيامهم بتوسيع ممتلكاتهم في منطقة معينة والتحصن فيها. كما أنه كان بالإمكان سحب مثل هذه "الإنعامات" الممنوحة (٢٢٨). ثم إن الكارولينجيين قد صاغوا أيضاً وطبقوا هيراركية اجتماعية: إن الأنصار والأتباع كانوا يرتبطون بالملك ارتباطاً مباشراً عن طريق أداء يمين الولاء. وقد امتدت عرى الارتباط هذه حتى الأحرار، الذين كان عليهم كلهم أن يخدموا في جيش الملك على حسابهم: فالأثرياء كانوا يشكلون سلاح الفرسان الخفيف، في حين أن الأكثر ثراءً من الجميع كانوا يشكلون سلاح الفرسان الثقيل والذي يتألف من ألفي أو ثلاث آلاف فارس، مجهزين بسروج وبركابات، وهي مستحدثات تقنية "جعلت منهم أقوى قوة مقاتلة في أوروبا" (٢٢٩).

لكن الهيكل كان هشاً: فقد اعتمد البنيان برمته من أعلى إلى أسفل على سلطة الملك. وعند موت شارلمان، بدأت الصدوع في الظهور. وفي عهد لويس الورع، بدأت المتاعب الخطيرة، وبعد عهده، انحدرت الأمور من سيء إلى أسوأ. وهكذا، ففي عام ٨٤٣ في اجتماع كولين الشرعي في "فرنسا"، تقرر أن "الملك لا يمكنه استرداد أرض انتفاع على هواه أو وهو تحت تأثير غادرٍ أو بسبب جشعٍ جائر" (٢٣٠). وحدثت عودة إلى الممارسة الميروفينجية الخطيرة حيث أخذ الملوك يمنحون الأراضي الأميرية والملكية بشكل بالغ الإسراف. و"بحلول عام ٨٨٠، لم يبق من هذه الأراضي

شيء تقريباً" (٢٣١).

إلا أنه ما من حاجة هناك إلى الاستفاضة في الحديث عن التدهور المعروف للدولة الكارولينجية. وبحلول زمن نهايتها، كان الإقطاع قد استقر بشكل راسخ. وسوف نتاح لنا الفرصة قريباً لمعاودة الالتقاء به.

غزوات البرابرة الأخيرة

يبدو أن هذا الانحطاط "الداخلي" النابع من قلب البنيان الكارولينجي كان مسئولاً عن انهياره بعد عام ٨٤٠ أو عام ٨٥٠ بدرجة أكبر بكثير من مسئولية غزوات البرابرة الأخيرة - وهي ظواهر "خارجية" أثرت على مجمل أوروبا الغربية وأعتبرها نتائج أو علامات للأزمة بأكثر مما أعتبرها أسباباً مساعدة. ولا يجب لنا أن نعطي أهمية أكبر من اللازم للدور الذي لعبته الغزوات، أكانت غزوات النورمان أم الآفار أم الماغيار (المجريين) أم الساراسينيين.

وكان مصطلح "الساراسينيين" يشير إلى جميع المسلمين والعرب، بمن في ذلك مسلمي وعرب إفريقية، تونس الحالية، نقطة انطلاق فتح صقلية والغارات على السواحل المسيحية في غربي البحر المتوسط. وقد ألحق الساراسينيون بإيطاليا كوارث ذات مقاييس مختلفة تماماً عن الكوارث التي حدثت في غالبا. كما لا يجب أن نبالغ في قياس شرور القراصنة والمغامرين الساراسينيين الذين كانوا يتمتعون بمعقل في لاجارد - فرينيه على ساحل پروفانس، غير بعيد عن خليج سان تروبيه.

وكان الآفار والماغيار فرساناً من آسيا الوسطى. وقد أجهز شارلمان على الآفار في عام ٧٧٩، ولا حاجة بنا للاهتمام بهم هنا. لكن الماغيار كانوا على مدار سنوات كثيرة يتغلغلون في أعماق فرنسا في حملات نهب حيث تركوا ذكريات مريعة. وقد تم ردهم على أعقابهم في نهاية الأمر وبشكل حاسم إلى ما هو الآن بلاد المجر، نتيجة للانتصار الرئيسي الذي أحرزه عليهم أوتو الأكبر في العاشر من أغسطس/ آب ٩٥٥ في معركة ليشفيلد.

وكان النورمان يمثلون خطراً أكبر بكثير على كل من أوروبا وفرنسا. ففي انقضاضهم في سفنهم الطويلة وجهوا ضربات جسيمة إلى المواقع الهشة على الساحل الطويل للبر الأوروبي وصعدوا الأنهار لمهاجمة مدن داخلية مثل رومان وماننت اللتين تعرضتا للنهب. أما باريس، التي حوصرت في أعوام ٨٨٥ - ٨٨٧، فلم تنقذها إلا

المقاومة الجسورة التي نظمها أود، **dux Francorum**، ابن روبير القوي، أحد أحفاد آل كاييه. كما هُجمت بوجونيا، بل إن كليرمون، في قلب أوفرنيا، قد نُهبت ودُمّرت وأُحرقت ثلاث مرات (٢٣٢)، حيث نجح المهاجمون في الوصول إليها عبر اللوار والآليه.

فهل هذه الغارات المدمرة هي التفسير الحقيقي لانحدار الكارولينجين؟ لم يعد المؤرخون يعتقدون ذلك، تماماً مثلما "دفننا الأسطورة المتصلة بـ «الانقسام» في العالم القديم على أثر احتلالات البرابرة في القرن الخامس"، بحسب تعبير پول رولان (٢٣٣). وتتقاسم آن لومبار - چوردان هذا الرأي، مشيرةً إلى أن الغارات وأعمال التدمير "لم تؤد قط إلى وقف التجارة" (٢٣٤). بل إن چاكوب فان كلايرين يعتقد أن النهب الذي قام به النورمان قد أدى عملياً إلى إعادة تداول المعادن الثمينة التي كانت الكنائس والأديرة تحتفظها، الأمر الذي أدى إلى إنعاش الاقتصاد الغربي (٢٣٥). وكان النورمان قد حصلوا بالفعل، على أية حال، على معادن ثمينة قبل مجيئهم إلى الغرب، وذلك بفضل التجارة مع ما سوف تصبح فيما بعد روسيا.

وتتماشى هذه الأطروحة مع الأطروحة التي قدمها موريس لومبار (٢٣٦) حول الفتح الإسلامي، والتي تذهب إلى أن هذا الفتح قد ساعد على تداول "كنوز" الشرق الأوسط، الأمر الذي بث حياة وحيوية جديدتين في اقتصاد البحر المتوسط. والحق إن المناخ الاقتصادي العام هو الذي يحدد الإيقاع، وهو الذي يخلق ويوجد ثم يستخدم عملته، كلما تطلب الأمر ذلك.

الاقتصاد والسكان

في عودتي إلى المنظور الطويل الأجل، أود أن أنظر إلى غاليا الكارولينجية بالشكل الذي نظرت به إلى غاليا الميروفينجية. فأنا أعتقد أنها قد تأثرت بحركة طويلة الأجل، حركة صاعدة ومفيدة منذ أواخر القرن السابع حتى أعوام ٨٤٠ - ٨٥٠ تقريباً عندما انقلبت إلى اتجاه هابط، أسرع حركة كالعادة من الاتجاه الصاعد، منذ عام ٨٥٠ إلى عام ٩٥٠ تقريباً. وفي هذا الانحدار، يرصد ميشيل روش "سلسلة من الأزمات المتعددة الوجوه؛ إن دورة [الكلمة كلمته والتشديد من عندي] جديدة للانحطاط يبدو أنها تبدأ" (٢٣٧).

وقد يعترض معترض فيقول إن هذا نوع من النقاش لا يمكن أن يتم إلا عبر

افتراضات. لكننا هذه المرة نحوز وثائق أفضل من الوثائق التي نحوزها بشأن الميروفينجيين. وقد سبقنا جان دونت في استكشاف الساحة، ومن ثم يمكننا المغامرة بدخولها دون مجازفات كبيرة. ومن شأن الحجج التي جمعها أن تقودنا تقريباً - وإن لم يكن تماماً - إلى الاستنتاجات التي توصل إليها هو نفسه.

فلننظر في الحجج بالترتيب:

١ - باديء ذي بدء، يجب للمرء أن يستبعد الصورة التي غالباً ما طُرحت في الماضي عن غالباً في ظل الكارولينجيين على أنها تتكون أساساً من وحدات ترابية محدودة، من جزر مكتفية ذاتياً محبوسة ضمن "الغابات المتوسعة توسعاً ضخماً والأراضي الياب والبور والمستنقعات التي تجتاح كل شيء" (٢٣٨)، ومن ثم كان محكوماً عليها بالاكتهاء الذاتي. والحق إن الإدارة الكارولينية قد حثت المسؤولين عن الفيللات الملكية على "التأكد قدر الإمكان من عدم نشوء ضرورة لطلب أو لشراء أي شيء من خارجها" (٢٣٩). لكن هذا لا يعني أن الفيللات لم تنتج فوائض ولا أنها لم تبع مثل هذه الفوائض في السوق. والواقع أن البلد كله - المدن، الحصون، البورجات، بل والقرى - كان غاصاً بالأسواق، وهو ما تشهد عليه الوثائق بشكل وفير (٢٤٠). وفي إحدى الوثائق (٢٤١)، وهي وثيقة تحمل تاريخ عام ٨٦٤، نقرأ ما يلي: "يتعين على السلطات، في المدن والقرى، أن تراقب الأشخاص الذين يبيعون الخبز الفاخر أو اللحوم أو الأنبذة في السوق، وذلك للتأكد من عدم غشهم لها أو غش المشتري".

وهذه الأسواق المحلية، الموجودة في كل مكان، لم تستبعد تجارة المسافات البعيدة المستندة إلى المدن والأسواق الكبرى والموانئ، والتي كان أنشطها في الشمال، من كويتوفيكوس على الكانش إلى دورستد في فريزيا. وكان هذا النشاط قصير العمر في بعض الحالات: فقد نمت بعض الموانئ في القرن الثامن لكنها سرعان ما زالت تماماً بحلول القرن العاشر "بحيث إننا لسنا متأكدين الآن أين كانت" (٢٤٢). لكن ازدهارها الملحوظ كان علامة على أن اقتصاد غالباً كان ما يزال منتعشاً، وقد عزز التحول الشمالي للتجارة والذي كان قد بدأ في ظل الميروفينجيين، بما في ذلك بعض التبادلات المرتبطة باختراقات النورمان، والتي لم تكن كلها مكرسة كلياً للنهب. وعبر جميع أرجاء غالباً، كان يجري نقل الحبوب والملح والأخشاب والسلع الترفية، بما في ذلك التوابل، على مسافات طويلة. ولا بد من أن يكون واضحاً تماماً أنه ما كان يمكن

لأي اقتصاد مهما كان حجمه أن يواصل الحياة في ظل نظام الاكتفاء الذاتي القاتل . ومن الحماسة بشكل سافر الحديث عن غاليا الكارولينجية كما لو كانت راكدة، مكونة من وحدات صغيرة معزولة، في حين أنها كانت غاصة بالمتجولين وبالعواظ المتنقلين، وبالرهبان الذين كان على الأديرة الأفقر استبعادهم، وبالأحلاس المتمردين - لأن التمرد الفلاحي كان ما يزال يدمدم -، وبالحجاج وبالجنود وبالتجار . " لقد كان المجتمع الكارولينجي قائماً، بشكل حرفي، على سكان متحركين " (٢٤٣).

ودعونا نضيف، استكمالاً للصورة، أن العملة الذهبية قد اختفت نحو عام ٧٠٠، لكننا يجب أن نتذكر أن العملة الفضية قد حلت محلها اعتباراً من ذلك الزمن فصاعداً، وكان يجري تداولها، كما بين دونت، بكميات أعظم بكثير مما كان يُظن في وقت من الأوقات: " لقد كان يتعين حسابها بملايين العملات وليس بعشرات الآلاف " (٢٤٤). وأخيراً، كان هناك التجار؛ لا مرء في أن الـ Syri كانوا قد اختفوا، إلا أنه بقي هناك اليهود الذين كانت لهم جاليات نشيطة في آرل ونيم وماينس (مركز تجارة الحبوب) أو فردان التي تخصصت في التجارة في العبيد من البلدان السلافية والذين كان يجري تصديرهم إلى إسبانيا المسلمة. وكانت الامبراطورية البيزنطية مغلقة أمام هؤلاء التجار اليهود لكنهم تجاوزوها عبر مصر وبلاد الشام وكان بالإمكان رؤيتهم في مناطق نائية كالهند والصين. وإلى جانبهم ظهر تجار جدد: إيطاليون وفريزيانيون وسكاندينافيون (٢٤٥). فهل من العجب أن تجاراً نورمانيين قد ظهوروا في باريس بعد حصار ٨٨٥ - ٨٨٧؟

٢ - كانت غاليا في ظل شارلمان، بشكل عام، مزدحمة بالسكان ازدحامها بهم في ظل الميروفينجيين. بل إن السكان ربما كانوا قد ازدادوا عدداً بشكل ملحوظ بين القرن الثامن ومنتصف القرن التاسع؛ فسكان الجبال قد هبطوا إلى السهول، مع توسيع المناطق المنتزعة من الغابات والذي تحدث عنه الوثائق (٢٤٦)، ثم وصل إلى الجنوب الغربي الـ Mozarabes [نصارى الأندلس] الذين أدى الفتح الإسلامي المفاجيء في عام ٧١١ إلى طردهم من إسبانيا. وتشير سجلات (٢٤٨) أديرة سان - جرمان - دي - پريه وسان برتان وسان ريمي إلى كثافات تُعادل ٥٠ شخصاً في الكيلو متر المربع الواحد - في ما كان بالطبع أرضاً خصبة. وصحيح بالمثل أنه كانت ما تزال هناك كثرة من الأقاليم الفقيرة، ومن الـ salti - البريات غير المسكونة.

أما فيما يتعلق بحجم السكان، فقد تكهن به المؤرخون استناداً إلى وثائق قليلة

العدد لكنها موحية . وأنا أميل إلى رفض الأرقام التي قدمها ج . ك . روسيل (٢٤٩) (خمسة ملايين في منتصف القرن التاسع) لكونها منخفضة تماماً بشكل واضح : لابد أن الكثافة كانت منخفضة بما يكفي لفتح السبيل أمام الغزاة، إلا أنه لابد أنها كانت مرتفعة بما يكفي للسماح بنوع النشاط الذي أشرنا إليه بسرعة بالفعل . ومع كل الاحتياطات المعتادة، دعونا نفترض أن امبراطورية شارلمان (نحو ٠٠٠, ٢٠٠, ١ كيلو متر مربع) ربما تكون قد ضمت ما بين ١٥ و ١٨ مليون نسمة؛ ولذا فمن المحتمل أن سكان غاليا (نحو نصف مساحة الامبراطورية، إذا ما حسبناها ضمن حدودها القديمة) كانوا يتراوحون بين ٧, ٥ و ٩ ملايين نسمة . وهذا هو الرقم الذي طرحه منذ زمن طويل كارل جوليوس بيلوك؛ أكثر من ٨ مليون، أو أقل قليلاً من عدد سكان غاليا الرومانية في ذروة ازدهارها (٢٥٠).

وهناك شيء واحد مؤكد؛ إن المؤرخين يجمعون اليوم - وهذا هو الشيء الأساسي - على أنه قد "حدث توقف في الزيادة الديموجرافية بعد عام ٨٤٠، ومن المرجح أن هذا التوقف قد استمر حتى عام ٩٥٠" (٢٥١)، وذلك بسبب انكماش حجم السكان الفلاحين، الذين كان يجري دفعهم بشكل أكثر قسراً من ذي قبل إلى الحليسية . فما كان يمثل حرية وتحسيناً لأحوال العبيد كان يعني تدهوراً لا يحتمل لأحوال الأحرار، الذين من المرجح أنهم كانوا ما يزالون يشكلون غالبية السكان الريفيين .

٣ - تتصل المناقشة الأكثر إثارة بتاريخ النقود . وقد شرع جان دونت في دراسة هذا الموضوع باستفاضة كبيرة؛ وسوف ألخص حجته، مُدرجاً إياها في لغة الاقتصادات العالمية المستخدمة اليوم (٢٥٢)، والتي لم تكن متاحة لأستاذنا الذي رحل عن عالمنا في عام ١٩٥٧ . وأنا لا أعتقد أن هذا التبسيط لفكرته يشوهها بشكل جوهري .

لذا دعونا نتخيل دائرة، توجد في داخلها الامبراطورية البيزنطية، بالإضافة إلى بلاد الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية . لقد كانت هذه المنطقة في القرن التاسع المكان الذي كانت فيه العملات الذهبية هي القاعدة . وخارج هذه الدائرة يجب أن نضع فارس، وروسيا في ظل الفاريج وسكاندينافيا وغاليا الكارولينجية، بالإضافة إلى إسبانيا المسلمة وإفريقيا الشمالية - جميع البلدان التي كانت العملة الفضية هي القاعدة فيها . وهذا التصنيف يكشف لكم ثلاثة أشياء :

(أ) لقد كان الإسلام منقسماً، وهو أمر غالباً ما ينساه الناس .

(ب) في قلب الاقتصاد العالمي، كانت القوة الاقتصادية موزعة بين منطقتين،

الامبراطورية البيزنطية من ناحية، والإسلام الشرقي، حول البحر المتوسط، من ناحية أخرى، لأن بيزنطة، التي لم تكن تملك غير قدر قليل من الذهب، كانت تعتمد على الإسلام في إنتاج المعادن الثمينة. ولم يكن هذا الوضع مختلفاً عن الوضع الذي سوف ينشأ فيما بعد في أوروبا الحديثة، عندما زودت إسبانيا العالم بالذهب والفضة من أمريكا عبر موانئ إشبيلية وكاديز.

(ج) في القرن التاسع، كانت هذه الثنائية في المركز مصدر ضعف لكل من الإسلام وبيزنطة.

ومن الواضح تماماً أن هذا التصوير العمومي يُغفل ويدع جانباً الكثير من الحقائق والمعلومات المعروفة، فهو يستهدف استخلاص رؤية إجمالية واضحة. ولذا فلم أذكر مثلاً أن عالم الإسلام، بدنانيره الذهبية ودراهمه الفضية، كان ثنائي المعدن؛ كما أنني لم أشر إلى أنه في المنطقة التي يهيمن عليها الذهب، كانت الفضة ما تزال متداولة، ولكن على شكل قوالب أو حتى عملات صغيرة؛ وأن الكارولينجيين، بحلول نهاية القرن التاسع، كانوا يؤدون للنورمان جزية ذهبية سعياً إلى إبقاء غاراتهم؛ باختصار، أنه كان هناك قدر من التداخل المستمر بين الذهب والفضة، حيث كان المعدل (خاصة في الأزمنة المتأخرة) جزءاً واحداً من الذهب مقابل ١٢ جزءاً من الفضة، مع تساوي الوزن.

والآن أود أن أستخدم معياراً فجاً لكنه جدير بالثقة. ففي أي جزء من اقتصاد عالمي (أي، مجموعة من الاقتصادات المرتبطة فيما بينها والمؤثرة أحدها على الآخر) يهيمن فيه الذهب، لا بد من أن يوجد أيضاً مركز، هو المنطقة المهيمنة على الكل. إننا ندهش لغارات الفاريج - وهم نورمان - عبر قلب روسيا الشاسع، حيث أسسوا كيف في طريقهم إلى البحر الأسود والقسطنطينية وعالم الإسلام. لكن الطريق كان يمضي في الاتجاه المعاكس أيضاً. فآلاف العملات الإسلامية (أكثر من مائتي ألف) والتي عثر عليها الأركيولوجيون في روسيا وسكاندينافيا إنما ترسم طريقاً يكشف عن الاتصال الأغرب (لأنه الأكثر بطولية) في ذلك الزمن البعيد، فهو اتصال يجتاز مجمل البرزخ الروسي من البحر الأسود إلى السويد. وإذا كانت الآلاف من هذه العملات قد جرى الاحتفاظ بها في شكلها الأصلي في الشمال فإن ذلك إنما يرجع إلى أن هذه البلدان، خلافاً للغرب، لم تكن تحوز ورشاً لصهر العملات وإعادة سبكها (٢٥٣). على أننا يجب أن نلاحظ أن هذا "الأثر" من العملات، والذي أشار إليه بيرين، لا يتألف من الذهب.

فالمسلمون كانوا يُصدِّرون العملة الفضية لدفع ثمن مشترياتهم في الخارج من أقاليم كانت ما تزال متخلفة. وإذا كان الذهب يشير إلى السيطرة فإن الفضة تشير إلى اقتصاد هامشي أو مسود. والبرهان على هذا الكلام، إن كانت هناك حاجة إلى برهان، هو حالة إسبانيا في ظل الأمويين - وهي أشبه بغرب أقصى إسلامي: فما أن تسنى لها الحصول على بودة الذهب من السودان في القرن العاشر، والانتقال من العملة الفضية إلى العملة الذهبية، حتى أصبحت بين عشية وضحاها القوة المسيطرة داخل الإسلام. أو، وهذا مثال أفضل بكثير، عندما جرى استئناف سبك العملات الذهبية في الغرب (في جنوه في عام ١٢٥٠ وفي فلورنسا بعد ذلك بعام واحد)، رمَزَ هذا إلى لحظة درامية أكد فيها الملكوت المسيحي تفوقه المادي على الاقتصاد العالمي المحيط به والذي أصبح هذا الملكوت مركزاً له.

وبوسعكم أن تخمنوا إلى أين تقودكم هذه الملاحظات. فإذا كانت غالبا الكارولينجية قد خرجت، نحو عام ٧٠٠، من منطقة الذهب التي كانت غالبا الميروفينجية قد ارتبطت بها، فما ذلك إلا لأنها كانت قد أصبحت أكثرها هامشية. بل ألم تكن تدفع ثمن اتصالها بالاقتصادات المسيطرة عن طريق تصدير المواد الغذائية والأخشاب والعييد؟ وتصدير هؤلاء الأخيرين هو بالفعل علاقة دامغة، فهو سمة للتخلف لا للحضارة، بالمقارنة مع بيزنطة أو الإسلام.

وربما جاز لنا أن نلاحظ أيضاً أن العملات الذهبية الإسلامية لا تُوجد في غالبا بعد عام ٨٧٠، وأن "العملات الذهبية العربية القليلة التي عُثر عليها مؤخراً في أعمال التنقيب يبدو أنها دُفنت نحو عام ٨٤٠" (٢٥٤). وقد لا يكون ذلك حجة جد قوية، لكنه يظل مع ذلك حجة تؤكد الانقلاب الذي حدث في منتصف القرن التاسع في الاتجاه السائد. ويلفت جان دونت انتباهنا إلى الدنانير الفضية التي زاد وزنها زيادة طفيفة في القرن التاسع (بما يشكل علامة على انخفاض قيمة الفضة) وخاصة إلى حقيقة أن عملات من فئة نصف الدينار ومن فئة ربع الدينار قد سُكَّت، إلا أنه ربما يكون قد أخطأ في رأيه الذي يذهب إلى أن هذه التجزئة للعملة قد جعلت اقتصاد السوق أقرب إلى الانتاج والاستهلاك الشعبيين، فقد كتب يقول: "إن الثورة الاقتصادية الحقيقية إنما تكمن هنا لا في أي موضع آخر: صحيح أن التجارة الكبيرة والعلاقات الاقتصادية بعيدة المسافات مهمة، لكن الشيء الأكثر أهمية ألف مرة هو إدخال ملايين المستهلكين والمنتجين في دائرة السوق. تلك هي السمة الحاسمة الكبرى، الثورة الاقتصادية الكبرى

التي تضع العصر الكارولينجي بشكل راسخ على عتبة العالم الاقتصادي الحديث! فم منذ ذلك الحين فصاعداً، أخذ كبار وصغار المنتجين على حد سواء يبيعون، وأخذ كبار وصغار المستهلكين يشترون" (٢٥٥). ولكن ألم تكن تلك هي الحالة دائماً منذ البداية، بمجرد وجود الأسواق أصلاً؟ وإذا كان مثل هذا التقدم قد حدث، فلا بد أن ذلك قد جرى خلال فترة كانت فيها "البنية الفوقية" الاقتصادية ضعيفة بشكل ما - وهو شيء ليس مستحيلاً من الناحية النظرية، بل إنه معقول. وعندئذ يمكن تحسّس ندرة العمال، ومن ثم يتعين علينا إدخال تغيير على تفسيراتنا إلى حد ما. فالمتاعب في قمة الاقتصاد سوف تتحول، إن لم يكن بالضبط إلى نعمة بالنسبة للقاعدة، فإلى ظروف أفضل على أية حال، ولكي نتأكد ما إذا كان الأمر قد حدث على هذا النحو أم لا، لا بد لنا من أن نعرف مدى سرعة تداول النقود وفي أي اتجاه تحركت الأسعار، وأشياء أخرى كثيرة من غير المحتمل أن نكتشفها في أي وقت من الأوقات. لكن المهم على الأقل هو القدرة على طرح مثل هذه الأسئلة.

الدورات تنقلب

الخلاصة أن دورة جد طويلة كانت آخذة في الانقلاب بعد ذروة عام ٨٥٠. وسوف يواصل الاتجاه الهبوط حتى زمن الإحياء الواسع بعد عام ١٠٠٠. وبالطبع، فإن الدورة التي أندفع في تحديدها إنما يتوجب تفسيرها هي نفسها. فنحو عام ١١٠٠، أو قبل ذلك قليلاً أو بعده قليلاً، بدأ الاقتصاد الغربي في الصعود، وهو صعود دام قروناً. وهذا انقلاب في الاتجاه. والحال أن كل تحول متواصل في الاتجاه إنما يطرح مشكلات كثيرة فيما يتعلق بأسبابه وبتأثيره - وأنا أقول الأسباب والنتائج لأننا لا يمكننا تصنيف السيرورات الجارية في واحدة أو أخرى من هاتين الفئتين بشكل حصري.

وقد حدث الصعود، نحو عام ١١٠٠، في ظل الإحياء، والنمو الاقتصادي العام، وتدهور الدولة، وانهيار المجتمع القديم الذي كان قد خسر هياكله. فهل كان الإحياء أيضاً انتقالاً موسعاً إلى حلسية استغرقت زمناً طويلاً حتى تتطور وحتى توفر دافعاً جديداً لانطلاق الحياة الاقتصادية التي أصابها الركود لزمناً طويلاً؟ هل أدى هذا إلى تجديد الانتاج وحفزه؟ ليس من المبالغة اختتام كلامنا هنا بهذا الافتراض.

الفصل الثاني السكان من القرن العاشر إلى أيامنا

'هناك أشياء نعرفها
وأشياء يمكننا افتراضها'
جان دونت (١)

يهدف هذا الفصل إلى تقديم توضيح، تفسير، إن كان ذلك ممكناً أصلاً، للمسيرة الطويلة لتاريخ بلدنا على مدار نحو عشرة قرون. وحتى لو اعتمدنا منظورات الأجل الطويل المريحة والاصطفائية، فسوف يظل هذا المشروع مع ذلك أشبه ما يكون بمقامرة، مشحونة بالمجازفات. لكنها مجازفات تستحق الإقدام عليها تماماً. وعلى مدار مجمل هذه المساحة الزمنية، لم يحدث غير انحدار واحد وحيد استثنائي في أعداد السكان، وهو انحدار ملحوظ لدى أول نظرة، فهو بمثابة "هيروشيما" بحسب تعبير جي بوا (٢)؛ الانحدار الرهيب ليس فقط للسكان الفرنسيين وإنما أيضاً للسكان الأوروبيين عموماً بين عامي ١٣٥٠ و ١٤٥٠، من جراء الهجمة الثلاثية التي مثلتها المجاعة والطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة. وفي فرنسا، كما في مجمل أوروبا الغربية، سوف يتطلب الأمر قرناً على الأقل (١٤٥٠ - ١٥٥٠) إن لم يكن قرنين (١٤٥٠ - ١٦٥٠) حتى يلتئم هذا الجرح العميق الذي ظل مفتوحاً لزمان طويل: إن ربع السكان أو ثلثهم أو نصفهم أو، في بعض الأماكن، نحو ٧٠ في المائة منهم، قد هلكوا (٣).

إلا أنه بين عام ١٤٥٠ واليوم، لن تحدث كارثة أخرى بهذا الحجم. والفارق الذي يمثله هذا فارق كبير إلى أبعد حد، وهو يقدم المدخل الحقيقي إلى أي تفسير شامل. لقد كان عام ١٤٥٠ فاصلاً لا يوجد عبر مجمل بقية التاريخ الفرنسي أي مثال شبيه به ولو من بعيد.

والحال أن الألف سنة التي سوف نشرع بدراستها إنما تنقسم بشكل حاد، بل وصارخ، إلى شطرين متساويين إلى هذا الحد أو ذاك. فالأعوام من عام ٩٥٠ إلى عام ١٤٥٠ تمثل دورة "بيولوجية" واحدة طويلة مستقلة، دامت عدة مئات من السنين، وهي أوضح دورة من نوعها في تاريخنا. والحال أن افتقارها المميز إلى التناظر إنما

يؤكددها بشكل ما ولن يكون مصدر استغراب أحد: ففي البداية صعود بطيء، هو نتاج ظروف مؤاتية مختلفة، بين عامي ٩٥٠ و ١٣٥٠، يتلوّه هبوط سريع نسبياً، تتخلله سلسلة مراحل (٤) بين عامي ١٣٥٠ و ١٤٥٠. وكانت الحركة الهابطة بشكل عام أسرع أربع مرات من الحركة الصاعدة. ومثل هذا الانعدام للتناظرات عادي تماماً: فالخسائر دائماً ما تكون أسرع في حدوثها من المكاسب.

على أن الشطر الثاني الطويل للسنوات الألف، من عام ١٤٥٠ إلى أيامنا، قد تميز بنمو متواصل للسكان، يتباين في سرعته أو انتظامه، حيث توجد ثورات توسع كما توجد انتكاسات مؤقتة، لكن النمو المتواصل لا ينقطع قط بشكل خطير كافٍ لفتح الباب أمام كارثة فعلية. وهكذا فإذا كانت هناك، كما أعتقد، دورة زمنية طويلة فاعلة من عام ١٤٥٠ إلى أيامنا، فإننا لم نر حتى الآن غير منحناها الصاعد؛ وتوحي توقعات الديموجرافيين الحاليين (الذين يتوقعون أن يصل عدد سكان العالم إلى عشرة مليارات بحلول منتصف القرن الحادي والعشرين) بأن هذا الاتجاه سوف يستمر. ومن المستحيل الآن توقع هبوط ديموجرافي يضيف على فترة النمو الطويلة هذه الطابع الدوري الذي لا تتميز به بعد. وما أبعدني عن أن أشعر بالأسف لذلك، أكان باسم العالم الواقعي، المعيش الآن أو في المستقبل أم باسم إضفاء مشروعية في وقت لاحق على مخطط نظري. إن النظرية إنما توزج المجريات الواقعية، لكنها لا تفرضها.

لقد شددت هذه الملاحظات الأولية على التباين الأساسي بين القرون الخمسة الأولى في حقل دراستنا الواسع والقرون الخمسة الأخيرة. ومن الواضح أن هذا التباين ترافقه تباينات أخرى، يساعد على تفسيرها. ونحن أحرار في استكشاف ما يمكن أن نقوله لنا، في كافة أشكالها العديدة. ويبقى أن نفسر - ولكن هل هذا ممكن؟ - تلك الآليات البطيئة ولكن الحاسمة في الأجل الطويل والتي تخترق التاريخ وتضيف عليه معنى مفهوماً.

I

دورة متعددة القرون شبه مكتملة أو الحداثة الأولى لفرنسا وأوروبا (٩٥٠ - ١٤٥٠)

يصف المؤرخون الألمان الفترة من القرن العاشر إلى نهاية حرب الأعوام المائة بالعصر الوسيط الأعلى بينما يصفها المؤرخون الفرنسيون بالعصر الوسيط الأسفل. وأنا أؤثر ببساطة أن أسميها بالفترة الحديثة الأولى، وهي عصر سوف يحدث تحولاً خيالياً في أوروبا الغربية. فذلك هو العصر الذي بدأت فيه فرنسا وأوروبا على حد سواء في اتخاذ شكل معين. ويمكن تمييز هذا العصر الحديث الأول عن كل مما سبقه ومما تلاه. وقد انبثق من أوروبا كارولينجية كانت ما تزال موسومة على نحو عميق بالميسم الذي أضفته عليها روما ثم تلتها فترة حديثة بالفعل - حضرية ورأسمالية وملكية - لن تفرض نفسها إلا غداة محن حرب الأعوام المائة. لأن هذا العصر الحديث الأول ما كان بوسعها أن يعالج نموه هو: إن انحداراً رهيباً كان، بمعنى ما، نتيجة لنجاحه.

القرن العاشر أو نهاية روما

أمامنا إذاً دورة متعددة القرون، تتجلى في كل من تمامها واستمرارها: في تمامها، لأن بوسعنا أن نرصد في آن واحد مرحلتها الصاعدة ومرحلتها السهبطة؛ وفي استمرارها، لأن بوسعنا تتبعها دون توقف منذ منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الخامس عشر. ولا يوجد شك في تاريخ انتهائها، نحو عام ١٤٥٠. ومن الناحية الأخرى، هناك شك أكبر حول بداياتها.

وأنا أعترف أنني كنت ميلاً إلى اختيار الرقم المكتمل وتحديد بداية صعود أوروبا بعام ١٠٠٠ عندما انتظر الناس في فزع، كما قيل لنا كثيراً بما يكفي، نهاية العالم: نقطة انطلاق مثالية إذا كنا نبحث عن نقطة منخفضة لا تعوزها النذر الشريرة. إلا أنه، من ناحية، لم يعد مؤكداً أن الذعر من حلول العام ألف (وهو ذعر شجبتة الكنيسة بقوة بالمناسبة) قد مس بالفعل الغالبية العظمى من الناس. ويعتقد المؤرخون اليوم (٥) أن أسلافهم ربما كانوا قد بالغوا في أهميته، مستسلمين لذلك الإفتان بما هو درامي والذي قد يغري المؤرخ بالتحول إلى مخرج مسرحي. ومن ناحية أخرى، لم يكن القرن

العاشر بالفعل "عصر الحديد والرصاص المظلم" الذي وصفه عدد من كتاب الحوليات (٦).

وهناك بالفعل علامات على أن القرن العاشر كان يتميز ببعض الجوانب الإيجابية، وأنه شهد درجة من التوازن والإحياء، مع تحسن العافية الاقتصادية وثورات النمو أو على أية حال الظروف الأساسية المؤدية إلى مثل هذا النمو. فمن ناحية، انتهت آخر الغزوات - غزوات النورمان والماجيار والساراسينيين. ولم يكن ذلك ميزة قليلة الشأن. وفي الوقت نفسه، عادت المدن إلى الحياة، وازداد اتساعها ووسعت تحصيناتها وطورت ضواحيها وشيدت الكثير من الكنائس. وبُنيت كاتدرائيات ضخمة في شالون - سور - مارن وسانس وبوفيه وسانلي وتروا - كُتب لها الاختفاء خلال الموجة القوطية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (٧). وكانت العملة تُسك في مراكز مختلفة. وجرى إنشاء أسواق وظهرت الأسواق الكبرى أو عاودت الظهور (٨). وتوسعت تجارة المسافات البعيدة وأصبحت أكثر تنظيماً. وكانت الملابس الفريزيانية (٩) تباع في مجمل الملكوت المسيحي. وهذه كلها أسباب لتحديد بداية النمو السكاني الأوروبي حول عام ٩٥٠، قبله قليلاً أو بعده قليلاً، مراعاة لواقع أن تواريخ بداية ونهاية أية حركة طويلة الأجل لابد من أن تكون تقريبية.

والحال أن ما تعنيه زحزحة التاريخ خمسين سنة إلى الوراء هو أن النمو الملحوظ في القرن الحادي عشر قد مهدت له فترة تراكم أطول مما قد يكون قد خطر بالبال. ولا مرء في أن انتهاء غزوات البرابرة يفسر أشياء كثيرة: فالقراصنة النورمان قد اقتصرُوا إلى هذا الحد أو ذاك على ضفاف السين الأدنى في عام ٩١١؛ ونجح الجرمان في وقف زحف الماغيار في معركة ميرسبورج (٩٣٣) وفي معركة أوجسبورج (٩٥٥)؛ وتم كبح الاختراقات الساراسينية مع هبوط المستوى العام للنشاط في البحر المتوسط. وقد يميل المرء إلى اعتبار هذا كله ضربة حظ بالنسبة لأوروبا وفرنسا، وهي ضربة قد تبدل مسار مصائرهما، ونعمة يخيّل أنها جاءت من السماء. وأنا أقول يخيّل، لأنه إذا كان الغرب قد كان لقرون مفتوحاً أمام الغازي، فما ذلك إلا لأنه كان على وجه التحديد يشكو من عدم كفاية السكان ومن عدم كفاية الدفاع. لكن سكانه الآن كانوا قد زادوا تدريجياً وكانت مدنه قد بنت تحصينات. وكانت التجربة قد علمتهم كيف يقاومون الفرسان الماغيار أو سفن النورمان الطويلة التي كانت تصعد وتهبط في الأنهار الفرنسية. والخلاصة أن شيئاً يجري تصويره عادة - وبحق - على أنه سبب، يمكن وصفه أيضاً

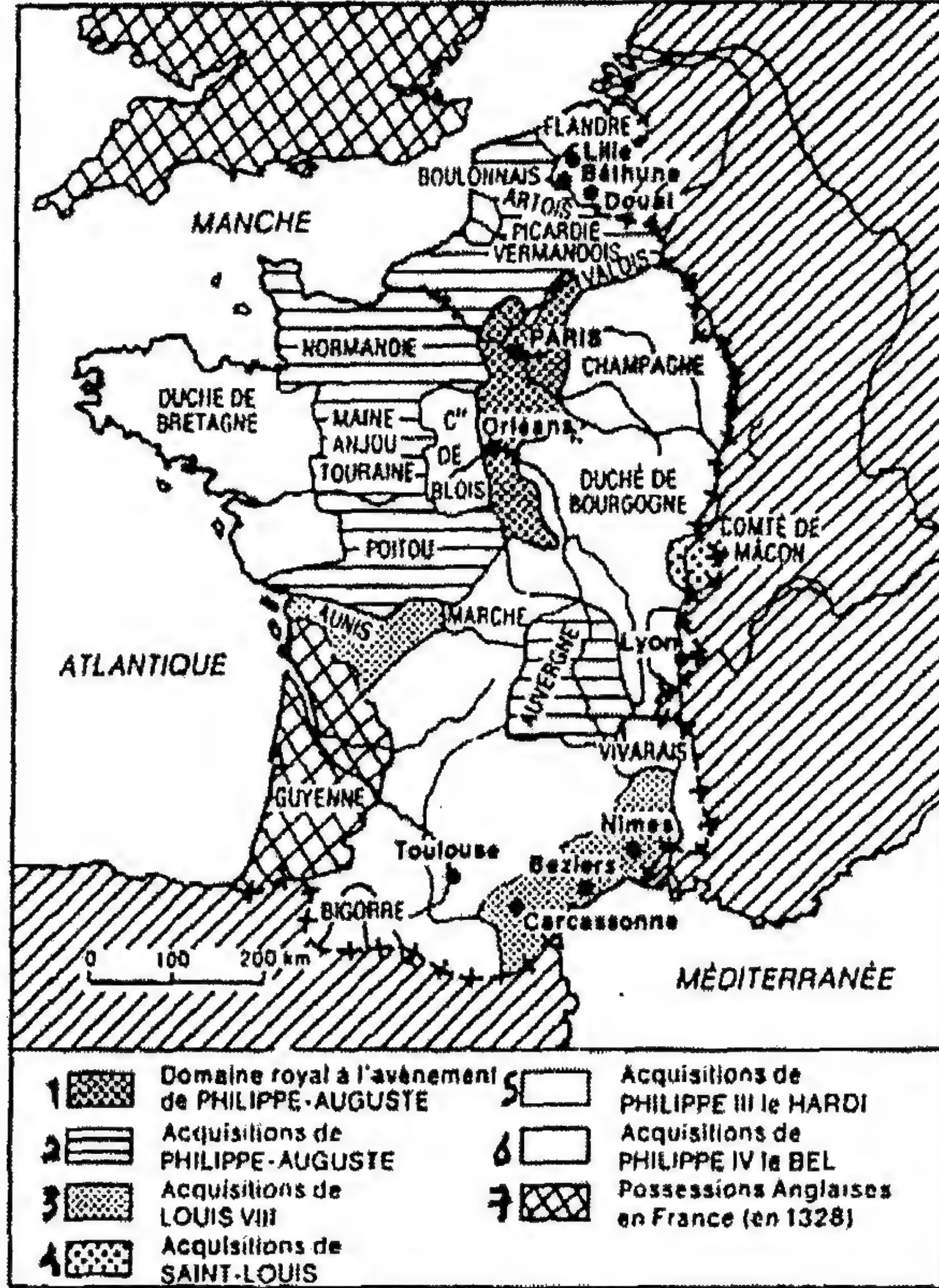
- بحق - على أنه نتيجة . ويرجع أحد أسباب توقف غزوات البرابرة إلى قوة الغرب الجديدة .

على أننا لا يجب أن نتخيل فرنسا وقد سبحت في سلم مستعاد في أزمنة هادئة .
فالحروب الداخلية كانت تخاض بشكل دائم، سواء اتخذت شكل نزاعات بين محاربين متنافسين، أو قمع الأتباع المتمردين أو النهابين، أو جهود الملك الرامية إلى مد سلطته إلى مقاطعات جديدة، أو الحرب الطويلة التي كانت قد بدأت بالفعل، على الأرض الفرنسية في عام ١١٠٩، بين فرنسا وإنجلترا، والمعروفة أحياناً بـ "حرب الأعوام المائة الأولى" (١٠). لقد كان النهب والقتل وأعمال قطع الطريق وانعدام الأمن من مكونات الحياة اليومية . وهذا هو ما يفسر التدخل المتكرر من جانب الكنيسة وأحياناً من جانب الدولة أيضاً، لحفز ما كان يُعرف بـ "سلام الرب" أو "هدنة الرب"، عبر إيجاد جمعيات أقسم أعضاؤها بأن يلتزموا، لسنوات كثيرة أو لفصول من السنة، أو حتى خلال أيام معينة في الأسبوع، بالتعامل سلمياً مع جيرانهم: "من الآن فصاعداً، في الأبرشيات وفي الكونتيات، لا يجوز لأحد أن يقتحم الكنائس؛ ولا يجوز لأحد أن يسرق الخيول أو صغار الخيول أو الثيران أو الأبقار أو الحمير أو الأتان بما حملت، أو الأغنام أو الماعز أو الخنازير . ولا يجوز لأحد بناء أو محاصرة قلعة . إلا إذا كان ممن يحيون على أرضك، سواء أكانت أرضاً مملوكة ملكية مطلقة (١١) أم أرض انتفاع (١٢)؛ . . . ولا يجوز لأحد إيذاء الرهبان أو مرافقيهم المسافرين مجردين من السلاح؛ . . . أو إيقاف أي فلاح، رجلاً كان أم امرأة، وارغامهما على أداء فدية" (١٣) .
هكذا كان النص الأول لهذا النوع من المواثيق، والذي صاغه نحو عام ٩٩٠ جي دانجو، أسقف لو پوي . ويجب أن نضيف أن الفلاحين والفرسان لم يوافقوا على الالتزام بـ "هدنة الرب" الأولى هذه إلا بعد أن طوقتهم جماعات مسلحة تحت قيادة أبناء اخوة الأسقف! ولذا فلا يجب لنا أن نسارع إلى افتراض أن السلم قد هيمن في فرنسا بعد عام ١٠٠٠ . فالسلم، تلك الجوهرة التي لا تقدر بمال، لم يصبح سائداً إلا بعد عام ١٢٥٠ (١٤) . فالحرب كانت على أية حال نشاطاً اقتصادياً كأي نشاط اقتصادي آخر؛ وشأنها شأن نشاطات الناس الأخرى، عاشت على النهوض العام .

وهكذا فإن نهوض القرن العاشر وقرون تالية قد تعايش مع ظروف غالباً ما تناقضت معه . لكنه وقر دافعاً حركياً تحتياً قوياً وزخماً حياتياً قادراً، إن لم يكن على علاج كل المصائب والجراح، فعلى علاج عدد معين منها على الأقل .

والحال أن جانباً أساسياً لهذا التحول غير العادي، لكنه جانب نادراً ما يجري إبرازه، لابد أنه قد تمثل في الاختفاء التدريجي لأطر العالم الروماني وهياكله المادية. فقد كانت الامبراطورية الرومانية في أقصى اتساع لها اقتصاداً عالمياً قوياً ووحدة كلية متماسكة تستند أساساً إلى البحر المتوسط والذي شكل منطقة ممتازة للاتصالات. وقد جرى ضم شواطئ البحر الداخلي وسواحلها ودمجها في الحياة الاقتصادية الشاملة المتمحورة حول روما وإيطاليا. وعندما جرى نقل عاصمة الامبراطورية من روما إلى القسطنطينية في عام ٣٢٤، تحرك مركز الاقتصاد العالمي في اتجاه الشرق، الأمر الذي أفاد الـ **Pars Orientis**، الامبراطورية الشرقية التي نشأت في عام ٣٩٥ من جراء اقتسام تركة ثيودوسيوس. إلا أنه لا هذا الانقسام ولا إلغاء الامبراطورية الغربية في عام ٤٧٦ قد دمرا البنية التحتية الاقتصادية للعالم الروماني: فالاقتصاد العالمي الذي وفر الأسس المادية لهذا العالم قد بقي، وإن كان بشكل مختزل. والحال أن بيزنطة، بعملاتها الذهبية وبمنسوجاتها الحريرية الباذخة وبأساطيلها وبقدرتها على استعادة حيويتها الاقتصادية بسرعة وبفلاحيتها الأحرار الكثيرين، قد واصلت السيطرة على العالم الغربي الذي كان ما يزال تحت حكم البرابرة، وعلى البلدان التي فتحها المسلمون، وإن كان بدرجة من النجاح أقل. وقد واصل الغرب، غاليا كلوفيس، فرنسا هوج كاييه، التطلع إلى البحر المتوسط. لقد كانت هذه اقتصاديات هامشية، أسيرة السيطرة والافتتان.

أما التركة الباقية الأخرى التي خلّفتها روما فهي العبودية، وهنا فإن مرجعنا هو أطروحة فرانسوا سيجو الأخيرة (١٥): فهو يذهب إلى أن الفلاحين الإيطاليين والرومان، في ظل الجمهورية، كانوا قد استوطنوا المنطقة التي سوف تصبح فيما بعد الامبراطورية الرومانية. لكن العبودية كانت الآلية التي رافقت وحفزت على حد سواء صعود إيطاليا، إذ خلقت الضياع الكبيرة، اللاتيفوندييات، وفوائض الإنتاج. وعندما أخذ مدد العبيد ينفد (لأن توقف الفتوحات إنما يعني توقف الحصول على مزيد من العبيد)، أخذ نظام اللاتيفوندييات يتدهور في إيطاليا، لكنه امتد إلى أقاليم جديدة - إفريقيا الشمالية، إسبانيا، غاليا. وكان هذا يعني استمرارية، وإن لم يكن بالضبط فرصة جديدة للحياة. فتدريجياً كان يجري جر غاليا، ليس تماماً وإنما بشكل جد واسع، إلى النظام العبودي للفيللات الغالية - الرومانية. إلا أن الوقت، هنا أيضاً، أدى في نهاية المطاف إلى إحداث تغيير وانحطاط. فلكي يستمر مثل هذا النظام، كان لابد له من حكومة قوية



- 1- الممتلكات الملكية لدى ارتقاء فيليب أغسطس العرش.
- 2- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد فيليب أغسطس.
- 3- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد لويس الثامن.
- 4- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد القديس لويس.
- 5- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد فيليب الثالث الجسور.
- 6- ممتلكات تم الاستيلاء عليها في عهد فيليب الرابع الجميل.
- 7- ممتلكات إنجليزية في فرنسا (في عام ١٣٢٨).

وحروب تجلب العبيد. وقد استمرت الحروب تماماً، داخل غالباً أو على حدودها، لكن القيادة القوية في المركز قد تلاشت. فهل هي التي خلقت الإقطاع أم أن الإقطاع هو الذي قضى عليها؟ لا تكاد تكون لذلك أهمية، فالنتيجة واحدة.

لكن الفلاحين الأحرار، الذين لم يكفوا قط عن الوجود، قد واصلوا البقاء. وعلى هذه الفئة على أية حال اعتمد الفتح الكارولنجي واستخدمها بلا حساب (١٦).

ومن ثم ففي حين أن الأرض كانت ما تزال تُفْلَح هنا أو هناك بعمل العبيد، كما كانت عليه الحال في ظل الامبراطورية المتأخرة (١٧)، إلا أن الوضع العام كان قد تغير بالفعل مع حلول القرن العاشر. شيئاً فشيئاً أخذت الحلسية تتعزز - أحياناً على حساب الملاك الفلاحين الأحرار دون شك. لكنها، بحلولها محل العبودية، سوف تكون أيضاً الأداة لنوع من تقدم و، بشكل ما، تحرير الفلاح. فالحلّس، من أغلب النواحي المهمة، كان يملك الأرض المرتبط بها، وقد حفزته الملكية إلى العمل وإلى إنتاج فوائض يستحيل دونها تصور الهياكل الفوقية للمجتمع - الاقتصاد والسياسة والثقافة. فهل آن الوقت لكي نطرح بشأن الحلسية - أداة الانتاجية الأوفر - أطروحة مماثلة لحجة فرانسوا سيجو حول العبودية في العالم القديم؟

على أن التغير الكبير بالفعل، الذي حدث خلال القرن العاشر وقرون تالية، هو أن اقتصاداً عالمياً جديداً كان آخذاً في احتلال السياق الروماني. والآن لم يعد البحر المتوسط هو المركز، بل الغرب، أرض أوروبا. وكان إحياء إيطاليا والتقدم الهائل للبلدان الواطئة هما اللذان وفرا قطبي نشاطه التوأمين؛ وبين الاثنين تقع جاذبية أسواق شامانيا وبري الكبرى (١٨). إن نهضة كانت على وشك الحدوث - نهضة "حقيقية" لو صدقنا بعض المتخصصين البارزين في تاريخ العصر الوسيط مثل آرماندو سابوري وچينو لوتزاتو (١٩). ولكن هل تعتبر كلمة النهضة (رينسانس) مناسبة بالفعل، بما يعني بعث شيء من الماضي؟ شعوري هو أن شيئاً جديداً كان يجري خلقه، وهو ابتكار لا شك في: إنه ليس أقل من مولد أوروبا.

صعود أوروبا الأولى

١ - السكان. كان العامل الأول في صعود أوروبا هو النمو السكاني. فعدد الناس المتزايد قد لعب دور الاسمنت: لقد توسعت القرى الصغيرة والقرى والمدن، وكان تبادل السلع يتم بحرية أكبر، ونتج عن ذلك قدر معين من التماسك. إلا أننا، في سعينا

إلى قياس هذا التزايد السكاني الوفير، يتعين علينا عادة الاختيار بين شيئين اثنين فقط: دراسات الحالة الموضوعية. أو التقديرات الإجمالية، أي التقديرات التقريبية. وقد قَدَّر ج. ك. روسيل سكان فرنسا نحو عام ١١٠٠ بـ ٦,٢٠٠,٠٠٠ نسمة، أو ما يتجاوز خمس مرات عدد سكان إنجلترا (١,٣٠٠,٠٠٠) في عام ١٠٨٦ (٢٠)، وفقاً للـ **Domesday Book**. إلا أنه في عام ١٣٢٨، ذكر سجل الأبرشيات والأسر المعيشية أن عدد السكان الفرنسيين يصل إلى نحو ٢٠ مليون نسمة (٢١). وإذا كان رقم الـ ٦,٢٠٠,٠٠٠ دقيقاً بالنسبة لعام ١١٠٠ (يبدو لي أنه منخفض نوعاً ما)، فسوف يعني ذلك أن عدد السكان قد زاد بأكثر من ثلاث مرات. والحال أن سكان إنجلترا الذين كان عددهم قد وصل في عام ١٠٨٦ إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ قد أصبحوا نحو عام ١٣٤٦ زهاء ٣,٧٠٠,٠٠٠، أي أنهم قد زادوا هم أيضاً بنحو ثلاث مرات (٢٢). وقد استتج فيلهلم آيبل، معتمداً على هذه الأرقام وأرقام أخرى تتصل بإيطاليا وبالدانمرك، أن السكان قد زادوا ثلاثة أضعاف تقريباً في مجمل أوروبا (٢٣).

من المؤكد أن تقدماً مهماً قد حدث. فنحو عام ١٣٠٠، كان متوسط العمر يتراوح "بين ثلاثين وخمس وثلاثين سنة في إنجلترا. ومن ثم فقد كان أفضل بدرجة ملحوظة مما كان عليه في روما القديمة (نحو خمس وعشرين سنة)، فهو يكاد يساوي متوسط العمر في الصين في عام ١٩٤٦، ولا يقل إلا نادراً عن متوسط العمر في إنجلترا في أعوام ١٨٣٨ - ١٨٥٤" (٢٤). والواقع أن هذه الزيادة السكانية قد تحققت على امتداد ثلاثة قرون، ربما بمعدل سنوي قدره ٤,٠% - وهي حركة طويلة الأجل، لا يرصدها عادة الناس الذين عاشوا في غمارها. ولذا فلا يجب أن نفكر فوراً من زاوية موجة هادرة أو انقلاب كاسح. فالتغير السكاني قد يأخذ شكل تراكم أو تشوه أو تحول. والتغير لا يحدث بين عشية وضحاها، كما أن الحركة لا تحدث بمعدل سرعة واحد في كل مكان: لقد كانت هناك أوقات تقدم سريع في المناطق الثرية، وأوقات ببطء وركود بل وانحدار في الأقاليم الفقيرة.

والشيء الأساسي هو أن هذه الحركة كانت في كل مكان متأصلة في الفلاحين. فكل شيء قد بدأ في الريف، وإن لم يكن بشكل متجانس. ففرنسا كانت أرض التنوع وقد أدى الإقطاع إلى انتاج التجزؤ ووفرة من الخصوصيات المحلية. إلا أنه في كل مكان، كانت المدن تتزود بالسكان أو يعاد تزويدها بالسكان القادمين من العالم الفلاحي. وأصول الثورة الديموجرافية موجودة في الريف. وكلمة "الإقطاع" تحاول دخول هذه

المناقشة: وهي تطرح مشكلات كثيرة بالنسبة للمؤرخين الماركسيين عند محاولة تعريفها. والسمة الحاسمة - التي غالباً ما تتعرض للإهمال - هي الدور الذي يلعبه النابئ العاديون، أفعال الفلاح غير المحكومة وغير المنسقة: فبالرغم من أنه قد يكون مسوداً ومُقيداً، إلا أنه كان آخذاً أيضاً بحزم في التعلق بالأرض وعازماً على انتاج خيرات لنفسه ولسادته. وكلمة الحلسية، والتي لا يمكن تجنبها، إنما تشدد تشديداً جد حصري على الوضعية الشخصية للفلاح، في حين أن هذه الوضعية كانت أقل أهمية من عمله ومستوى يسر حاله وحجم وقيمة أرضه. "لم تكن هناك من الناحية العملية أية صلة بين الوضعية الحقوقية والمستوى المعيشي: فالفلاحون المستقلون (لأن بعضهم كانوا ما يزالون موجودين) كانوا فقراء، وكان الأحرار أغنياء" (٢٥). والحال أن الحركة الفلاحية التي وسمت خلق أوروبا في شكلها الأول إنما كانت حركة نحو حرية واستقلال الريف، نحو تحرير ليس تاماً بحال من الأحوال لكنه كان قد أصبح مرئياً بالفعل.

٢ - الأرض وأعمال الاستصلاح. لقد كانت أوروبا الآخذة في التشكل من ثم نتيجةً لاستصلاح الأرض ولزراعة المحاصيل ولرعي الماشية. فقد بدأت من الأرض التي كان يتعين حرثها وفلاحتها واستخلاصها من قوى الطبيعة المناوئة وتحويلها إلى أرض زراعية منتجة. وسواء أكانت المعجزة قد تحققت عن طريق الحلسية أم عن طريق العزيمة الفلاحية، فقد زادت أرض المزارع مساحتها على حساب الأراضي البور والغابات وضفاف الأنهار والمستنقعات، بل وفي بعض الأماكن عبر استصلاح شواطئ البحار أو الأراضي التي كانت تزرع في الماضي البعيد. وكان ذلك بمثابة عملية ضخمة للاستيطان الداخلي، جرى شنها من القرى القديمة التي راحت تسترد أرضاً كانت مهجورة من قبل، بل وراحت تتحرك إلى ما وراء حدودها القديمة، "مُفرَّعةً فروعاً جديدةً"، بحسب تعبير مارك بلوخ، أو نتيجةً، ربما في وقتٍ تالٍ، لمشاريع منهجية قام بها ملاك الأرض (المتشاركون أحياناً) أو الأديرة أو الملك نفسه.

ومثل هذا الإنماء لمساحات واسعة من التربة البكر كان يتطلب مدداً لا ينتهي من "الأيدي" اللازمة للإمساك بالمعول وبالمعزقة. وبسبب غياب البديل، غالباً ما كان يجري تجنيد هؤلاء "المستوطنين" عبر حملات مصحوبة بصوت النفير وبالكثير من الوعود: وفي عام ١٠٦٥، تعهد دير سان ديني باستقبال وبحمائية أي قادم جديد إلى الأرض التي كان يجري استصلاحها في شاپيل دود في البوربونيه، "حتى لو كان لصاً أو حلساً هارباً". وقد تدفق العمال على الموقع (٢٦).

وكقاعدة، كانت الحقول الجديدة تبدأ بالاستيلاء على البريات حيث "لا يوجد رجل ولا امرأة"، وحيث توجد "مساحات غير مفلوحة كانت حتى الآن موطن الأشجار الخفيضة والأعشاب الضارة. وسجل {رهبان} موريني... يصور الفلاحين وهم يقاتلون بضراوة بالمحراث وبالمعزقة ضد الدغل والحسك البري وأجمة السرخس، وكل تلك النباتات المزعجة المرتبطة بأحشاء الأرض" (٢٧).

والأهم مما عداه هو النضال ضد الغابة، التحدي الأعظم. إن غابات قليلة فقط هي التي ظلت على حالها - في السولونية على سبيل المثال: أما في كل مكان آخر تقريباً، فقد كانت آخذة في الانحسار، أو كانت قد اختفت تماماً كما في بونتيو أو فيميو. وإلى جنوب باريس، كان مستصلحو الأرض يهاجمون بلا كلل المساحات الشاسعة من الغابات في وديان البيفر والإيفلين والليه والكريه واللوج. وعلى طول الممر المركزي المعروف بالفال كريزون، والذي اخترق كتلة غابة كريبه الكثيفة بين ريل ووادي سيفر، قام الأب سيچيه من سان ديني بتوطين ستين أسرة، هم السكان الأوائل لقرية فوكرسون (٢٨). وفي دوفينه، بمجرد استصلاح الوديان ونزع الغابات منها، صعدت مجموعات عمال الاستصلاح، في جوعها للأرض، "لكي تتعامل مع الغابات الألييه" (٢٩).

والحال أن نزع الغابات - كانت كلمة *essarter* هي الكلمة المستخدمة في الشمال، بينما كانت كلمة *artiguer* هي الكلمة المستخدمة في الجنوب - قطع الأشجار ثم استئصال جذورها، هو العمل الشاق الذي منح فرنسا في نهاية الأمر المشهد الطبيعي الريفي الذي سوف يدوم لقرون، أحياناً إلى أيامنا. وهذا العمل قد أملت ضرورة لا يمكن تجنبها: كان لابد من حرث المزيد من الأرض حتى يتسنى إطعام السكان الآخذين في التزايد. وربما يكون توسيع الأرض الصالحة للزراعة قد قضى على ما يصل إلى نصف مسطحات الغابات في فرنسا، أي، وفقاً لتقدير جد تقريبي، نحو ١٣ مليون هكتار من الـ ٢٦ مليون هكتار التي كانت موجودة في عام ألف (٣٠).

ولم يكن هذا المشروع غير محفوف بالمجازفات، إذ كان من المهم الاحتفاظ بتوازن بين الغابة والأرض الصالحة للزراعة، موردي الحياة الفلاحية. وكان لابد من الحرص على عدم تدمير جانب كبير جداً من الغابة، التي كانت توفر المرعى للماشية كما كانت توفر إمدادات من الخشب تُستخدم في البناء والتدفئة. والحال أن حضارة العصر الوسيط قد تأسست على أية حال على الخشب، وهو وضع امتد إلى الفترة

الحديثة. بل إننا ما تزال نجده مستمراً في أيامنا في أماكن مثل pays دير الصغير في شمال المارن الأعلى، في شامبانيا الرطبة: فهنا نجد أن جميع البيوت بل والكنائس مبنية من خشب البلوط (٣١). ولتفكروا أيضاً في العالم البري لكل غابة، عالم قاطعي الأشجار ومجهزي الفحم النباتي، ناهيك عن النجارين وبناء السفن وصانعي البراميل الخشبية وصانعي العجلات وصانعي القباقيب وكل الصناعات التي تحتاج إلى الخشب للحصول على الوقود و، أخيراً وليس آخراً، المدن - التي لم تكن تُبنى من الخشب وحسب (كانت تروا ما تزال تُعاد تُبنى من الخشب بعد حريق عام ١٥٢٤ الكبير) بل كانت تحرق الخشب أيضاً حتى تظل دافئة (٣٢).

والحال أن موجة الاستيطان العظيمة هذه لم تتحقق بضربة واحدة؛ ثم إن أنماط الاستيطان واستغلال الأرض المستصلحة حديثاً كانت متباينة إلى أبعد حد. وعلى سبيل المثال، فعلى النجاد من المستوى الثالث والمغطاة بتربة غرينية، والتي تفصل الواز عن وادي السين - pays فالوا وسواسونيه وميلسيان (٣٣) وأورزوا (٣٤) وبري - نعرف من كتاب بيير برينيه الرائع (٣٥) أن سلسلة كاملة من الأنماط المختلفة بشكل واضح يمكن أن نصادفها: فبعض القرى منظمة وفق نموذج هيكل السمكة العظمي أو وفق نموذج بيت العنكبوت، وبعضها الآخر خطي؛ وكانت دورة المحاصيل تمتد أحياناً لتستوعب حقولاً إضافية أو الـ *quartiers* التي كانت فيما قبل ملكية قرى مهجورة؛ وقد تكون بعض القرى الصغيرة قائمة على أرض فيللا غالية - رومانية سابقة استوعبتها هذه القرى الصغيرة في نهاية المطاف (٣٦)، بينما كانت قرى أخرى تتجمع حول مزرعة كبيرة تقدم لها هذه القرى العمل الضروري؛ وقد ظهرت سلسلة كاملة من الـ *villeneuves* (المدين الجديدة)، التي لا تتطابق البتة الواحدة مع الأخرى، حيث لكل واحدة منها شكلها الخاص. وهناك كثير من الوثائق حول البري والأرجح أن السبب في ذلك هو أن تلك الساحة المرتفعة نسبياً، ذات الموارد المائية الجيدة والغابات الواسعة، قد جرى نزع غاباتها في تاريخ متأخر. ويمكننا أن نعرف من هذه الوثائق ماهية الملاك: إنهم سادة ورجال دين وبورجوازيون - من باريس خاصة ولكن أيضاً من كولوميه أو مو (التي سرعان ما سوف تصبح مركزاً رئيسياً لتجارة الحبوب) (٣٧). وحتى نغير الإقليم، فمن المؤكد أنه ما زال يتعين إجراء دراسة حول منحدرات پروفانس أو الپرانس المزروعة.

وقد تتباين ظروف الاستيطان تبعاً لما إذا كان من يقوم به هو الأرستقراطية أم الكنيسة أم الفلاحون. وبالطبع، فإن الأمثلة على الاستيطان الفلاحي هي الأصعب على

التحديد. ومع ذلك تنبثق بين المؤرخين نظرية تشدد تشديداً أكبر على العمل الرئيسي للمجتمعات الفلاحية. وهذا لا يعني أنه لم يتم الاضطلاع باستصلاح للأرض بين السنين والواز من جانب ملاك الأرض النبلاء، أو أنه لم يتم الاضطلاع بنزع للغابات من جانب الرهبان البندكتيين أو رهبان پريمونترية أو، في وقت تال، فرسان الهيكل أو فرسان الاسبتارية. إلا أنه في حين أن القديس نوربير قد أقام دير في پريمونترية في عام ١١٢٠، "في برية رهيبة في غابة سان جوبان، وهي مستنقع كرية الرائحة، وأرض قاحلة وغير مزروعة، ومأوى للحمى وللحيوانات المتوحشة"، فإن الطريقة الدينية الجديدة قد امتلكت ممتلكات في أرض السواسونية الخصبة، والتي كانت مزروعة بالفعل ولم يكن هناك ما يتعين القيام به سوى امتلاكها وتوسيعها وتنظيمها، حيث كانت تتألف مما لا يقل عن خمس "مزارع" واسعة الحجم - فمساحاتها بحسب الترتيب: ٢٧٥، ١٩٥، ٢٣٥، ١٨٠، ١٤٣ هكتاراً (٣٨). ويرجع هذا إلى أن الطرق الدينية غالباً ما كانت تحصل على المزارع القائمة على شكل تبرعات أو عن طريق الشراء. والحق إنها قد أدخلت عليها تنظيماً أفضل، وهو ما فعله بشكل خاص القادمون المتأخرون، فرسان الهيكل وفرسان الاسبتارية - فهم، بكلمة أخرى، قد حشدوا ونظموا جهود الفلاحين المحليين والتي ربما كانت ترجع إلى الأزمنة الكارولينجية.

وهذا هو التفسير الذي يقدمه كتاب فرانسوا جوليان - لابروير القوي (٣٩) حول إقليمي أونيس وسانتونج، حيث يذكر المؤسسات الكنسية التي تكونت من تركات المؤمنين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، الأمر الذي أدى، في رأيه، "إلى هيراركية ثانية... إلى جانب هيراركية إقطاعات السادة".

وقد رصد جي بوا الشيء نفسه وعلق عليه فيما يتصل برهبان كلاني. فهو يكتب فيقول: "إن تقيماً مناسباً لدورهم يجب أن يبدأ من الملاحظة التالية: في إنشاء النظام الزراعي وفلاحة الريف حول كلاني، كان الدور الأعظم قد تم الاضطلاع به بالفعل قبل بناء الدير. وقد قامت بهذا الدور المجتمعات المحلية للفلاحين الأحرار والتي يمكن رصد أعمالها النشيطة في وثائق منعطف القرن العاشر" (٤٠). وإذا كانت هذه الملاحظة تنطبق، كما أعتقد، على أماكن أخرى، فإن تفسيراً عاماً يلوح إليه جي بوا بإيجاز قد تكون له مصداقية: ألا يمكن ربط هذا النشاط المبكر في الريف ربطاً مباشراً بانحسار دور المدن؟ لو كان الأمر كذلك فربما يتعين علينا أن نقبل، بالنسبة للأزمة الأخيرة للتجربة الكارولينجية، صورة أكثر انحطاطاً مما كان مألوفاً.

وأياً كان الأمر، وإنصافاً للرهبان، لابد للمرء من الاعتراف بأهمية "الوظيفة القيادية" التي قاموا بها، بسياستهم الخاصة بتدعيم الحيازات الزراعية وبمناهجهم الزراعية المباشرة الفعالة وكذلك بحرصهم على تحسين المواصلات والطرق والجسور والنشاط التجاري داخل دائرة واسعة.

وأخيراً، يجب أن نلاحظ الدور الذي لعبته المعدات المحسنة في هذه إعادة التدرجية لتنظيم الأرض المزروعة. وتحت هذا العنوان يمكن للمرء أن يضع الحديد، الذي لم يحل محل الخشب، بل أُضيف إليه؛ والنوع الجديد من المحاريث، والذي يتميز بمحور عجلة أمامي متحرك وسرعان ما سوف يتميز بشفرة وبقلابة تربة معدنيتين، وهو نوع انتشر عبر مجمل فرنسا (ولكن متى؟ في الأزملة الكارولينجية أم بعد ذلك؟ ما زال الموضوع محل نقاش وخلاف) (٤١)؛ والعدد المتزايد من حيوانات الجر، الثيران أو الخيول؛ واللجام حديث التصميم للحصان؛ والفهم الأفضل للفلاحة وتضاعفها؛ وممارسة تسميد الأرض هنا أو هناك.

٣ - المدن. توافقت إعادة تنظيم الريف مع نمو مثير للمدن. فلم يحدث في أية فترة أخرى أن أنشئت مثل هذه المدن الجديدة الكثيرة. وقد ظهرت في كل مكان، إلى جانب مدن أقدم واصلت البقاء ولعبت غالباً دوراً قيادياً - كالمدين الأسقفية رانس وشالون وسواستون ونويون وتور وليون وفين وناربون وبوردو وبورج (٤٢). وتبعاً لما إذا كان المرء أكثر تأثراً ببقاء المدن القديمة أم بمولد مدن جديدة، نتجت عن النمو في الريف، فسوف يكون المرء متحازاً إلى حجة من حجتين: أن التجديد الحضري قد سبق الإحياء الريفي أو، على العكس، أنه قد جاء في أعقابه. وينحاز هنري بيرين وموريس لومبار (٤٣) إلى صف المدن؛ بينما يرى جي فوركين وجورج ديبي ولين وايت أن الاقتصادات الريفية كانت السبّاقة إلى الانطلاق، ويشاطرهم جان فافيه هذا الرأي بشكل حاسم. فهو يكتب فيقول: "لا يجب تصور أن النمو الحضري [في فرنسا] مرافق للتوسع الزراعي، ناهيك عن أن يكون منافساً له. لقد نتج عنه" (٤٥).

والشيء المؤكد هو أن المدن لم تبدأ فعلاً في الحياة وفي التطور إلا بفضل فوائض إنتاج الريف، والتي كانت تصل إلى المدينة على شكل رسوم مدفوعة إلى مالك الأرض أو عشور تحصل عليها الكنيسة. وقول ذلك إنما يعنى الموافقة على الخطوط العريضة لأطروحة دافع عنها بحرارة فرنر سومبارت، ألا وهي أن مولد المدن قد اعتمد على وجود أشخاص مميزين فيها: النبلاء ورجال الكنيسة ورجال البلاط ثم العوام الأثرياء

بعد هؤلاء بوقت قصير، كل ملاك الأرض والذين يحصلون بحكم ذلك على رسوم مدفوعة عيناً. وربما وجب على المرء أن يعتبر أولوية الريفي على الحضري سمة مميزة لهذا النموذج "الأول" لأوروبا، مقارنةً بالنموذج الثاني، نموذج أوروبا الرينسانس الحقيقي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والذي شهد أيضاً عودةً إلى عافية اقتصادية جيدة مع النتائج التي تترتب على مثل كل هذه التطورات. إلا أنه في تلك الحالة الأخيرة، لا شك أن المدن - بحضارتها الأرقى - هي التي تولت القيادة. فقد كانت أقل تأثراً من الريف بما سببته حرب الأيام المائة من متاعب ودمار. ومع رأسماليتها الآخذة في الازدهار واقتصادها المتقدم بالفعل، كانت تعلو على الريف المحيط. وهكذا فإن انطلاقة القرن السادس عشر قد بدأت من أعلى إلى أسفل وليس، كما في أزمة آل كاييه، من أسفل إلى أعلى. وقد لاحظ جي بوا، حول نورماندي، أن "المدى الذي راح النشاط الصناعي والتجاري يرقى إليه فجأة، كانت له أصداء قوية على القطاع الزراعي" (٤٦).

ومع ذلك، يجب أن نحذر من الإفراط في التبسيط. لأنه بالإمكان أن نقدر بسهولة أنه حتى في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فإن المدن الكبيرة التي كانت تقام فيها الأسواق الكبرى، والمراكز التجارية الرئيسية، والموانئ الرئيسية، كانت تدين بالجانب الأعظم في نموها ليس لتطور الريف المجاور، وإنما للتجارة الكبيرة ولتجارة المسافات البعيدة. وهذه التجارة، في ظل الحماية الملكية، كانت مزدهرة بالفعل في عهد الكارولينجيين، وكان من بين الشركاء التجاريين إنجلترا وإسبانيا والأسواق الشرقية عبر ستراسبورج (٤٧).

وأياً كان نمط تطور مدن هذا الرينسانس "الأول"، إلا أنها قد لعبت بالتأكيد دوراً كاملاً في الانطلاقة، حيث اجتذبت السكان من المنطقة المحيطة وحفزت الحركة داخل مدى واسع وضيق على حد سواء. وكانت بعض المراكز الحضرية، المحظوظة بشبكة طرق ربما، أو بنهر، أو بموقع ساحلي، أو بمخاضة أو بميناء جيد الموقع، مسرحاً لتوسع سريع. وحول هذه المدن المميزة نمت الضواحي التي اختار التجار العيش فيها. ومع تزايد حجم مثل هذه المدن، فإنها قد تنقسم إلى عدد من المراكز الحضرية للتعامل مع المهام المختلفة التي تقع على عاتقها. "كانت لتولوز ثلاثة مراكز: مدينة الأسقف؛ بوج سان سرنان الخاضع لرئيس دير الرهبان؛ والشاتو ناربونييه المنتمي إلى الكونت". أما پواتييه - هل كان ذلك رقماً قياسياً؟ - فقد انقسمت إلى ستة مراكز حضرية (٤٨).

الخلاصة أن المدن نمت في أحضان وتحت رعاية مؤسسات مختلفة، غالباً ما كانت تتنافس بغيرة فيما بينها. وعندما كانت مدينة تنجح في تحرير نفسها، بعد جهد صبور وأحياناً عنيف، فقد كان ذلك يحدث عبر التلاعب بهذه المؤسسات وتحريك الواحدة ضد الأخريات. وكانت أهداف ما تسمى بالحركة الكومونية للمدن تتمثل في كسب ضمانات و"حريات"، وتخفيض الضرائب المفروضة عليها، والحصول على حق حكم نفسها بنفسها (*se muer en seigneurie*، كما كان يقال). (كان أول جهد منسق يهدف إلى التحول إلى *seigneurie* قد بُذل في لو مان في عام ١٠٧٠)(٤٩). لكنني لا أنوي الآن معالجة هذه المشكلة الضخمة والتي نوقشت كثيراً، فهي سوف تظهر مرة أخرى عندما ننظر في الدولة.

والشيء المهم الآن هو بيان أنه كان مضمراً في منطق المدينة ذاته - سواء أكانت الثورة الزراعية هي التي خلقتها أم لا - أنها يجب أن تكون القائدة، وأن تمثل البنية الفوقية. إذ يكفي لمدينة أن توجد حتى يتسنى لها السيطرة. وهكذا فعاجلاً أم آجلاً، بهذه الدرجة أو تلك من بيان قوتها أو ازدهارها، نجحت في العلو على الريف، وقدمت له "نموذجاً"، وأخضعته لاحتياجاتها؛ وكلما ازدادت ضخامة، كلما زادت سيطرتها على البورجات والقرى المحيطة بها. وكانت السمات الرئيسية الثلاث لسيرورة التحول الحضري هي: استيعاب المدينة لمعظم الحرفيين من ورش الإقطاعات؛ ظهور صناع حضريين أقاموا دكاكين، ثم، مع تطور السوق الحضرية، بدأوا يتخصصون ويقسمون صناعاتهم إلى فروع (فأصبحوا رأسماليين محليين أو احتكاريين داخل المدينة)؛ وأخيراً ظهور التجار الكبار الذين سرعان ما سوف يهتمون بتجارة المسافات البعيدة.

وهكذا كانت المدينة مسئولة عن انتشار أسلوب جديد للحياة، وشكل أرقى للاقتصاد كانت هي مركزه. أما النقود الذي حرك هذا الاقتصاد سريع النمو فهو النقود. وأنا أعالج هذا الموضوع في فصل آخر، يمكن أن يرجع إليه القاريء. وفي هذه المرحلة من هذه المناقشة، أود فقط الإشارة إلى أن ذلك كان نقطة تحول حاسمة.

٤ - الثورة الصناعية. كان التوسع العام للاقتصاد مصحوباً بعدد من الابتكارات التقنية: فالسفن تتمتع الآن بدفات مركبة على مؤخراتها وبعده صَوَّار (٥٠)، "وكانت العربات تُجرُّ من جانب خيول ذات حدوات حديدية بينما كانت عجلاتها محمية بإطارات من الحديد"؛ وقد جرى صنع أدوات ومعدات مختلفة من الحديد. والحال أن

الحدّاد، عن طريق الخدمات التي قدمها، قد أكد صدارته المثيرة والدائمة: "إن الخيول وحيوانات الجر الأخرى التي كان يتعين تركيب حدوات حديدية لها من آن لآخر سوف تقود الفلاح بصورة منتظمة إلى الورشة، حيث يمكن أيضاً إصلاح الأدوات الزراعية المصنوعة من الحديد" (٥١).

لكن مثل هذه التفاصيل طفيفة الأهمية نسبياً في ما يُعرف بـ "الثورة الصناعية الأولى"، التي انتشرت بفضل التكاثر غير العادي أولاً لطواحين الماء التي اخترعها الرومان، ثم لطواحين الهواء فيما بعد. وفي البداية، ولوقت طويل تال، كانت هذه الطواحين، المصنوعة من الخشب، "تتكون من أجهزة مكلفة (حجر الرّحى وأعمدته الحديدية)، كان يجري تفكيكها، في وقت الحرب، لتيسير حمايتها" (٥٢). ولا يقل أهمية أو قيمة عن هذه الأجهزة الرجل الذي يقوم بتشغيلها، الطحّان، وهو متخصص في مهنته. "وأحياناً ما كان يجري تزيين الدخّل... الذي يحصل عليه (من الطاحون) بلقب الإقطاع، بل كان يحدث أحياناً أن يُستقبل من جانب السيد المحلي باعتباره واحداً من الأتباع المعاوين الجديرين بالترحيب بهم" (٥٣).

وكانت الطواحين عبادات آليات، روبوتات، تخدم سادتها: كان هناك ما لا يقل عن عشرين ألف طاحون مائي في فرنسا بحلول أوائل القرن الثاني عشر. وتذهب التقديرات إلى أن هذا كان يعادل عمل ستمائة إنسان - وهو رصيد ضخّم (٥٤).

وبحلول أواخر القرن الثالث عشر، كان عدد طواحين الماء قد ارتفع إلى ٤٠,٠٠٠، وبحلول أواخر القرن الخامس عشر، وصل العدد إلى ٧٠,٠٠٠، في مقابل ٢٠,٠٠٠ طاحون هواء، كانت قادمةً جديداً: وقد وُصفت طاحونة الماء بأنها "إقطاعية"، بينما وُصفت طاحونة الهواء بالفعل، بمعنى ما، بأنها "رأسمالية" (٥٥). وكان عدد كبير من هذه الطواحين ما يزال عاملاً في أوائل القرن العشرين (٥٦). ويمكننا أن نضيف تفصيلاً آخر إلى مجموعة التباينات التي لدينا بين الشمال والجنوب: "كان هناك أسلوبان لبناء طواحين الهواء (في فرنسا)، على محور في الشمال - الشرقي وعلى أسطوانة في الجنوب - الشرقي. والحد الفاصل بينهما هو عين الحد الفاصل تقريباً بين الأسقف القرميدية المدرجة والأسقف القرميدية المسطحة" (٥٧).

وليس من السهل تماماً قياس الدور النسبي لهذه العبادات الآلية في الاقتصاد العام (٥٨). إلا أن من المؤكد أن بوسع المرء أن يتصور الفارق الذي أدخله على الحياة اليومية هذا الابتكار الذي كان على أية حال أولياً تماماً. ويكمن البرهان غير المباشر،

وإن كنت أعتقد أنه برهان بليغ على ذلك، في القصة التي رواها إيطالي من القرن العشرين وصل إلى جوندادار، في عام ١٩٣٦، خلال فتح إثيوبيا. لقد أصابته الدهشة عندما وجد أن الحبوب كانت ما تزال تطحن بيد الهاون. وقد سمح له موتور قديم بتحريك حجر رحي على آخر. وسرعان ما بنى، بإمكانات عرضية، "طاحونة" أخرى، ثم أخرى، حتى وصل العدد الإجمالي للطواحين إلى عشرين، وزعها توزيعاً حكيماً على المستوى الجغرافي. وسرعان ما أصبح الطحن في الطواحين رخيصاً (يمكن تصور أنه كان بنسبة ١٠% من تكلفته السابقة). على أن صاحب الطواحين كسب مائلاً وثيراً من المشروع وصار ثرياً بين عشية وضحاها تقريباً: كان الفلاحون يصطفون في طوابير على أبواب "طواحينه" (٥٩). فهل حدث شيء كهذا في الماضي؟.

يبدو ذلك جده محتمل عندما نتذكر أنه منذ البداية تقريباً كانت طواحين القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر مهياة لأداء سلسلة من المهام: طحن الحبوب، صوغ المطارق السقاطة ومدقات الركائز؛ وكانت هناك طواحين لصناعة الورق وطواحين لدبغ الجلود وطواحين لتقصير الصوف وطواحين لحلج القنب. و"إقتفاءً لأثر هـ. ك. داربي، الجغرافي التاريخي البريطاني الشهير، يرى روبرت فيليب أن من السليم القول إنه في فرنسا أيضاً، "كان القرن الثاني عشر هو القرن التاسع عشر في عصره" (٦٠). وبشكل عام، يذهب فلهم أبيل المذهب نفسه إلى حد بعيد، فهو يقول إن من المعجزات أن الأجور قد ارتفعت بذات المعدل الذي ارتفعت به الأسعار (٦١) ويستعير بير شوني فكرة و. و. روستو عن الانطلاقة (٦٢)، والحق إنه تحت تأثير سلسلة كاملة من "مضاعفات الآثار"، نجح الملكوت المسيحي الغربي بالفعل في الانطلاق، وشمل ذلك فرنسا إلى جانب الباقيين. بل إن ماء المستنقعات قد جرت السيطرة عليه بحيث أخذ يحرك الطواحين في نورماندي بحلول نهاية القرن الحادي عشر (٦٣).

وليس واضحاً ما إذا كانت الطواحين قد مثلت سبباً أم نتيجة (الأرجح أنها مثلت سبباً ونتيجة في آن واحد) لتحول أوروبا الأولى هذه. وقد كان هذا التحول عميقاً بحيث يمكن مقارنته بثورة البخار في القرن التاسع عشر - مع فارق أن المحرك البخاري يمكن أن يُقام في أي مكان، في حين أن الطاحونة يجب أن تقام قرب مجرى مائي. وهكذا، في المدينة أم في القرية، كان من المستحيل تحريك مصادر الطاقة هذه، والصناعات التي تعتمد عليها، بعيداً عن مواقعها قرب الأنهار. والحال أن هذا الثبات في الموقع، والذي دام لقرون، كان في آن واحد سمةً وقيداً لهذا العصر الحديث الأول في أوروبا.

ويكمن قيد آخر، وهو قيد أخطر بكثير، في أن هذه الثورة (باستثناء تطورات طفيفة قليلة) قد ظلت حييسة منطقها، فراحت تكرر نفسها بلا نهاية. أما الثورة الصناعية التالية، والتي بدأت في إنجلترا في القرن الثامن عشر، فقد دشنت، على العكس من ذلك، سلسلة من الثورات المرتبطة فيما بينها، إذ أدت كل واحدة منها - بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر - إلى ظهور الأخرى. ولا مرء في أن الطواحين قد لعبت دوراً قيادياً في خلق هذا العصر الحديث الأول وفي إنجازاته. إلا أنه إذا كان تطوّر هذه "الثورة" قد توقف في نهاية المطاف، فإن واحداً من بين الأسباب الكثيرة لذلك هو أن "ثورة" تلك الفترة لم تؤد إلى أية انطلاقات جديدة، خاصة ابتكار حلول جديدة لمسألة الطاقة.

فرصة فرنسية: أسواق شامبانيا وبري الكبرى

أصبحت أوروبا القرن الثاني عشر والاقتصاد العالمي الجديد الذي أخذ يتشكل حولها متمحورين حول إقليم تروا وپروفان وبار - سور - أوب ولاني. وسرعان ما راح هذا الإقليم يبدى السمات المميزة لجميع الاقتصادات العالمية، أي، منطقة مركزية، مع عدد من المناطق البينية وهامش. وهكذا اشتمل على عدد من المستويات المختلفة والتفاوتات، على الرغم من أن تماسك الكيان الإجمالي كان يعني أن نبضاته تدق بإيقاعات واحدة، أكان ذلك في الأوقات الجيدة أم السيئة. وهناك وفرة من الأسباب التي تبرر اهتمامنا بهذا الاقتصاد العالمي، وهو أول اقتصاد عالمي يوجد بالكامل داخل أوروبا القارية (٦٤).

أعتقد أن ثلاثة عوامل أولية حيوية تكمن وراء هذا الكيان الاقتصادي الأوروبي الأول: الإحياء المبكر لاقتصاد نشيط في إيطاليا، والذي سرعان ما سوف يفتح على البحر المتوسط (عبر أمالفي والبندقية وبيزا وجنوه)؛ الانبثاق الذي حدث في منطقة المصبات الثلاثية للرايس وللمير وللايسكو لمنطقة اقتصادية نشيطة، تستند إلى الصناعة الحرفية والتجارة؛ وأخيراً، الإقامة التي حدثت على ضفاف السين والأوب والمارن، لنقطة اتصال بين هذين القطبين الاقتصاديين - الأسواق الكبرى المقامة في تروا وپروفان وبار - سور - أوب ولاني.

ووفقاً لفيليكس بوركلو، المؤرخ الذي عاش في القرن التاسع عشر (ويتفق معه روبر - هنري بوتيه) (٦٥)، فإن أسواق شامبانيا وبري الكبرى قد استهلّت دورها الدولي

خلال أعوام ١١٣٠ - ١٣٦٠ - أي، يجب أن نلاحظ ذلك، بعد زمن ملحوظ من تلك العلامة الزمنية المهمة الأخرى، والتي مثلتها الحملة الصليبية الأولى (١٥٩٠). فهل أخذت الأصداء من الحملات الصليبية لكي توفر الدافع لإقامة الأسواق الكبرى؟ أياً كان الأمر، كان هناك تأخر زمني واضح.

وخلال هذه السنوات، ١١٣٠ - ١٣٦٠، أصبح القطبان التوءمان المتمثلان في البدان الواطئة وإيطاليا مرتبطتين بالفعل - حيث يمر التيار الموصل بينهما، بهذه الدرجة أو تلك، بطرق "البرزخ الفرنسي"، والتي تجتاز أوروبا من الجنوب إلى الشمال. والحال أن السياسات المتحررة والبناءة التي اتبعتها كونتات شامبانيا، بدءاً بتيغو الثاني في عام ١١٢٥، قد أسهمت في انتصار الأسواق الكبرى الشهيرة. وكانت تجري مبادلة منتجات من شرقي البحر المتوسط، التوابل، والمنسوجات الحريرية، علاوة على قروض من التجار الإيطاليين، بالأقمشة غير المقصورة المنتجة في منطقة صناعية واسعة تمتد من الزويدري إلى السين وإلى المارن.

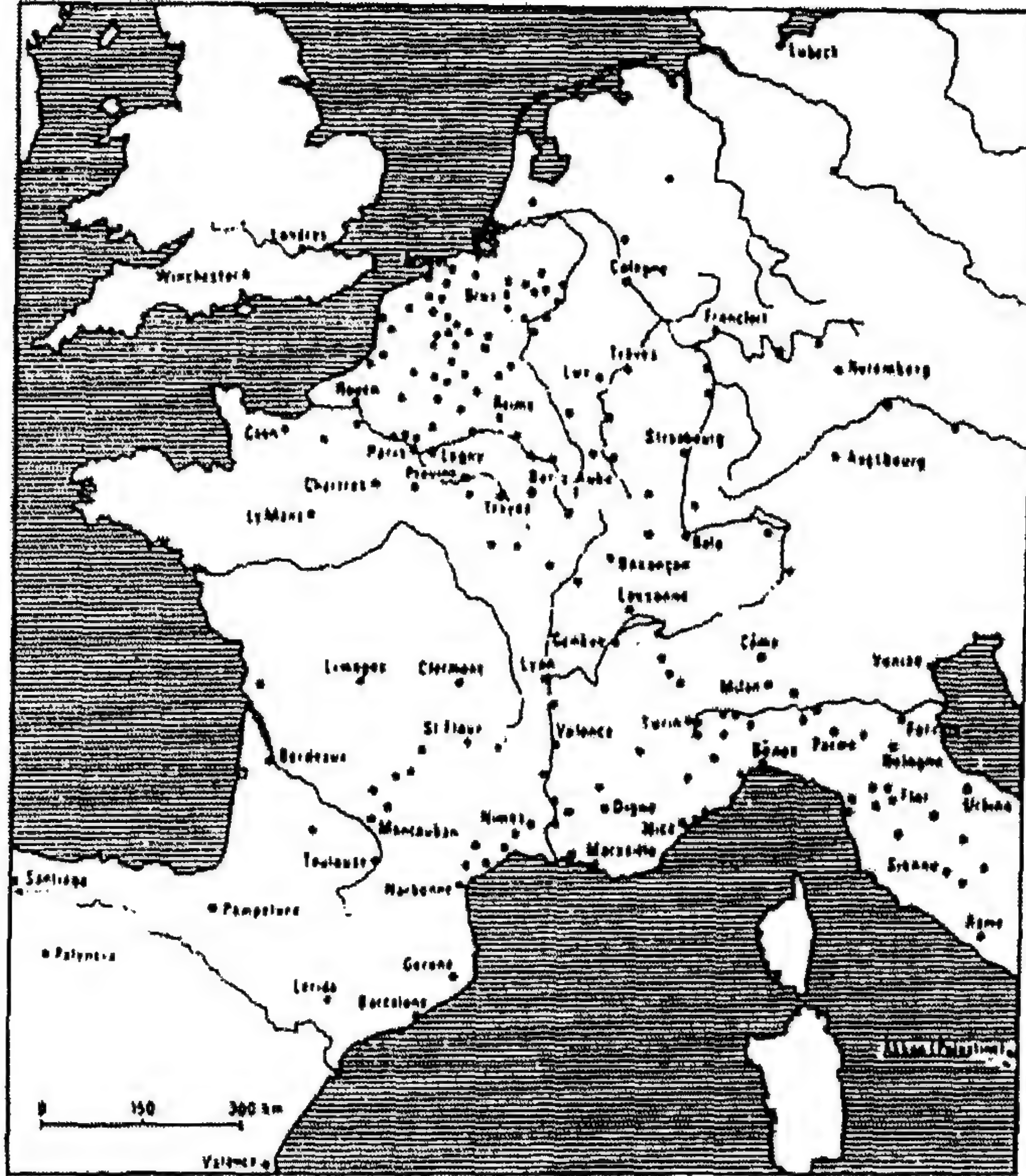
جزئية بسيطة: كيف نفسر الأفضلية الممنوحة لتروا ولپروفان ولبار - سور - أوب وللاني، وللطرق التي (وهذه مشكلة أخرى) لم تكن طرقاً رومانية قديمة، قياساً إلى طرق الشمال - الجنوب التي تمر عبر رانس وشالون ولانجر (٦٦)؟ هل كان هذا "الانقلاب" نتيجة لعداوة كونتات شامبانيا لمدينتي رانس وشالون الأسقفيتين (واللتين كانتا خارج مجال ولايتهم)؟ أم أنه يرجع بالأحرى إلى أن التجار الجنوبيين كانوا مضطرين، أو ميالين إلى أن يكونوا قريبين من مشتري السلع الشرقية، أي قريبين من الحوض الباريسي المركزي ومن عاصمة المملكة، باريس نفسها؟

أياً كان السبب، ففي الأسواق الكبرى المتعاقبة التي تقام بشكل تناوبي دون انقطاع بين هذه المدن الأربع استقر مركز الاقتصاد العالمي الجديد الذي يستوعب أوروبا الغربية ويحكم حياتها الاقتصادية المشتركة الأولى.

ولن نشدد البتة كثيراً على الأهمية التي مثلها هذا الاختيار بالنسبة لفرنسا. فواقع أن مركز هذا الاقتصاد العالمي الجديد يقع على مسافة قصيرة إلى هذا الحد من باريس، والتي تشكل مركزاً رئيسياً آخر، لا يمكن إلا أن يكون واقعاً مهماً. ومن ثم، فإذا كانت باريس قد تحولت إلى مدينة ضخمة، يسكنها ٢٠٠,٠٠٠ نسمة على الأقل بحلول عام ١٣٠٠ تقريباً (٦٧)، وهو رقم لا مثيل له في أية مدينة أخرى في الغرب؛ وإذا كانت قد انفجرت خارج حزام الأسوار - ذي المقاييس السخية بالفعل - والذي يرجع إلى عهد

الشكل ٢٧

المدن المتصلة بأسواق شامباتيا الكبرى
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر



توضح هذه الخريطة الكيان الاقتصادي العام والقطبية الثنائية لأوروبا: البلاد الواطئة في الشمال وإيطاليا في الجنوب.

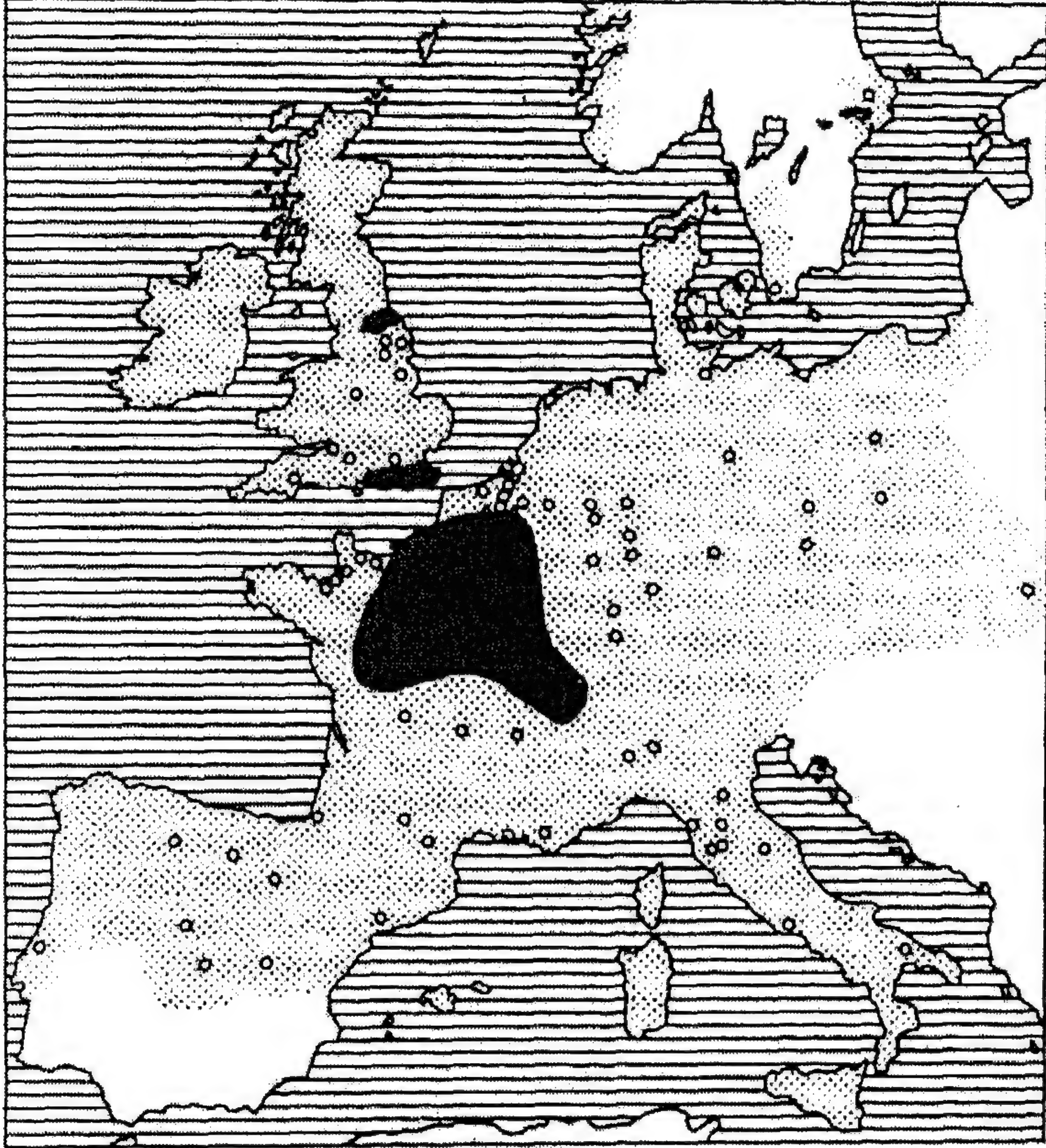
نقلًا عن:

H. Ammann

فيليب أُغسْتُس" (٦٨)؛ وإذا كانت جامعتها قد غمرت بشعاعها أوروبا برمتها؛ وإذا كانت الملكية الفرنسية قد ازدهرت في باريس كسنديانة قضاء، وسمحت لمؤسساتها المركزية بالانجذاب إلى هناك؛ وإذا كانت العمارة القوطية، التي ولدت في فرنسا، قد انتشرت وراء حدودها - فإن أسواق شامبانيا الكبرى، التي ازدهرت حتى نهاية القرن الثالث عشر، كانت مسئولة عن كل ذلك بمعنى ما من المعاني. وفي باريس وحولها على حد سواء، أخذت سلسلة من الكاتدرائيات في الانبثاق على الأرض: سانس في عام ١١٣٠؛ نويون في عام ١١٣١؛ سانلي ولاون نحو عام ١١٥٠؛ نوتردام في عام ١١٦٣؛ شارتر في عام ١١٩٤؛ أميان في عام ١٢٢١؛ بوفيه في عام ١٢٤٧. "في أقل من قرن، أقام أسلافنا هذه العجائب الرخامية. وقد حققوا مآثر غير مسبوقه في هذا العمل: إن ارتفاع صحن الكاتدرائية في سانلي يصل إلى ثمانية عشر متراً، بينما يصل ارتفاع صحن الكاتدرائية في بوفيه إلى ثمانية وأربعين متراً. ولن يبنى أحد بعد ذلك صحناً أعلى" (٦٩). (يرتفع صحن كاتدرائية نوتردام خمسة وثلاثين متراً فقط). وبما أن هذه الكاتدرائيات قد استغرق بناؤها وقتاً طويلاً، فإنها تعد شاهداً ممتازاً على الفترة الطويلة برمتها. لقد بدأ بناء نوتردام في عام ١١٦٣ إلا أن هذا البناء لم يكتمل إلا في عام ١٣٢٠.

من الصعب إذاً أن يستغرب المرء من أن باريس كانت بالفعل بحلول القرن الحادي عشر "المركز الثقافي للغرب" (٧٠)، وأن جامعتها، في السنوات التالية، في سعيها المحموم إلى أفكار جديدة، قد أدخلت الدراسة الثورية للمنطق الصوري وفقاً لأرسطو - أي ما كان يُعتبر العلم آنذاك. والنتيجة أن الفلسفة والنزعة المدرسية قد طمستا الشعر والأدب اللذين كانا حتى ذلك الحين الموضوعين الرئيسيين للبحث. وفي قصيدة ساخرة، يهاجم الفيلسوف ميشيل دو كورنبيي الشاعر هنري دافرانس: "أنا كرسيت نفسي للعلم... بينما أنت تفضل أشياء صبيانية كالنثر والإيقاع وبحور الشعر. ما نفع هذا كله؟ بوسعي القول إن لا نفع له البتة... أنت تعرف أجروميتك، لكنك لا تعرف شيئاً عن العلم أو المنطق. فلماذا تتنفخ أوداجك بينما أنت جاهل؟" (٧١).

ولم يكن البهاء كله يتركز فقط في الحي اللاتيني، المحيط بالسوربون، أو حتى في باريس وحولها. دعوني أذكركم مرة أخرى بأن العمارة القوطية في فرنسا قد انتشرت طويلاً وعرضاً، فمن موطنها الأول، الإيل دوفرانس، رحلت إلى جرمانيا وإسبانيا الشمالية وجنوب إنجلترا، بل وإلى مناطق أبعد مثل كراكوف وميلانو وسينيا في شمال



المنطقة المظلمة تظليلاً أكثر قتامة تبين الموجة الأولى للعمارة القوطية في القرن الثاني عشر (الدوائر السوداء)؛ أما المنطقة الفاتحة أكثر فهي تبين انتشار العمارة القوطية في القرن الثالث عشر (الدوائر البيضاء). وتشير المثلثات إلى عمائر باثدة.

إيطاليا (ولسو أن شبه الجزيرة لم تكن بوجه عام مرحة جداً بهذا الأسلوب الفرنسي). ولتأخذوا مثلاً بسيطاً لكنه دال: في ميدان سينا الكبير، توجد نوافذ قوطية لعدة قصور - فالتجار الأثرياء الذين يملكونها كانوا قد زاروا مدينتي تروا وپروفان. وفي عام ١٢٩٧، أصدرت البلدية قراراً ينص على أنه سعيًا إلى الحفاظ على انسجام المشهد العام، يجب على كل من يعيد بناء أو ترميم بيت في الـ **Campo** أن يراعي انسجام النوافذ على الواجهة مع هذا النموذج "حيث الأعمدة صغيرة ولا وجود لشرفة" (٧٢).

التوسع الجغرافي: الحملات الصليبية

لعل المسئولية عن ظهور أوروبا ترجع إلى الشكل الأبسط للنمو: توسع الساحة الجغرافية التي استولى عليها الاقتصاد الأوروبي والذي راح يمتد في كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة. لقد تم التوسع الإنجليزي على حساب سكتلنده وإيرلنده وويلز؛ وفي أوروبا الشرقية، تغلغل الجرمان والسكاندينافيون في البلدان السلافية وبلدان البلطيق؛ وتحول البولنديون والمجريون إلى اعتناق المسيحية قبل العام ألف؛ وفي الجنوب، كان الاسترداد المسيحي لإسبانيا (مع انتصار لاس نافاس دي تولوزا الحاسم) يجري على قدم وساق؛ وفي البحر المتوسط، أعيد الاستيلاء على الباليار وسردينيا وكورسيكا؛ واستقر النورمان في صقلية وجنوب إيطاليا. وأخيراً، مع الحملات الصليبية، كسب الغرب البحر المتوسط وشبكة طرقه التجارية.

وكانت الحملات الصليبية بالطبع ساحة اختبار ضخمة لمصير أوروبا وخاصة لمصير فرنسا (**Gesta Dei per Francos**). وسرعان ما أصبح الغرب شديد العدوانية (١٠٩٤). لقد جاء الدور على أوروبا لكي تغزو، بعد أن كانت هي نفسها التي تتعرض للغزو؛ جاء الدور على أوروبا لتلعب دور البربري تجاه القوى التي اصطفت ضدها: الإسلام وبيزنطة؛ جاء الدور على أوروبا لكي تمارس الفتح والاستغلال وإنزال النوايب بالآخرين، في انقلاب للأدوار. لقد جرى إشعال حمية دينية لن تخمد لعدة قرون وكانت الامبريالية والاستعمار مسألة تفرض نفسها بقدر ما كانت هدفاً اختيارياً بل وبأكثر من هذا القدر. وقد اختار فردينان لو أن يشير إلى الظلال والأفعال القاتمة في هذه الحملات المتكررة، فقد أوضح، بشكل مشروع، أنها كانت مماثلة للفتوحات الوحشية للعالم الجديد، حيث أظهرت درجة مماثلة من العنف. والفارق الوحيد - لكنه فارق مهم - هو أن العدوان الأوروبي في أمريكا لم يواجه غير حضارات إما أنها كانت ما تزال

بدائية أو ذات حماية هزيلة من الناحية المادية. والحال ليست كذلك في إفريقيا الشمالية أو الشرق الإسلامي، أو في المنطقة التي تسيطر عليها بيزنطة، والتي جرى غزوها في عام ١٢٠٤ ولكن دون أن يجري بحال تحويلها إلى رماد. على أن مثل هذه التأملات، بالرغم من اتصالها بالأجل الطويل، إنما تبعدنا كثيراً عن موضوعنا - الشكل الأول للتوسع الأوروبي، وهو معيار قاس، لكنه بليغ، للحكم على الاقتصاد والحضارة اللذين قاما في أوروبا، وداخل أوروبا، في فرنسا.

الطريق المابط (١٣٥٠-١٤٥٠)

هل هذا العنوان الهاديء هو العنوان الأنسب لوصف الأعوام المائة العاصفة التي يرى روبرت فوسيه أنها "تتقاسم مع القرنين العاشر والعشرين المجد المشبوه، مجد أنها الأكثر عنفاً في التاريخ الأوروبي" - وفي التاريخ الفرنسي أيضاً (٧٣)؟ ألم يكن من الأفضل العثور على تعبير أكثر صخباً عن هذه الأعوام الواقعة بين محن فيليب السادس دو فالوا وانتصارات شارل السابع "المخدوم على نحو رائع"؟ تعبير قد يكون من قبيل "الكساد العظيم" أو "السياق الشيطاني"؟ فأوروبا، بعد مسيرتها الصاعدة غير العادية، الصعبة ولكن طويلة العمر، قد وجدت نفسها أسيرة انحدار مباشر، ضخم، واسع الانتشار، وعنيف: وهو انحدار أعتقد أنه كان اقتصادياً أولاً وأساساً.

يرى روبرت فوسيه أنه "إذا كان أتباع سيمييان [وهو واحد منهم، شاء ذلك أم أبى، وأنا واحد من أتباعه الأكثر إخلاصاً بكثير] يومئون برؤوسهم ويرون بعداً اقتصادياً عاماً في هذه الأعوام، مرحلة "B"، كما يسمونها (٧٤)، مرحلة الكساد، [فإن ذلك] ليس من شأنه إلا أن يضيف مصراعاً آخر إلى رافدة المذبح" (٧٥). لكنني لا أعتقد بالمرّة أن تفسيراً من النوع السيمياني هو مجرد "إضافة": إنه بالأحرى يستوعب جميع التفسيرات الأخرى ويربط فيما بينها. وهو لا يقتصر على "البعد الاقتصادي". لأنه عندما يتأثر الاقتصاد على كل مستوى، ويجد نفسه عاجزاً بشكل دائم إما عن استعادة توازنه أو عن تصور علاجات ملائمة، فيمكننا أن نكون واثقين من أن ما وراء ذلك هو شيء أكثر من الاقتصاد، وأن أسباباً كثيرة للانحلال تمارس فعلها.

وقد اعتاد التفسير التقليدي أن يبدأ بالطاعون الأسود، الذي ضرب فرنسا لأول مرة في عام ١٣٤٧، "كركلة موجهة إلى المحشر البشري"، في نهاية فترة التوسع الديموجرافي (٧٦). لكن السجل الزمني للوباء يتلو المؤشرات الأولى للكساد

الاقتصادي. ومنذ أعوام ١٣١٥ - ١٣٣٠، كانت سلسلة من الشتاءات الرهيبة قد أدت بالفعل إلى مجاعات ودلائل منذرة مزعجة. وسوف تعقب ذلك مجاعات أخرى، في عام ١٣٤٠ في بروفانس وفي عام ١٣٤٨ في الليونية. والحال أن الوباء الذي انتشر عندئذ "قد أطال أمد وزاد حدة اتجاه [ديموجرافي] هابط كان مائلاً بالفعل، ومن هنا آثاره التي يصعب علاجها" (٧٧).

كان قد مر بالفعل بعض الوقت على وصول الانتاج الزراعي إلى ذروته، وكان قد توقف عن التزايد بالسرعة التي يتزايد بها السكان. ويذهب أندريه شيدفيل في كتابه الرائع (٧٨)، إلى أنه في الريف المحيط بشارتر "كان الركود قد حدث بالفعل بين عامي ١٢٢٠ و ١٢٣٠". وكان استصلاح الأراضي الزراعية قد انتهى. "وقد سُجِّلت آخر استصلاحات مهمة نحو عام ١٢٣٠. إن أزمنة القديس لويس القديمة الطيبة، والتي سوف يتم تذكرها فيما بعد بشيء من الحنين، لم تكن بالتأكيد أزمنة مصاعب خطيرة، إلا أنه [في إقليم شارتر على أية حال] كان معاصرو الملك الورع قد تركوا بالفعل وراءهم أفضل أيامهم". ومن الوارد بالطبع أن الريف المحيط بشارتر كان ضحية لموقعه: فهو بعيد جداً إلى الشمال بحيث يصعب أن تتوافر فيه مزارع كروم كثيرة، وهو بعيد جداً إلى الغرب بحيث يصعب دمجها في المناطق الواسعة لانتاج المنسوجات، ومن ثم فقد فشل، في أواخر القرن الثاني عشر، في العثور على تلك الريح الثانية التي ربما كان بوسعها إنقاذه. إلا أنه في أماكن أخرى أيضاً، كان استصلاح الأرض قد توقف قبل وقت طويل من الطاعون الأسود: "بحلول عام ١٢٣٠ حول باريس، بحلول عام ١٢٥٠ تقريباً في پواتو وبيكاردي ونورماندي وپروفانس؛ بحلول عام ١٢٧٠ في ... سولونية ...؛ ١٢٩٠ في ليموزان والبوردييه والپرانس؛ ١٣٢٠ في الفوريز ... ودوفينه" (٧٩)، وبين عامي ١٢٨٤ و ١٣٥٠ حول بار - سور - سين ... (٨٠).

والحال أن النهاية المبكرة لاستصلاح الأرض كانت بحد ذاتها علامة منذرة، شأنها في ذلك شأن توقف تزايد السكان، والذي قلما يتجاوز نهاية القرن الثالث عشر. ويكتب فوسيه فيقول: "بين عامي ١٣١٠ و ١٣٢٠، بل وقبل ذلك أحياناً، لنقل بين عامي ١٢٨٠ و ١٢٩٠ مثلاً، يبدو أن أوروبا المسيحية كانت قد وصلت إلى ذروة توسعها الديموجرافي" (٨١). وذلك أيضاً هو رأي روبرت فيليب الذي يرى، مستخدماً سجلات أبرشية شارتر، أن ذروة الموجة الديموجرافية الكبرى إنما تقع في زمن ما قريب من عام ١٢٨٠ - أي قبل الطاعون الأسود بوقت طويل. أما السقوط "بقدر ما

يمكننا تقدير ذلك... فهو يبدأ نحو عام ١٢٨٠ وقد زاد من سرعته [بعد ذلك] كل ظرف غير مؤات (٨٢). ويحدد جي بوا "نقطة تحول المنحنى الديموجرافي" في نورماندي "قرب منعطف القرن" (٨٣). وأنا لا أزعم أن التغير السكاني، مع كونه "مؤشراً" أولاً، يحكم كل ما عداه، لكنه يقدم مؤشرات جد واضحة على مسار سيرورة استغرقت زمناً طويلاً وشهدت تحولاً درامياً. والحق إننا لا نحوز غير رقم واحد وحيد يمكن أن يكون قريباً من المعقولية بالنسبة لسكان فرنسا (إن جاز أصلاً أن يوصف بهذه الصفة): في عام ١٣٢٨، عام ارتقاء فيليب السادس دو فالوا العرش، يبدو أن السكان الفرنسيين قد وصلوا إلى رقم إجمالي، خرافي عندما نستعيده ونتأمله الآن، قدره نحو عشرين مليون نسمة. ومن هذه الذرى، كان الانحدار مباغتاً وسريعاً: ففي عام ١٤٥٠، جرت الإشارة إلى رقم قدره نحو عشر ملايين - بما يشكل انحداراً إلى نصف الرقم الأول. بل إن الانحدار ربما كان أكثر حدة بكثير، إذا ما اعتمدنا على تقديرات تتصل بعينة صغيرة في نورماندي: "عند أدنى نقاط المنحنى، كان نحو ثلاثة أشخاص يعيشون في المكان الذي كان يعيش فيه من قبل عشرة" (٨٤).

لكن الانحدار لم يكن منتشرًا بشكل متساوٍ على مدار نصف القرن الذي شهد انحداراً مطلقاً: فقد حدث في سلسلة من الانخفاضات الحادة التي تخللتها فترات كان السكان يبدأون فيها في التزايد من جديد، ثم يؤدي الانحدار التالي إلى محو كل من المكاسب الجديدة وجانب من رأس المال السابق. وهكذا ففي نورماندي العليا، بعد "مرحلة استرداد أولى" دامت نحو أربعين سنة، على أثر الكوارث التي رافقت الطاعون الأسود في منتصف القرن الرابع عشر، حدث انحدار حاد آخر بين عامي ١٤١٥ و ١٤٢٢، ثم تلاه إحياء تدريجي من عام ١٤٢٢ إلى عام ١٤٣٥، قبل أن يتم محو جميع المكاسب مرة أخرى بين عامي ١٤٣٥ و ١٤٥٠، من جراء أزمة رهيبة، أطلق جي بوا عليها اسم "هيروشيما نورماندي"، في بحثه عن تسمية تتناسب مع مدى الكارثة (٨٥). إن الحاصد الكثيب قد حمل المنجل مرة أخرى. وقد ذهب چاكوب فان كلافيرين إلى أن انتاج الكائنات البشرية، لو ترك لنفسه، هو الصناعة الوحيدة التي لا تعمل وفقاً لقانون الغلة المتناقصة. إلا أنه في مواجهة قوة الحياة هذه، الإمكانيات هذه، ترتسم ظروف، مناوئة أو مؤاتية.

ومن المؤكد أن الطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة يندرجان تحت عنوان الظروف المناوئة. إلا أنه كان هناك أيضاً قانون قاس للغلة المتناقصة يمارس فعله،

ويجعل من المستحيل مواصلة التوسع السابق . وكانت ما تزال هناك أراضي جديدة تجب زراعتها، لكن تربتها كانت رديئة جداً بحيث إن زراعتها ما كانت لتساعد على إطعام أحد . ومن ثم فقد كان هناك فائض سكاني، وعندما انهارت تحت عبئه هو، انهالت عليه مصائب أخرى: إن السلطات الضريبية الملكية قد طرحت مطالب مسرفة، وفرضت على الفلاحين "ضريبة إضافية" أدت إلى الاضطراب في عام ١٣٣٧ . وانطلق عنان التلاعب بالعملة: "بين أكتوبر ١٣٥٨ ومارس ١٣٦٠، تغيرت قيمة العملات الفضية ما لا يقل عن عشرين مرة" (٨٦) . وتحت هذه الضربات المتكررة، بدأ المجتمع نفسه ينهار ويتفكك: إن الفلاحين، الذين بوغتوا في زخمهم، قد انحدروا إلى الكارثة؛ بينما شهد السادة انحدار إيراداتهم وانصاعوا لإغراءات الحرب وأعمال قطع الطريق واللصوصية . وقد تحدث المؤرخون عن أزمة وعن "أفول الإقطاع"، لكن أي نظام اجتماعي لا ينهار إلا لكي يفسح السبيل أمام نظام اجتماعي آخر .

الطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة

في عام ١٣٤٧، اجتاح الطاعون الأسود، وهو مصيبة ذات أبعاد خطيرة، أوروبا التي كانت قد نسيت لزمان طويل هذا الوباء، منذ أوبئة القرون السادس والسابع والثامن القاتلة ولكن البعيدة زمناً . وقد جرى النظر إلى الطاعون بوصفه شراً غير مسبوق بالمرة . والحال أن جي دو كولياك، الطبيب الشهير لبابا أفينيون كليمون السادس، قد كتب فقال إن مثل هذا الطاعون لم يحدث من قبل قط . لأن كل الطواعين المعروفة في السابق "لم تُصَب غير إقليم محدد، في حين أن هذا الطاعون عالمي، وكانت الطواعين الأخرى قابلة للعلاج في بعض الحالات، أما هذا الطاعون فهو غير قابل للعلاج في أية حالة" (٨٧) . والمناطق الوحيدة التي نجت من الطاعون الأسود بين عامي ١٣٤٧ و ١٣٥٠، وإن لم تكن نجاتها كاملة أيضاً، هي مناطق داخلية قليلة في أوروبا الشرقية، ولم تنج في الغرب سوى البيارن ورويرج ولومباردي والبلدان الواطئة: أي الأقاليم المحمية إما بعزلتها - حيث لا تتصل بالطرق الرئيسية التي انتقل الوباء عبرها - أو برفاهها الاستثنائي، والذي يعني وجود سكان جيدي التغذية ومن ثم أكثر قدرة على مقاومة الداء .

ولم تكن مصائب الطاعون تشبه بحال من الأحوال مصائب الأمراض العادية، مع أن هذه قد تفاقمت خلال العقود السابقة من جراء المصاعب الاقتصادية . وفي فرنسا،

كانت الموجة الأولى للطاعون الدبلي (١٣٤٨ - ١٣٤٩)، والتي اجتاحت البلد كله من الجنوب إلى الشمال، موجة كارثية: وبحسب الإقليم، هلك ربع أو ثلث أو نصف أو، في بعض الحالات، ٨٠ في المائة أو ٩٠ في المائة من السكان. إن فرنسا، مع بقية أوروبا، قد طالتها الخراب التام. وفيما بعد، لم يختف الطاعون من الغرب بل كان يجيء ويذهب، ويختفي من مكان ليظهر قوياً في مكان آخر، ثم يعاود خطواته. إن دورة جديدة للوباء قد بدأت، وهي دورة تبدي عين سمات الدورات التي كانت تحدث قبل ذلك بألف سنة.

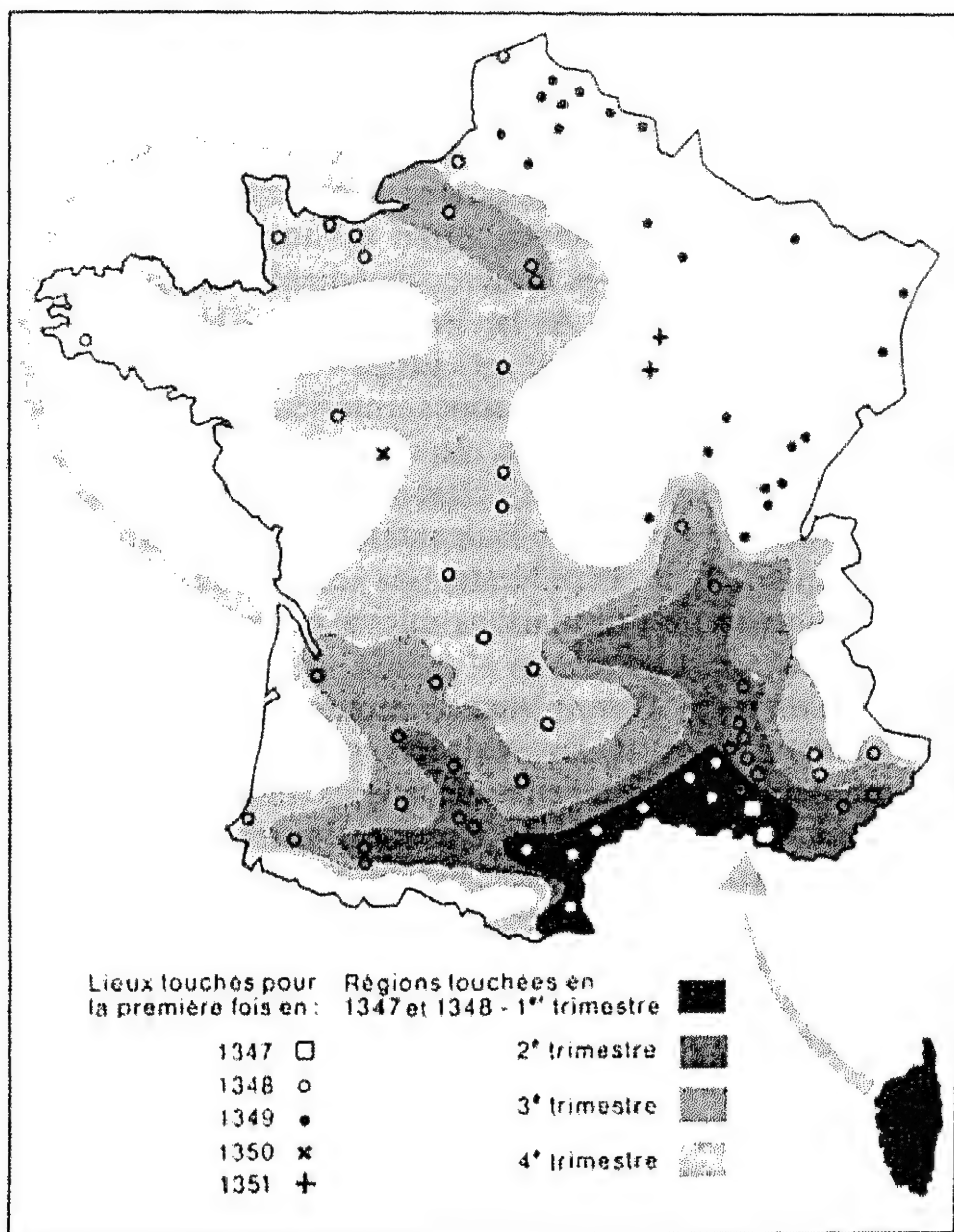
وإذا استندنا إلى السجلات الدقيقة التي جمعها الدكتور بيرابن، فقد يبدو للوهلة الأولى أن الطاعون كان مائلاً في أوروبا بلا انقطاع تقريباً حتى عام ١٦٧٠، العام الذي رمز إلى اختفائه التام (كان الانفجار الوحشي للوباء في مرسيليا بعد ذلك بخمسين سنة في أعوام ١٧٢٠ - ١٧٢٢ مقتصرأ على جنوب فرنسا الذي مسه الوباء من جديد، كما في الماضي، عن طريق الطرق البحرية) (٨٨). والواقع أن الداء كان ينتشر بصورة متقطعة، إذ كان انتشاره يحدث كل خمس أو ثماني أو عشر سنوات تقريباً، مع تخفيفات لحدته وفترات هادئة بين مرات انتشاره. وكان انتشاره ينتقل من مكان إلى مكان: فباستثناء سنوات ١٦٢٩ - ١٦٣٦، لن يضرب فرنسا كلها أبداً مرة أخرى في وقت واحد. لكنه كان يدور بلا كلل داخل حدودنا. وبمرور الوقت، أصبحت مصائبه أقل حدة: ففي القرن السابع عشر، لم يتسبب في زيادة في معدل الوفيات إلا بنسبة ٥ في المائة أو ٦ في المائة في المتوسط (٨٩). ثم لأسباب ما تزال غامضة، اختفى تماماً في أوروبا القرن الثامن عشر (٩٠)، مثلما كان قد سبق له الاختفاء تماماً منها قبل عدة مئات من السنين، بعد أن ظل موجوداً لقرون متصلة - بما يشكل تكراراً غريباً لسيرورة واحدة. ولذا فلا يجب أن نبالغ في تقدير الدور الذي لعبته تدابير العزل الصارمة المتخذة ضد المدن أو الأقاليم الموبوءة، مع أنها قد تبدو معقولة إلى حد بعيد. ويبدو أن تاريخ الطاعون يتبع بالأحرى دورة بيولوجية طويلة الأجل من نوع ما.

والمقصود من وراء هذه الملاحظات هو رصد وتيرة الطاعون الأسود وأهميته، أي التدشين المخيف لمرحلة مروعة سوف تستمر لمدة ثلاثة قرون. على أن الطاعون، بالرغم من عنفه وإلحاحه، قد خضع لعين القوانين التي تخضع لها جميع الأوبئة الأخرى: إن فجوات عظيمة قد ظهرت في السكان، إلا أنه بمجرد انقضاء الخطر، كانت الحياة تعيد تأكيد نفسها، وكانت الجراح تلتئم، وكان الأرامل، رجالاً ونساءً،

يتزوجون بسرعة من جديد (يقول لنا چان دو فينيت " إن من كتب لهم البقاء من الرجال والنساء قد تدافعوا بالمناكب إلى الزواج ") (٩١) وكان معدل المواليد يرتفع كما هو متوقع . وفي جيفري في بوجونيا ، كان العدد السنوي المتوسط العادي للزيجات ١٥ زيجة ؛ أما في عام ١٣٤٩ فقد ارتفع إلى ٨٦ زيجة (٩٢) .

لكن آثار الطاعون قد تضاعفت من جراء الخراب الناجم عن حرب لا تنتهي أبداً . وحرب الأعوام المائة لم تكن شيئاً يشبه الحروب الحديثة بالطبع . وسوف يكون من الأنسب وصفها بـ " مائة سنة من الاشتباكات لا حرب مائة عام " (٩٣) . فالمعارك - الاجتماعية والفوضوية والسياسية بالقدر نفسه - كانت متقطعة ، تتخللها هدنات ومفاوضات . وفي المتوسط ، ربما كان هناك قتال فعلي يستغرق عاماً في كل خمسة أعوام . لكن الخراب حل بالريف ، إما عن طريق القوات التي تمارس النهب ، والتي عاشت بشكل متواصل على حساب الأرض ، أو عن طريق تآكيد الأرض المحروقة ، والذي كان يهدف إلى حرمان العدو من الإمدادات . والحال أن الفلاحين الذين احتموا خلف أسوار المدينة كانوا ، متى تسنى لهم ذلك ، يرجعون إلى أراضيهم بمجرد انقضاء الخطر . أو أنهم ، كما ذكر ذلك توماس بازان ، كاتب أخبار شارل السابع ، كانوا يكتفون بزراعة قطع قليلة من الأرض " كما لو كانوا يزرعونها سراً " ، " حول أو داخل المدن " ، مستعدين للانسحاب وراء الأسوار عند أول إنذار بالخطر (٩٤) . وهكذا ظلت حقول كثيرة مهجورة ، وكان الخوف من الحرب ، المجتمع مع هبوط حاد في السكان ، يعني انتشار الأرض المهملة من جديد . والحال أن فيليب دو لا بواسير ، رئيس قيادة فرسان الاستتارية في بروي - دي - پا في عام ١٤٤١ ، قد كتب وهو يتحدث عن الجيل السابق فقال إن " أرض سانتونج هذه ، باستثناء المدن والحصون ، كانت مهجورة وغير مأهولة . . . وبينما كانت قد وُجدت هناك في وقت من الأوقات مزارع وضياع وأراضي تركت ، فإن الأشجار الكثيفة قد راحت تنمو وتعلو " . وفي عام ١٤٧٢ ، كانت ما تزال توجد في هذا الإقليم نفسه " قفار كانت في يوم من الأيام حقولاً للكروم " (٩٥) .

وبوسعنا أن نورد ألف تقرير مباشر مماثل من كافة أرجاء فرنسا . ومن المرجح أن من الصحيح بوجه عام أن " أقاليم قليلة هي التي أثرت الحرب عليها تأثيراً عميقاً ومقيماً " ، إلى جانب الأقاليم التي " كان القتال فيها ممتداً ، كإقليم باريس [أو] الأقاليم التي عسكر فيها الجنود القدماء ، كبروفانس " (٩٦) . ومن جهة أخرى ، لم يفلت إقليم واحد إفلاتاً تاماً . بل إن المسيف الأوسط ، الذي كان بعيداً عن الحرب عادةً ، والذي



نقلًا عن:

Jean Favier, *la France médiévale*, 1983.

وجد فيه شارل السابع في نضاله ضد بوجونيا مساعدين يحتلون موقعاً ممتازاً، قد اخترقه الأمير الأسود في عام ١٣٥٦: لقد عثر الإنجليز على "أرض أوفرنيا التي لم يسبق لهم قط دخولها... وكانت جد مزدهرة وكانت جد عامرة بجميع أنواع الخيرات بحيث كانت رؤيتها مصدراً للعجب"، كما قال فراسار (٩٧).

وفي باريس، كان الأرمنياك والبورجونيون يتنافسون فيما بينهم للبرهنة على المدى الذي يمكن للتعطش إلى الدماء أن يمضي إليه: إن أعمال القتل والمذابح لم تتوقف قط. وعندما دخل البورجونيون العاصمة في مايو ١٤١٨، كانت مفروشة بجثث الأرمنياك "المتراكمة تراكم خنازير في الوحل" (٩٨). وقد عاش الباريسيون زمن "محنة ولعنة" كابوسي، زمن "عالم يقترب من نهايته"، بحسب تعبير الشاعر أوستاش دوشان (٩٩) (ولد في عام ١٣٤٦). أما پترارك، الذي زار فرنسا قرب نهاية عهد جان الصالح، نحو عام ١٣٦٠، فقد مسه الدهول: "لا يكاد يسعني تمييز أي شيء أراه. إن المملكة الأكثر ثراءً بين الممالك كوم من الرماد؛ ولا قيامة لبيت واحد باستثناء البيوت المحمية بأسوار المدن وبالقلاع. أين أصبحت الآن باريس التي كانت مدينة جد عظيمة؟" (١٠٠).

على أن باريس اجتازت الكوارث وظلت، حتى نهاية القرن الرابع عشر وبعده "المركز الذي تُصاغ فيه الموضوعات، وتُبكرُ فيه الشعائر الاجتماعية ويتشكل فيه أسلوب حياة ويُصاغ فيه ذوق جميع أولئك الذين يسعون في أوروبا إلى أن يحيا حياة كريمة" (١٠١). لقد كانت ما تزال عاصمة، لكنها عاصمة عفنة ومورثة للعفن، غارقة حتى عنقها في الحرب ومتكيفة معها تكيفاً تاماً - شأن أنفير [آنتويرب] في عام ١٥٦٧ عندما وصل الدوق دالب إليها، وجعل منها العاصمة الحربية للبلدان الواطئة؛ أو شأن سايجون خلال حرب "نا" الفيتنامية [حرب الهند الصينية]، البارحة.

وفي نهاية هذا الاحتضار، كان السكان الفرنسيون قد انكمشوا انكماشاً حاداً. وإذا كانت المملكة قد ضمت، في عام ١٣٢٨، ما بين ٢٠ و ٢٢ مليون نسمة، فيجب أن نقبل أن عدد سكانها قد هبط، في عام ١٤٥٠، ربما إلى ١٠ مليون أو ١٢ مليوناً عند أقصى تقدير - وهو رقم من المرجح أنه أعلى من رقم السكان في زمن شارلمان. ولكن ما أبشع انحداره!

عودة إلى الاقتصاد العالمي

لم تكن فرنسا بالطبع البلد الوحيد الذي تأثر بمنحنى ١٣٥٠ - ١٤٥٠ الهابط (كل من التاريخين تقريبي). ومن المؤكد أن القاريء يعرف، من كتب التاريخ العام الممتازة الكثيرة المتاحة، أو من السطور السابقة، أن التفسيرات المتعلقة بكل من التوسع والانكماش إنما تنطبق على أوروبا ككل. وقد كان التاريخ الفرنسي إلى حد بعيد نتيجة للبيئة المحيطة. وحرب الأعوام المائة، بالرغم من أنها خيضت أساساً على الأرض الفرنسية، لم تكن - كيف أعبر عن ذلك؟ - مأساة فرنسية شخصية. لقد كانت أشبه ما تكون بوباء، اجتاح القارة كلها، ومد جذوره فيها، وانتشر طويلاً وعرضاً، وكانت آثاره واحدة إلى حد بعيد في كل مكان. وعبر كل أرجاء أوروبا، كانت العصابات المسلحة تمارس النهب بشكل شائن، ولا تطيع إلا زعيمها، كوندوتيريها (condottiere): "قد يضع الأخير نفسه في خدمة أمير بدلاً من أمير آخر، لكن المسألة كانت مجرد مسألة من الذي يدفع أكثر. لقد انحاز چان شاندو وروبير نوليس وچون فالستاف إلى صف الإنجليز، بينما خدم دي جيسكلان وجريسار وسيرفول آل فالوا؛ وكان هوكوود يعمل لحساب البابا في روما، بينما كان كولينيوني يعمل لحساب البندقية؛ أما كامپوباسو وبيآندرادر فقد عملا لحساب كل من يدفع لهما أكثر، في حين أن فرانثيسكو سفورزا كان يعمل لنفسه فقط" (١٠٢).

فهل من المحتمل أننا نحن المؤرخين الفرنسيين قد ضخمنا أحداث حربنا التي دامت مائة عام، وكأننا نخص أنفسنا بجميع مآسيها؟ وكأن فرنسا وحدها هي التي تورطت في الحرب وليس فرنسا بالإضافة إلى أوروبا. وكأن علامات الأزمة نفسها يستحيل رصدها في كل مكان: نقص مأساوي في النقود (١٠٣)؛ تبدلات مفاجئة ومتكررة في نسبة الذهب إلى الفضة، هبوط في أسعار الحبوب وفي الدخول الزراعية عموماً، أكانت دخول مالك الأرض أم الفلاح، قياساً إلى الأجور والأسعار "الصناعية"، التي ظلت مرتفعة نسبياً في كل مكان. وفي كل مكان كان هناك ذلك التفاوت في المحنة والذي أعطى المدن ميزة متزايدة: لقد كان صمودها للعاصفة أفضل. ومن بولنده إلى المحيط الأطلسي، ومن بحر الشمال إلى إسبانيا، كان يجري صوغ تاريخ واحد.

إلا أنه كان من الصعب أن يوجد تقهقر عام على النطاق الأوروبي دون شيء من الاضطراب والفوضى وتحول لمركز الاقتصاد العالمي يفسره. والواقع أن تحول المركز

قد حدث بالفعل .

فخلال عصر النشاط الفائر، كان المركز قد تحدد على مدار مائة عام أو نحو ذلك داخل مربع أسواق شامبانيا الكبرى النشيط . وحول هذا المركز كان يتذبذب ذراع توازن أساسي: فعلى أحد الجانبين نجد البلدان الواطئة، وعلى الجانب الآخر نجد إيطاليا الشمالية بمدنها، وهي متعددة القوميات بالفعل آنذاك،: البندقية، ميلانو، جنوه، فلورنسا. وكان الشمال يرمز إلى تجارة الأقمشة، بينما كان الجنوب يرمز إلى التجارة الكبيرة والأعمال المصرفية - مما يميل بالميزان ميلاً حاسماً إلى صالحه. ومن ثم فقد رمز انحدار أسواق شامبانيا الكبرى إلى نقطة تحول: إن ازدهارها، من زاوية السلع، لم يستمر إلى ما بعد نهاية القرن الثالث عشر؛ والمدفوعات من سوق كبرى إلى سوق كبرى أخرى، بعبارة أخرى آلية الائتمان، لم تستمر إلى ما بعد عام ١٣٢٠. وبحلول عام ١٢٩٦، كان رجال الأعمال الفلورنسيون قد بدأوا بالفعل ينتقلون إلى ليون(١٠٤). و"يُعتقد أن إيراد الأسواق الكبرى [من حيث الضرائب] قد هبط من ست آلاف أو ثماني آلاف livres في القرن الثالث عشر إلى ١٧٠٠ livres في أوائل القرن الرابع عشر، ثم عاد إلى الصعود بصعوبة إلى ٢٦٣٠ livres بحلول عام ١٣٤٠" (١٠٥).

وهذا في مجمله إنما يعد نقطة تحول حاسمة بالنسبة لأوروبا، وبالنسبة لفرنسا. ففي عام ١٢٩٧، نجح الإيطاليون في إقامة أول خط بحري مباشر ومتنظم عبر جبل طارق إلى ساوثامبتون ولندن وبريج، بفضل سفن جنوه الشراعية الضخمة، والتي سوف تتلوها على آمد أطول أو أقصر سفن متوسطة أخرى (لم تدشن سفن البندقية الشراعية الضخمة رحلاتها الأولى إلا في عام ١٣١٧) (١٠٦). وفي الوقت نفسه، تحركت الطرق الأنشط عبر الألب في اتجاه شرقي أبعد: فبدلاً من ممري مون - سيني وجران - سان - برنار، استخدمت المواصلات الآن ممرات سيمبلون وسان - جوتار وبرينز. ولم يخرج البرزخ الفرنسي من دائرة الاستخدام، لكنه واجه منافسة و، من حيث الجوهر، فشل في هذه المنافسة وانحدرت أهميته. ولا مرأ في أن الفضة القادمة من المناجم الألمانية كانت إحدى القوى الكامنة وراء هذا التغيير للطرق (١٠٧).

والنتيجة النهائية هي أن فرنسا، التي كانت أسواق شامبانيا الكبرى قد أضفت عليها قدراً من الحيوية - على الأقل في بعض المناطق كوادي الرون والشرق والحوض الباريسي الأوسط - قد وجدت نفسها الآن مفككة، ومعزولة من الناحية العملية عن الطرق الرئيسية التي اتخذتها الرأسمالية الأوروبية. وسوف يكون هذا التهميش طويل

العمر. والحال أن البلدان التي سوف تستفيد من الرأسمالية الآخذة الآن في التشكل كانت تقع بشكل غريب على دائرة تحيط بفرنسا، ولكن عن بُعد: دائرة شكلتها الطرق المارة عبر ألمانيا، والممرات البحرية التي تسلكها سفن البحر المتوسط، والتي كانت ترسو أحياناً في مارسيليا والايج - مورت، إلا أنها كان من المحتمل أكثر أن تزور برشلونه وفالينسيا وسيفيل ولشبونه، قبل أن تمضي مباشرة إلى الشمال عبر خليج جاسكونيا، ثم مباشرة إلى سوثامبتون ولندن وبريج. ولم تكن تتوقف في أي ميناء فرنسي إلا في حالات الطوارئ (ربما باستثناء لا روشيل، حيث أقام التجار الفلورنسيون الذين حموا المدينة خلال حرب الأعوام المائة)(١٠٨). وهكذا كانت فرنسا محاطة بدائرة من الطرق.

وكان استقرار الاتصالات الجديدة بطيئاً كما هي حال مثل هذه المشاريع غالباً. لكن التوازن الذي كان يجري خلقه آنذاك كان يميل إلى صالح إيطاليا. وهكذا فخلال الأزمنة الرمادية والقاتمة التالية، سوف تكون إيطاليا "في مأمن" نسبياً، بحسب تعبير الاقتصاديين.

وقد أصبح الصراع على الهيمنة أكثر شراسة وإثارة بين المدن الكبرى في شبه الجزيرة، والتي كانت كل واحدة منها مركزاً رئيسياً بالفعل، مرتبطاً بالاقتصاد الدولي. إن فلورنسا التي كانت حتى الآن مكتفية بشراء الأقمشة الصوفية غير المقصورة من الشمال ثم صبغها، وهو ما شكل وظيفة الـ **Arte di Calimala** في المدينة، قد بدأت في صناعة أقمشتها الخاصة مع صعود الـ **Arte della Lana** السريع(١٠٩). وقد انتصرت المدينة، ليس فقط في القطاع الصناعي وإنما أيضاً في قطاع الأعمال المصرفية والمالية المحفوف بالمجازفات أكثر من سواه - وهو قطاع كانت لها فيه على أية حال ممارسة طويلة. وقد لعبت فلورنسا بالورقة الإنجليزية ضد فرنسا. أما جنوه، أول من يستشعر الفرصة كالعادة، فقد فتحت الطريق إلى الشمال، عبر جبل طارق، وهو طريق جديد وسوف يصبح منذ تلك اللحظة فصاعداً طريقاً منتظماً. في حين أن ميلانو، التي كانت في ذروة نشاطها، كانت تقترب مما يحتمل أنه كان طبعة مبكرة من الثورة الصناعية(١١٠). فهل الأزمة (وهي موجودة حتى بالنسبة للمحظوظين) هي التي حرمتها من هذا النجاح غير المنجز تماماً البتة وإن كان يبدو في نظر المؤرخين مدهشاً ومثيراً؟

في النهاية، كانت البندقية هي التي انتصرت على منافسيها، وذلك بفضل رأسمالية

قائمة ليس على الأعمال المصرفية بل على التجارة - وهي رأسمالية سوف أصفها بأنها تقليدية وعتيقة الطراز بالفعل. على أن القوة الرئيسية وراء اقتصاد البندقية، في جوانبه الدولية والأكثر ربحية، قد جاءت بالطبع من شرق أوروبا - من البحر الأسود وطريق الحرير، حتى الغزو المغولي في عام ١٣٤٠؛ وبعد ذلك من شرقي البحر المتوسط، خاصة مصر (مستودع الفلفل والتوابل الواردة من المحيط الهندي وبودرة الذهب الواردة من النيجر)، حيث وجدت البندقية مرة أخرى مدخلاً إليها نحو أربعينيات القرن الرابع عشر. والحال أنه على البحر، وفي أسواق الشرق الأوسط والبحر الأسود، خاضت جنوه والبندقية حروبهما التي لا ترحم. وقد ظلت نتيجة الحرب مشكوكاً فيها لوقت طويل، لأن البندقية لم تنجح بشكل نهائي في إزاحة جنوه منافستها والتمتع بممارسة هيمنتها المطلقة في سلام إلا في أواخر القرن الرابع عشر، بعد انتصارها في حرب شيوجيا الدرامية (١٣٨٣)(١١١). وقد أدت هيمنة البندقية إلى تدشين أفول فرنسا، التي ظلت لسنوات تالية خارج السباق بشكل مؤكد، بل وسوف تظل خارجه حتى عند خروج أوروبا أخيراً من النفق.

أوروبا ومصير فرنسا

هل أوضحت بما يكفي، كما كنت أرجو، أن مصير كل من فرنسا وأوروبا قد تحدد بشكل حاسم خلال الفترة الواقعة بين القرن التاسع أو العاشر وعام ١٤٥٠؟ أن هذه القرون هي مفتاح التاريخ الفرنسي؟

السبب الأول: خلال هذه الفترة، كانت أوروبا آخذة في التشكل وفي تأكيد نفسها. ودون أوروبا، لا يمكن أن توجد فرنسا. إن أوروبا هي عائلتنا، شرط وجودنا. ونحن نحيا في قلب أوروبا بالضبط، بشكل أكثر رسوخاً حتى من حياتنا داخل الامبراطورية الرومانية. وقد تجمعت أوروبا ووطدت نفسها حول فرنسا. ونحن الفرنسيين سجنائوها، بين جيران يراقبوننا ويحرسوننا في آن واحد.

السبب الثاني: لم يكن بوسع أوروبا أن تصبح وحدة إلا لأنها قد مثلت أيضاً الملكوت المسيحي؛ لكن الملكوت المسيحي، ومعه أوروبا، ما كان يمكن لهما تأكيد هويتهما إلا ضد آخر ما. فالأسمت الأقوى الذي يربط أية جماعة أياً كان نوعها هو المعارضة لطرف ثالث. وهكذا فقد لعب الإسلام، بطريقته، دوراً في نشوء أوروبا - ومن هنا أهمية الحملات الصليبية.

السبب الثالث : إن عصر التوسع الاقتصادي والسياسي والديموجرافي والثقافي قد أعطى أوروبا قواعدها، أساسها المتين، قوتها الكفاحية وعافيتها التي سوف تحتاجها فيما بعد لمواجهة المحن القادمة.

السبب الرابع : وهو أهم الأسباب. فقد بينت كيف أن حظوظ أوروبا المبكرة قد تمحورت على فرنسا. وبالنسبة لهذه الأخيرة، وفرت أسواق شامانيا الكبرى قرناً من الازدهار النسبي، إلا أنه عندما انتهى ذلك القرن، انتصرت الممرات البحرية على الطرق البرية، ولم تعد فرنسا شريكاً في نشاطات أوروبا الاقتصادية الأكثر تقدماً. لقد كانت حبيسة دائرة خارج حدودها تماماً، تمتد من إيطاليا الشمالية في اتجاه الغرب، عبر جبل طارق، وفي اتجاه الشمال إلى البلدان الواطئة، ثم تلتف عبر ألمانيا وعبر الألب لتعود إلى إيطاليا الشمالية مرة أخرى. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، سوف تكون فرنسا متفرجة على نجاح الآخرين، وسوف يُسِيل هذا النجاح لعبها في مناسبتين على الأقل. ففي سبتمبر/ أيلول ١٤٩٤، عبّر شارل الثامن الألب على أمل فتح إيطاليا: لكن إيطاليا تملصت منه. وفي عام ١٦٧٢، أرسل لويس الرابع عشر وكولبير الجيش الفرنسي ضد هولنده، لكن هولنده أفلتت هي الأخرى. والحال أن أوروبا، بإحاطتها بفرنسا، قد رسمت مصيرها وقيدته في آن واحد. وكان من الأفضل لها لو قامت، في عام ١٤٩٤، أو حتى قبل ذلك، بعبور المحيط الأطلسي بدلاً من ذلك. وفي عام ١٦٧٢، ربما كان من الأفضل أيضاً نصح فرنسا بالتفكير في أمريكا. وهذه آمال زائفة بالطبع - ولكن أليس من شأن تخيل ما كان يمكن أن يكون التاريخ عليه أن يساعدنا أحياناً على فهمه فهماً أفضل وقد أصبح مكتوباً بشكل لا يمكن محوه؟



أبحرت التجارة الدولية حول البحر المتوسط (مع امتدادات إلى المحيط الهندي) وفي اتجاه الشمال حول شبه الجزيرة الأيبيرية إلى بلجيكا وبحر الشمال. أما الطرق التجارية البرية (الخطوط المنقطة) فقد مرت عبر ألمانيا، على الجانب الشرقي من فرنسا، دون أن تمر بفرنسا نفسها.

II

١٤٥٠ - ١٩٥٠:

منحنى صاعد، ويا له من منحنى!

إذا ما نظرنا إلى القرون الخمسة الممتدة من عام ١٤٥٠ إلى ١٩٥٠ كتجربة تاريخية متواصلة واحدة، مع تنمة استكمالية تصل إلى الوقت الحاضر، فسوف يؤدي ذلك على الأقل إلى إرغامنا على أن ننحي جانباً الكثير من تجارب ماضي فرنسا الدرامية، بينما سوف يساعدنا بشكل مثالي على توضيح ذلك التاريخ الأعمق الذي يميل مسلسل الأحداث العادي إلى طمسه. والحال أن استكشافاً يخرق عدة قرون إنما يساعد على إتاحة منظور أفضل، هو المنظور الوحيد الصالح بالفعل لأية محاولة تهدف إلى رسم محصلة تاريخية بناءة.

وسوف يواصل الواقع الديموجرافي احتلال الصدارة خلال هذا البحث الاستكشافي. ولا يرجع ذلك، دعوني أكرر القول، إلى أنني أعتقد أنه العامل المقرر الوحيد، بل لأنه هو في نهاية الأمر السجل الأصح لقياس القوى الفاعلة في التاريخ - دائمة كانت أم مؤقتة، قوية كانت أم ضعيفة. والديموجرافيا تقدم كلاً من عنصر التركيب وعنصر التصنيف. وقد لاحظ بيير شوني محقّقاً أن "السجل الديموجرافي، بالنسبة للمؤرخ، هو المعيار الأساسي، خط الحياة، خط العوم... وليس هناك تاريخ غير تاريخ الناس" (١١٢).

دعونا إذاً نتخيل المستحيل: أن بحوزتنا جميع الأرقام والمنحنيات البيانية التي نحتاجها: عن السكان والانتاج وتداول السلع وحركات الأسعار - وأن بوسعنا التمييز بوضوح بين جميع تبدلات مراحلها. سوف يكون بوسعنا على الأقل استخلاص نتيجة واحدة: بالرغم من جميع التقلبات المسجلة، لم تعان فرنسا قط مرة أخرى من تقهقر كارثي كتقهقر ١٣٥٠ - ١٤٥٠. لم تحدث ضربة قاتلة أخرى، لم تنفتح هوة تبتلع ثلث أو نصف السكان الفرنسيين. وحتى تحدث اليوم كارثة كهذه، لا بد للمرء من أن يتصور - مثلما يتصور ذلك عدد غير قليل من الناس - كارثة نووية تتأخم حدود فناء العالم.

وبالمقارنة مع الأعوام المائة المدمرة بين عامي ١٣٥٠ و ١٤٥٠، فإن كوارث مثل حروب الدين وجميع الحروب الخارجية (أكانت في عهد لويس الرابع عشر أم في عهد

ناپوليون أم في زمن الامبراطورية الثانية) لابد من اعتبارها ثانوية الأهمية. ولو أضفت إلى القائمة كلاً من الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، فسوف يحتج مؤرخون وكتاب سياسيون كثيرون وسوف يتهمونني بالتجديف وبارتكاب فعل فاضح. ويمكنني أن أفهم السبب في ذلك. لكنني لن أترشح. ألا يرى كثير جداً من الناس، بحكم العادة أو من جراء الكسل، أن الحرب هي التي تحدد الإيقاع الرئيسي لحركة تاريخ العالم؟ إن جميع الحروب تؤدي إلى جراح وإلى تضحيات جسيمة بأرواح البشر. ومن المحزن أن هذا كان صحيحاً دائماً وأن الثمن الذي يتعين دفعه قد تزايد بثبات مع اقترابنا من اللحظة الحاضرة. لكن مثل هذه الجراح، بالرغم من جسامتها، إنما تلتئم بمرور الزمن. فحرب الأعوام المائة، عندما انتهت في نهاية المطاف، قد فتحت الباب أمام الإحياء الذي شهده "القرن السادس عشر الطويل" (١٤٥٠ - ١٦٥٠)، والذي سوف يعيد السكان إلى حجمهم السابق، داخل فرنسا وخارجها على حد سواء. ويجب أن نتذكر دائماً أنه إذا كان تقهقر الفترة الممتدة من عام ١٣٥٠ إلى عام ١٤٥٠ قد مثّل هبوطاً إلى الجحيم، إلا أن الحرب لم تكن حفّار القبر الوحيد. فإنجلترا لم تكن السبب الوحيد لمتاعب فرنسا: فقد ترافقت الحرب، كما بينت بالفعل، مع فقدان أساسي للحياة، ومع المجاعة، ومع الانهيار والتقهر الاقتصاديين، ثم جاء الطاعون ليقصم ظهر البعير.

أمّا حروب الدين فلم تؤد إلى مأساة مماثلة: فهي، في المقام الأول، لم تدم مائة عام بل ستة وثلاثين عاماً فقط (١٥٦٢ - ١٥٩٨)، وحتى هذه الأعوام لم تكن كلها أعوام قتال متواصل. كما أن المعارك لم تغط مجمل البلد في أي وقت واحد (أنظر الشكل ١١ في المجلد الأول). ثم إن الإسبان (الذين تعرضوا لاتهامات زائدة عن الحد) لم يلعبوا في تلك المناسبة الدور الشيطاني الذي لعبه الإنجليز خلال حرب الأعوام المائة. وأخيراً، فإن الاقتصاد الفرنسي قد ظل سليماً أو سليماً بدرجة معقولة، كما رصد ذلك فرانك سپونر (١١٣) وهنري لايسير وأنا (١١٤) منذ وقت بعيد، مع أن استنتاجاتنا لا يبدو أنها قد أثرت على الكتابة التاريخية. فهناك بعض الأساطير التي يثابر المؤرخون على تخليدها، بصرف النظر عن أي شيء. على أن الأب روجيه مول، وهو خبير في تاريخ السكان الأوروبيين، قد كتب في كتابه الضخم الصادر في عام ١٩٥٤: "من الناحية الديموجرافية، يبدو أن [حروب الدين] قد سببت من الذعر ما يفوق ما سببته من الضرر الفعلي" (١١٥).

وبالرغم من كل ذلك، فإنني لا أود التقليل من شأن أثر هذه الحروب بين الأشقاء والتي اعتبرها أنا شخصياً مرعبة. إذ يمكنني أن أتخيل تماماً الدمار والعذاب الناشئين عن الاستيلاء البروتستانتي على ليون في عام ١٥٦٢؛ أو عن "الجولة الفرنسية" البطولية التي قام بها كوليني، والتي مثلت "زحفاً يائساً" خلال الحرب الثالثة، بين أكتوبر/ تشرين الأول ١٥٦٩ وصيف عام ١٥٧٠ - "عدة آلاف قليلة من الرجال، يدفعون على طول الطرق خيولهم التي أنهكتها المعارك" ويمارسون النهب "حتى يتسنى لهم استرداد قواهم" (١١٦). أو، أخيراً، عن الغارتين اللتين شنهما الكسندر فارنيس من هولنده، مرغماً هنري الرابع على رفع حصاره بباريس (١٥٩٠) ورووان (١٥٩٢). لكن المحك الذي أحيل إليه دائماً هو ما يلي: إن السكان الفرنسيين لا يبدو أنهم قد انخفضوا خلال الأعوام الثلاثين التي استغرقتها هذه الحروب الدينية. ومن ثم فإنها لا تشبه حرب الأعوام الثلاثين "الحقيقية" (١٦١٨ - ١٦٤٨) والتي سوف تخلف أثراً دموياً جسيماً في ألمانيا.

وتنطبق هذه الاعتبارات نفسها على حروب لويس الرابع عشر، والتي خيضت بعيداً عن الأرض الفرنسية، أو على حروب الثورة [الفرنسية الكبرى] والحروب النابوليونية: فقد عاد السكان الفرنسيون إلى تعويض خسائرهم وأخذوا يتزايدون من جديد، بل إن هذا كان صحيحاً أيضاً بعد الحرب العالمية الأولى، بالرغم من أنها كانت قاتلة بالنسبة لفرنسا، حيث مات ما بين ١,٥٠٠,٠٠٠ و ١,٨٠٠,٠٠٠ فرنسي، كلهم من الشبان القادرين على العمل؛ كما كان صحيحاً أيضاً بعد الحرب العالمية الثانية، والتي تذهب التقديرات إلى أن نحو ٦٠٠,٠٠٠ فرنسي قد ماتوا فيها. وفي عام ١٩١١، كان عدد سكان فرنسا ٣٩,٦ مليون نسمة؛ وفي عام ١٩٢١، كان هناك ٣٩,٢ مليون نسمة (لكنهم يشملون ساعتها ١,٧١٠,٠٠٠ نسمة من الألزاس واللورين)؛ وفي عام ١٩٣٦، كان هناك ٤١,٩ مليون نسمة، وفي عام ١٩٤٦: ٤٠,٥ مليون؛ وفي عام ١٩٨٣: ٥٤,٦ مليون.

وأمام هذه الأرقام، إن كان بوسع القاريء أن ينحي للحظة ردود الفعل العاطفية، بالرغم من أن ذلك قد يكون صعباً، فسوف يلاحظ أنه بشكل مستقل عن الحروب أو حوادث ومآسي التاريخ الأخرى، فإن قوى عميقة الجذور كانت فاعلة منذ القرن الخامس عشر، وهي قوى كانت تحفز وتزيد وتحفظ سكان فرنسا، بل وسكان كل بلد آخر، وتتيح لهم، كتيار لا يكف عن الجريان، إمكانية اجتياز المحن والملمات

والكوارث. وقد لاحظ پير جوبيه محققاً: "إن «السر» الحقيقي للسكان قد يتمثل في قدرتهم على النجاة" (١١٧). وهذه هي المشكلة التي أود معالجتها هنا.

مراحل متعاقبة

مع قدر من التبسيط، يمكننا أن نميز أربع مراحل للنمو. فبين عامي ١٤٥٠ و ١٦٠٠، عاد السكان الفرنسيون بهذه الدرجة أو تلك إلى المستوى الذي كانوا عليه قبل عام ١٣٥٠ (ربما بدرجة أقل وليس بدرجة أكبر)؛ وبين عامي ١٦٠٠ و ١٧٥٠، ربما يكون قد حدث تقدم طفيف ما، لكن الركود كان هو المهيمن؛ وبين عامي ١٧٥٠ و ١٨٥٠، حدث في البداية صعود ملحوظ، أخذ يفقد حيويته تدريجياً، إلا أنه لم يتوقف بالفعل قط. وبعد عام ١٨٥٠، استمر الصعود لكن المشكلات أخذت تتغير، كنتيجة للتطورات في التقدم الطبي والصحة العامة، ومنع الحمل والهجرة الأجنبية. وسوف ننظر في هذه الفترة الأخيرة على حدة، ونكتفي هنا بالنظر أولاً في الفترات الثلاث الأسبق.

(١) من ١٤٥٠ إلى ١٥٥٠-١٦٠٠

بدأت الزيادة الأولى، جدد الملحوظة، في السكان الفرنسيين، قبل "الاكتشافات الكبرى": رحلة كولومبوس في عام ١٤٩٢، رحلة فاسكو دا جاما في عام ١٤٩٨. وبالمثل، كان التزايد، في بلدان البحر المتوسط، جارياً على قدم وساق قبل وقت طويل من ثأر الملكوت المسيحي المتأخر من الأتراك عبر الانتصار الحاسم في معركة ليبانت، في عام ١٥٧١: كما لا يمكننا أن نحدد كعامل ممكن شجع على نمو السكان الدور الذي لعبته أوروبا الشرقية، عبر شحنات القمح والجاودار المتجهة إلى الغرب من البلطيق، حيث إن أمستردام لم تصبح مركزاً رئيسياً لإعادة توزيع الحبوب إلا في أربعينيات القرن السادس عشر. والحال أن الغرب سوف يكون بحاجة إلى مواد غذائية من الخارج بعد التزايد الحاد في سكانه.

لا بد لاستنتاجنا إذاً من أن يتمثل في أن فرنسا، وأوروبا الغربية ككل (والتي جربت النمو نفسه) قد وجدتا كلاً من الأسباب والسبل التي أدت إلى إحيائهما في داخلهما: لقد كان هذا الإحياء من الداخل.

فهل يعني ذلك إذاً أن السكان الفرنسيين، بعد أن انخفضوا إلى أدنى عدد لهم، قد

أخذوا يتزايدون من جديد ببساطة من تلقاء أنفسهم، تشجعهم على ذلك عودة السلم؟ لقد كان الانخفاض حاداً، وكانت آثاره مدمرة. وكان هناك نقص جد حاد في القوى العاملة بحيث إن الأشجار والأشجار الخفيفة الكثيفة قد عادت إلى غزو مساحات كبيرة من أراضٍ زراعية كانت منتجة في وقت من الأوقات. وكان الخراب منتشرًا إلى هذا الحد أو ذاك. وفي نورماندي، أعلن نائب في المجلس العام للفتات في عام ١٤٨٤ أنه "من ديب إلى رومان. . . لا يوجد أثر لطريق؛ ولا يرى المرء مزارع ولا بشر، باستثناء عدد قليل من قطاع الطرق الذين ما زالوا يعيشون فساداً في الريف" (١١٨). وبين الواز والمارن (حيث كانت الحرب قاسية بشكل خاص)، كانت قرى وقرى صغيرة ومزارع بأكملها قد تلاشت من الوجود. وإعادة الإعمار تتطلب مالا ومزيداً من المال، ورجالاً ومزيداً من الرجال، ووقتاً ومزيداً من الوقت - مائة عام أحياناً. وفي أغلب الأحيان، كانت الأرض غير المزروعة تستصلح من جانب السيد، المالك الأصلي لها، إلا أنه قد لا يعثر بسهولة على مستأجرين جدد لإصلاح الأمور، لترميم الدور وبنائاتها الخارجية ولإعادة زراعة الحقول. ولذا فقد يضطر إلى عرض إيجارات مغرية طويلة الأجل على الفلاحين أو على جماعات من الفلاحين.

ويمكن أن نرى السيناريو نفسه في لانجدوك التي كانت تشكو من انحدار عدد السكان: إن الـ *garrigues* قد أخذت تزحف من جديد على كثير من السفوح الحجرية. وقد تكاثرت الحيوانات البرية: "إن دبة السيفين البنية قد عادت إلى الاستقرار بأعداد غفيرة على سفوح الأيجوال والايبيرو؛ أما قطعان الأيائل فقد راحت تعدو على الـ *garrigues* وعبر غابات البلوط الحي؛ وكان الكوس مليئاً بالذئاب؛ وأصبحت طيور الحجل منتشرة انتشار الدجاج؛ وحتى بداية القرن السادس عشر، كان الفلاح حراً في اصطيد كل ما يريد، لأن كمية الطرائد كان يبدو أنها لا تنفذ" (١١٩). وقد جرى استصلاح الأرض ببطء عبر كدح عائلات عديدة، تجمعت تحت سلطة العائلة الأقدم، "حيث كان يجري تقاسم الموقد وقدر الطهو: فالجميع يأكلون خبزاً واحداً ويشربون نبيذاً واحداً" (١٢٠). ثم حدثت المعجزة: لقد بدأ السكان في التزايد من جديد، قبل انقضاء وقت طويل، وبمعدل أثار عجب المعاصرين. وكان يقال في لانجدوك نحو منتصف القرن السادس عشر إن "الناس يتكاثرون تكاثر الفئران في الأجران" (١٢١).

وقد حدث الشيء نفسه في جميع أرجاء فرنسا. فقرب بار - سور - سين بين عامي

١٤٧٧ و ١٥٦٠ ، "تراجعت أشجار العليق والأشجار الشائكة وأشجار الأجمة أمام زحف شفرة المحراث والمعمول" ؛ ونمت حقول القمح وحقول الكروم والمروج على الأرض المستصلحة من جديد (١٢٢). ورمزت البنايات والمحاصيل على حد سواء إلى عودة السياق المؤاتي. وجرى ترميم الكنائس وبُنيت كنائس جديدة. وفي بار - سور - سين ، تم الانتهاء من بناء كنيسة سانت ايتيان في عام ١٥٦٠ ، وكان هذا البناء قد بدأ في عام ١٥٠٥ . أما الكنيسة الأقل ضخامة قرب ريملي فقد بنيت بين عامي ١٥٢٧ و ١٥٤٩ (١٢٣). وعلى مسافة أبعد، في سانت آنطونان في الكوس، حدثت نهضة معمارية حقيقية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر (١٢٤). وكانت الكنائس والبنايات الجديدة تنمو بالسرعة التي ينمو بها الناس. ونحو عام ١٥٧٢ ، رأى برانتوم أن فرنسا "مليئة كالبيضة" (١٢٥). وكانت موجة بشرية عالية آخذة في الكشف عبر أوروبا كلها، في إنجلترا وإيطاليا وإسبانيا. وفي ألمانيا، ذكر الإنساني النمساوي آفنتينوس أن الناس قد أصبحوا موفوري العدد بحيث إنهم يبدوون وكأنهم "ينمون على الأشجار" (١٢٦). بل إن الامبراطورية التركية في ظل العثمانية كانت تمر بتوسع ديموجرافي عام (١٢٧).

وإذا عدنا إلى فرنسا، فسوف نجد أن الصعود كان أكثر وضوحاً في الأعوام الأولى؛ ففيما بعد سوف يصبح بطيئاً أحياناً بل وسوف يتوقف تماماً. وإذا ما استعرنا عبارة ريشار جاسكون، فإن "ربيع القرن السادس عشر"، قد أخذ يهدأ نحو عام ١٥٢٠. فمنذ ذلك الحين فصاعداً - هل كان هناك بالفعل عدد كثير جداً من الناس؟ - بدأت الأسعار ترتفع، وبما أن الأجور لم تحذ حذوها، فإن المستويات المعيشية قد أخذت في التدهور. وإنها لمجرد مفارقة ظاهرة أنه خلال الانحدار العظيم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهما زمن انخفاض في السكان وانخفاض في أسعار المنتجات الزراعية، عندما أصبحت مساحات شاسعة من الأرض متروكة للماشية ترعى فيها، كانت هناك وفرة من الطعام لكل من الفلاح وساكن المدينة (١٢٨). أما الآن، فسوف يكون الخبز أقل والنبيد أقل، وبشكل خاص، سوف تكون اللحوم أقل عند تناول الوجبات؛ وفي منتصف القرن، بين عامي ١٥٥٠ و ١٥٦٠، كان هناك ركود دام عشر سنوات، وهو ركود يتطابق في خطوطه العريضة مع العهد المظلم الذي شهد حكم هنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩).

وفي لحظة ما، من المستحيل تحديدها بدقة، كان الإحياء الديموجرافي قد أصبح

ناجزاً من الناحية العملية. إذ كان في فرنسا نحو أعوام ١٥٥٠ - ١٥٧٠ عدد من الناس مساوٍ بشكل تقريبي للعدد الذي كان موجوداً قبل ذلك بقرنين. وقد وصف پير شوني ذلك بأنه تعويض، استرداد، عودة إلى توازن سابق. وليس هذا مجرد تعبير بلاغي، بل هو مدخل إلى تفسير. وقول ذلك إنما يعني أن العودة إلى توازن سابق قد حدثت من تلقاء نفسها، أنها كانت نتيجة دافع عفوي ونشيط، أحبطته قلاقل ومصائب العصر السابق.

ولكن ما هو هذا الدافع الحي النشط؟ ذلك هو السؤال الحقيقي. فليس من المهم كثيراً أن نعرف ما إذا كان قد تم الوصول إلى المستوى السكاني السابق أم لا، ولا ما إذا كان ذلك قد تم بشكل ناجز أم غير ناجز، إن كان قد حدث بالفعل، ولا ما إذا كان ذلك قد تم في عام ١٥٥٠ أم في عام ١٦٠٠ أم بعد ذلك. فيما أننا لا نحوز أرقاماً دقيقة عن السكان في هذه التواريخ، فلا بد للمناقشة من أن تظل مفتوحة (١٢٩). لكن القوة المحركة الكامنة وراء الزيادة هي المهمة، فقد حدثت زيادة بالتأكيد. وأمكن، بشكل ما، علاج جرح ١٣٥٠ - ١٤٥٠ المتقيح؛ وصمدت البشرية لتحدي التاريخ. ربما لأن الكوارث (الطاعون والمجاعة) قد تراخت وتراجعت؛ ربما بسبب اكتشاف موارد غذاء جديدة (إمدادات لا تنفذ من السمك من نيوفاوندلاند، حبوب من البلطيق، انتشار الحنطة السوداء)؛ ربما بسبب الصحة العامة الجيدة للاقتصاد (يرى إيرل ج. هاملتون أن جميع الجراح قد التئمت بسرعة في القرن السادس عشر، وجي بوا يقول الشيء نفسه) (١٣٠). وأخيراً، ربما يكون الاقتصاد قد وجد عوناً عبر وصول المعادن الثمينة من أمريكا، مما أعطى حافزاً جديداً لمستويات الاقتصاد الأعلى، مع أصدقاء في كل مجال آخر بالتأكيد.

ب) من ١٦٠٠ إلى ١٧٠٠

بعد عام ١٦٠٠، كانت زيادة سكان فرنسا محدودة وقد أخذت تصبح بطيئة فالحجم الإجمالي سوف يظل لقرن ونصف عند مستوى يرتفع ارتفاعاً قليلاً، إن ارتفع على الإطلاق. وفي الوقت نفسه، أخذ التقدم الاقتصادي يصبح بطيئاً هو الآخر؛ فلم تحدث تحولات تكنولوجية مهمة، بينما حدثت سلسلة من الأزمات: إن خمسة التقيحات الرئيسية للمجاعة وللبوء قد أثرت على المملكة كلها في أعوام ١٦٣٠ - ١٦٣١؛ و ١٦٤٠ - ١٦٥٢؛ و ١٦٦١ - ١٦٦٢؛ و ١٦٩٣ - ١٦٩٤؛ و ١٧٠٩ -

١٧١ (١٣١). وقد دخلت الأزمة الأخيرة التاريخ باعتبارها مأساوية بشكل خاص، لكن لا شيء يقول إن الأزمة السابقة التي حدثت في عامي ١٦٩٣ و ١٦٩٤ لم تكن أكثر حدة منها بكثير. والحال أن هذه الأزمات قد أثرت بشكل عميق على أرقام السكان.

ثم أزمة أعوام ١٦٤٠ - ١٦٥٢، والتي سبقت حرب الفرونند (١٦٤٨ - ١٦٥٣) واستمرت خلال تلك الحرب الأهلية العنيفة، قد أسهمت إسهاماً غير بسيط في كوارثها. وبالنسبة للسكان الفرنسيين ككل، فإنني أعتقد أن هذه السنوات كانت تجربة أكثر قسوة بكثير من تجربة حروب الدين، التي خيضت في عصر ازدهار اقتصادي؛ فالفرونند، خلافاً لذلك، قد حدثت في زمن شدة اقتصادية. وكانت المدن مرغمة على فتح أبوابها أمام الفلاحين الفارين من الجنود النهابين الباحثين عن الغذاء؛ وفي رانس، نجد أن الفلاحين المحليين الذين "لجأوا إلى المدينة"، ومعهم ماشيتهم، كانوا يخرجون كل ليلة عند إغلاق الأبواب، ولا يعودون إلا في الفجر "عند فتح الأبواب"، مستفيدين من هبوط الظلام حتى يتسللوا إلى مزارعهم بحثاً عن علف للحيوانات (١٣٢). وينطبق الشيء نفسه على كوربي وسان كينتان وبيرون... لقد كانت المدن مثقلة بعبء سكان ليسوا محل ترحيب وكان الريف خرباً ومُهْمَلاً، أما المحاصيل فقد كان مصيرها الضياع.

وقد عانى الجميع خلال تلك الأوقات القاسية - البالغون والأطفال، بل والأطفال الذين لم يولدوا (لأن الجوع يمكن أن يؤثر على الدورات الحوضية للنساء، كما تأكد ذلك في قرننا هذا، خلال حصار لينينجراد مثلاً). وقد تحدث إيمانويل لوروا لاديري عن دورة حياة مالثوسية. كما كانت وفيات الأطفال جد منتشرة. وبحسب تعبير بير جوبير: "كان وصول طفل إلى سن الرشد يتطلب طفلين" (١٣٣). وكان الموت في قلب الحياة اليومية، مثلما أن الكنيسة في وسط القرية (١٣٤). فهل كان متوسط العمر آنذاك ثلاثين سنة؟

وإذا كانت الأنماط تكرر نفسها، فقد يتوقع المرء العثور على نوع معين من الانهيار أو الكارثة نحو منتصف القرن السابع عشر، يماثل انهيار و كارثة عام ١٣٥٠: فالمقدمات الواحدة لا بد لها من أن تؤدي إلى نتائج واحدة. لكن السيورة لم تكن مجرد استنساخ. إذ لم يحدث انهيار. فالصورة العامة (التي تتجاوز التباينات الإقليمية التي كانت جد ملحوظة أحياناً، كما هي الحال مثلاً في التباين بين شربور والألزاس أو بروفانس) (١٣٥)، كانت صورة "استقرار غير عادي، مع بعض الارتفاعات

والانخفاضات"، الملحوظة تماماً أحياناً، وإن كانت تتوازن فيما بينها في نهاية الأمر (١٣٦). ويبدو أن الميزان قد استقر عند حد أقصى ديموجرافي معين؛ ومتى تم تجاوزه (لأن معدلات المواليد ظلت مرتفعة) تحدث أزمة و"يموت مئات الآلاف من الفقراء". وبعد هذا، يتأكد من جديد فائض إجمالي للمواليد يتجاوز الوفيات. وفي نهاية الأمر يظل متوسط عدد السكان مستقراً نسبياً، ويصمد على نحو جيد في وجه الطاعون أو المجاعة أو الحرب الأهلية أو، فيما بعد، في وجه حرب الخلافة الإسبانية الطويلة (والتي لم تكن آثارها في نظري كارثية)، ناهيك عن الخروج الهولندي (والذي شمل ما بين مائتي ألف وثلث آلاف نسمة) بعد الإلغاء الكارثي لمرسوم نانت في عام ١٦٨٥.

فلماذا حدث مثل هذا الاستقرار النسبي؟ لقد حدث لعدد من الأسباب المجتمع التي تباينت من إقليم إلى آخر، ولو لمجرد الانتشار غير المنتظم للمحاصيل الجديدة المجلوبة من العالم الجديد. فالذرة والبطاطس لم يجر تبنيهما بالكامل إلا في القرن الثامن عشر وفي بعض الأماكن في القرن التاسع عشر. لكن بعض الأقاليم رحبت بهما قبل أقاليم أخرى. وقد تبني الجنوب - الغربي زراعة الذرة منذ وقت مبكر: فنحو عام ١٦٤٠، كان سعرها يتحدد في أسواق تولوز وكاسلنوداري (١٣٧)؛ وبحلول أواخر القرن كانت قد امتدت إلى البيارن بل وكانت "تحتل مكانة ممتازة في نظام محصولي جد كثيف" (١٣٨). وكانت "النبات الذي يأكله الناس العاديون". وكان الشيء نفسه صحيحاً في كومينج، حيث كانت الذرة غذاء الأيدي العاملة الزراعية وكانت في الوقت نفسه محرك ثورة في تربية الأوز والخنازير.

والحال أن الدور الذي لعبته الذرة في الجنوب الغربي قد كفلته الحنطة السوداء في بريطانيا حيث فرضت نفسها كغذاء للفقراء. ولا شك أن هذا هو السبب في أن بريطانيا قد تمكنت من تصدير الحبوب طوال القرن السابع عشر (١٣٩). أما فرنسا الشرقية، خلافاً لذلك، فلم توفر غير مساحات قليلة لزراعة الحنطة السوداء، لكن البطاطس هيمنت فيها. وفي دوفيني والألزاس بحلول عام ١٦٦٠، وفي اللورين بحلول عام ١٦٨٠، بدأت زراعة البطاطس في الحقول، بعد أن كانت شائعة بالفعل بين الخضروات في البساتين الملحقة بالبيوت (١٤٠). وبحلول نهاية القرن السابع عشر، كانت زراعة البطاطس في الألزاس قد انتشرت بما يكفي لأن يدور حديث عن إدراجها في العشور. وفي القرن التالي، بعد نحو ١٧٤٠ - ١٧٥٠ وقبل بقية فرنسا بخمسين سنة، سنجد أن

هذا " الخبز الجاهز " ، كما كان يُسمى ، سوف يحل محل نباتات الحبوب في الوجبات الألزاسية ، ولكن دون أن يؤدي ذلك إلى اختزال انتاج الحبوب . والحال أن البطاطس ، التي لا تحتاج إلا إلى قليل من السماد ، قد احتلت مكانة الأرض المراحة في الدورة الزراعية . ويرى إيتيان جوييار أن " هذا التبنى الواسع للبطاطس الذي سرعان ما سوف يمتد إلى بقية فرنسا) إنما يرمز إلى انتهاء حالات النقص الدورية في الغذاء " (١٤١) .

ويكمن سبب آخر وراء صحة فرنسا الجيدة نسبياً (وصحة أوروبا ككل) في شحن الفضة من العالم الجديد . وقد اعتاد المؤرخون تصور أن هذا التدفق قد توقف ، أو انحسر انحساراً كبيراً على أية حال ، بعد عام ١٦٠٠ - وهذا هو الاستنتاج الذي توصلت إليه دراسة إيرل ج . هاملتون الرائدة (١٤٢) . على أن الأبحاث التالية ، والتي قام بها بيير وهيجيت شيني ، قد زحزحت هذا التاريخ إلى ١٦١٠ (١٤٣) . وفي وقت أحدث أيضاً ، قرر ميشيل مورينو ، مستخدماً شواهد من صحف هولندية ، أن هذا التاريخ الحاسم ربما يرجع إلى عام ١٦٥٠ (١٤٤) . وهكذا فقد كان هناك عصر وفرة طويل ، وانقطاع قصير نسبياً ، لأن النشاط في المناجم في العالم الجديد قد تجدد في ثمانينيات القرن السابع عشر ، ومن ثم فإنه إذا كان نقص الفضة قد ترك أثراً ما ، فإن ذلك لم يدم إلا لثلاثين سنة .

وإذا ما أخذنا هذين التاريخين (١٦٥٠ - ١٦٨٠) في اعتبارنا كفاصل ممكن ، فمن المغربي تقسيم فترتنا إلى فترتين ، على جانبي هذه الأعوام الثلاثين : أولاً نصف قرن ، ١٦٠٠ - ١٦٥٠ ، عندما كانت الحياة الاقتصادية صامدة على الأقل ، إن لم تكن قد حققت ازدهاراً بشكل محدد ، ثم مائة سنة أقل مؤاتاة ، ١٦٥٠ - ١٧٥٠ ، تتجاوز من حيث الأمد عهد لويس الرابع عشر الشخصي (١٦٦١ - ١٧١٥) .

ومن المحتمل أن أوائل القرن السابع عشر لم تكن عصر ذلك الانحدار العميق الذي غالباً ما دار الحديث عنه . وإلا فكيف نفسر لغزاً تطرحه الحالة الفرنسية بالتحديد : أن ريشليو قد قام ، على أثر وصوله لثاني ولآخر مرة إلى السلطة في عام ١٦٢٤ ، بزيادة الضرائب في سائر أرجاء فرنسا ، مضاعفاً إياها مرتين بل وثلاث مرات ؟ ما كان يمكن العمل على زيادة الضغط الضريبي بهذه الدرجة من الشدة إلا إذا كان الناتج القومي (أي عدد دافعي الضرائب ومجمل دخولهم) قد أخذ يتزايد أو ظل على الأقل ثابتاً .

وعبر سائر أرجاء فرنسا ، إسودَّ الأفق خلال حرب الفروند (١٦٤٨ - ١٦٥٣) . فقد تقلبت الأسعار بشكل واسع . وقد أوضح بيير جويير الطابع المسرف لما يسمى بـ " أزمة

إرتقاء العرش " بين أعوام ١٦٥٦ - ١٦٥٧ و ١٦٦٧ - ١٦٦٨ ، بما رافقها من تبدلات حادة (١٤٥). لكن هذه الحركات غير المنتظمة قد أدت إلى شيء يشبه ما تؤدي إليه الدراما المتكررة لمواسم الحصاد الرديئة: لقد انسحب الفلاح ببساطة إلى قوقعته كالحلزون (صورة فيتولد كولا الأثيرة) (١٤٦) ثم خرج منها عندما تحسنت الأمور (أو بدا أنها تتحسن). والواقع أن الأسعار كانت تنحدر بوجه عام، ولكن هل تعد المرحلة B مضرّة دائماً بالمستويات المعيشية لرفيقي الحال؟ إذا كانت تقديرات فرانك سپونر صحيحة، فإن الدخل القومي الإجمالي قد ظل ثابتاً عند مستوى واحد، بين ١,٢٠٠ و ١,٥٠٠ livres بين عامي ١٧٠١ و ١٧٦٠ (١٢٧). وكان عدد السكان نحو عام ١٧٢٠ نحو ٢٠ مليون نسمة: فوق المستوى الذي اعتبره كارل يوليوس بيلوك حداً أدنى لقوة عظمى في الماضي: ١٧ مليوناً (١٤٨).

ج) من ١٧٥٠ إلى ١٨٥٠

لدينا عن هذه الأعوام المائة الحافلة بالأحداث، والتي اخترقها الأحداث العنيفة للثورة وللإمبراطورية الأولى (١٧٩٢ - ١٨١٥) في المنتصف، معلومات تفوق في دقتها ما لدينا من معلومات عن العصور الأسبق، وتتحسن نوعية المعلومات أكثر كلما اقتربنا أكثر من الحاضر. كما أن لدينا مرشداً ممتازاً (١٤٩) إلى المشكلات الديموجرافية وعدداً من دراسات حالات ممتازة (١٥٠).

ولسنا بحاجة إلى الدخول في كثير من التفاصيل هنا (خاصة في المناقشات التي تثيرها بشكل مشروع نوعية الوثائق وتفسيرها) كما أننا لسنا بحاجة إلى أن نميز بشكل جد دقيق بين الفترات: أولاً النمو السكاني جد السريع من عام ١٧٤٣ إلى عام ١٧٧٠؛ ثم تفوق المواليد الملحوظ على الوفيات من عام ١٧٧٠ إلى عام ١٧٧٨؛ ثم عودة إلى مناخ أزمة من عام ١٧٧٩ إلى عام ١٧٨٧ (مع أن هذه كانت أزمنة طفيفة ومستترة بالمقارنة مع القرن السابع عشر)؛ ثم في نهاية المطاف، بعد فاصلي الثورة والإمبراطورية (وهما زمن زيادة سكانية، ولو على مجرد نطاق متواضع)، فترة نمو متواصل حتى عام ١٨٥٠. والحق إن السكان الفرنسيين قد تزايدوا بسرعة أقل من سرعة تزايد سكان بقية أوروبا: بين عامي ١٨٠١ و ١٨٥١، كانت هناك زيادة بنسبة ٣٠ في المائة في فرنسا، في مقابل نسبة ٥٠ في المائة في أوروبا ككل و ١٠٠ في المائة في بريطانيا.

ومرة أخرى، نجد اختلافات إقليمية ملحوظة، إلا أن بوسعنا بوجه عام أن نفترض حالة صحية للسكان الفرنسيين ككل: نحو ٢٦,٣ مليون في عام ١٧٨٩ (١٥١)؛ ٢٧,٣ مليون في عام ١٨٠١؛ ٢٩,١ في عام ١٨٠٦؛ ٣٠,٥ في عام ١٨٢١؛ ٣١,٩ في عام ١٨٢٦؛ ٣٢,٦ في عام ١٨٣١؛ ٣٢,٥ في عام ١٨٣٦؛ ٣٤,٢ في عام ١٨٤١؛ ٣٥,٤ في عام ١٨٤٦ و ٣٥,٨ في عام ١٨٥١. وهذا التقدم المتواصل (والذي لا يتراجع إلا مرة واحدة، بين عامي ١٨٣١ و ١٨٣٦، بسبب وباء الكوليرا في عام ١٨٣٤) هو السمة الرئيسية للفترة.

لكنها سمة مثيرة للعجب. فما أكثر الأسباب التي تدعو إلى توقع انحدار عام. فهذه الفترة تغطي على أية حال الأزمة الأخيرة للنظام القديم؛ وحصادات ١٧٨٨ و ١٧٨٩ الرديئة والتي لعبت دوراً في إنهاء ذلك النظام؛ ثم المتاعب الكثيرة التي حدثت منذ إعلان الحرب في عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨١٥ - نزوح نحو ١٨٠,٠٠٠ إنسان، والخسائر في الحرب (١,٢٠٠,٠٠٠ بالإضافة إلى نحو ٤٠٠,٠٠٠ في حرب الفانديه الأهلية الرهيبة). وقد ترافق هذا كله مع "تغيرات في توزيع الثروة، وآفاق جديدة للحراك الاجتماعي، وتحول في المواقف، ومستحدثات قانونية - وكلها عوامل كانت لها أصداء ديموجرافية مهمة وسوف يمتد أمد تأثيرها" إلى ما بعد عام ١٨١٥ (١٥٢).

لكن السكان الفرنسيين صمدوا أمام جميع هذه العقبات المتراكمة. كما أنهم سوف يخرجون سالمين من السنوات الصعبة لأزمة عودة الملكية وملكية يوليو والجمهورية الثانية قصيرة العمر (١٨٤٨ - ١٨٥٢)، وهنا أيضاً، يمكننا أن نعرب عن العجب. لأن المؤرخين قد حددوا سنوات ١٨١٧ - ١٨٥١ على أنها الشطر الهابط لدورة كوندراييفية، أي أن هذه النظم الثلاثة كانت مصحوبة بتدهور متواصل وسريع في الحياة الاقتصادية، بلغ ذروته في أزمة ١٨٤٧ - ١٨٤٨ الخطيرة، وهي مثال كلاسيكي لـ "أزمة نظام قديم"، أي أزمة ناجمة عن كارثة زراعية لكنها يمكن أن تستشري وتصيب الاقتصاد برمته (١٥٣). ومن المرجح أن هذه الأزمة كانت آخر أزمات المعيشة قديمة الطراز، وهي تشكل نقطة تحول. وسوف تحدث أزمات أخرى من نوع مختلف في أعوام تالية، في فرنسا أصبحت صناعية، حيث سوف يتعين على السكان أن يواجهوا من جديد العقبات والمصاعب المترتبة على مثل هذه الأزمات.

ويرى المؤرخون التقليديون أن من المستحيل اعتبار الأعوام المائة بين عامي ١٧٥٠

و ١٨٥٠ كتلة واحدة، وذلك بسبب كل من القطع السياسي الذي أحدثه انهيار النظام القديم والقطع الاقتصادي الذي أوجدته بدايات الثورة الصناعية. بينما يميل الديموجرافيون التاريخيون، خلافاً لذلك، إلى رؤية استمرارية معينة في مصائر السكان الفرنسيين، بين عهد لويس الخامس عشر وعهد الأمير - الرئيس لويس - نابوليون، نابوليون الثالث فيما بعد. ولو أصغينا إليهم، فقد نستتج أن أواخر القرن الثامن عشر كانت تبدي بالفعل أمارات حداثة معينة، في حين أن أوائل القرن التاسع عشر كانت ما تزال تبدي آثار النظام القديم. وقد اعتاد المؤرخ أندريه ريمون القول في مناقشاتنا في زمن بعيد أن جيزو كان آخر رجال القرن الثامن عشر - وهو تعبير آخر عن الشيء نفسه. واعتقادي الخاص هو أن تاريخ السكان إنما يتجاوز بمعنى ما اعتبارات وروايات التاريخ المعتادة: فالأحداث التي نسجلها قد تلدغ السكان لكنها، في أسوأ الأحوال، لا تخلف غير جراح عرضية عابرة.

هل يوجد تفسير أو تفسيرات ممكنة

للسيروتات الديموجرافية قبل عام ١٨٥٠؟

لا بد من فهم تاريخ السكان الفرنسيين في مجمله عبر الفترة برمتها (١٤٥٠ - ١٩٥٠، وحتى الحاضر). وهو يواجهنا بمشكلة تاريخية واحدة، إذ لا شك هناك في الاتجاه العام: فبوجه عام، كانت تلك الفترة فترة توسع. ولكن لماذا؟ ما هي الأسباب، العامة والخاصة على حد سواء؟

بالإمكان تلخيصها من حيث الجوهر في كلمتين: المرض والغذاء. فمما له فائدة مهمة أن الطاعون قد اختفى من فرنسا بعد عام ١٧٢٠، وأن السكان كانوا قد أصبحوا أقدر على مقاومته بعد عام ١٤٥٠.

ومما له أهمية مماثلة الاختفاء البطيء ولكن المتواصل للجذري خلال القرن التاسع عشر؛ التحول الحاسم للطب؛ ومنذ نحو ١٨٥٠ على الأقل، تحسن العلاج في المستشفيات؛ وفي مرحلة تالية أبعد، بعد الحرب العالمية الثانية، المكاسب الضخمة التي وفرتها دولة الرعاية الاجتماعية - يجب النظر إلى هذه الأمور على أنها علامات ذات أهمية كبرى.

ولكن ألا يجب أن ننتبه بالمثل إلى التغيرات - المهمة جداً هي الأخرى - في الغذاء البشري؟ كما يقولون في ألمانيا: "الإنسان هو مأكله". لقد كان الغذاء الذي يأكله

الناس آخذاً في التحسن بشكل تدريجي . وكانت هذه السيورة بطيئة ، لكنها كانت حقيقية ، وكانت تكمن وراء تقدم أو صون مستويات السكان . ومن المؤكد أن التقدم لم يكن سريعاً ، لكن فرنسا شأنها في ذلك شأن أوروبا كانت بلداً زراعياً أساساً ؛ والحال أن الحقول والمحاصيل والفواض التي تملأ الأفواه إنما يصعب تحويلها بين عشية وضحاها . وقبل عام ١٢٠٠ ، كانت غلة الحبة المزروعة ثلاث حبات عند الحصاد ؛ وقد ارتفعت إلى ٤,٣ بين عامي ١٣٠٠ و ١٥٠٠ ؛ ثم إلى ٦,٣ بين عامي ١٥٠٠ و ١٨٢٠ . وهذه المتوسطات التي أخذتها من حسابات ب. هـ. سليشر فان باث جد المقنعة قد تبدو لنا جد منخفضة ، لكنها على أية حال قد زادت بأكثر من الضعف خلال ثلاثمائة عام (١٥٤) . وهي تشير إلى اتجاه أساسي لا شك أنه يفسر أموراً كثيرة . ويمكن أن نضيف إلى ذلك المساهمة غير المتوقعة ولكن الحيوية من العالم الجديد ، والتي أشرنا إليها بالفعل ، والتزايد في المواد الغذائية الواردة من خارج فرنسا : القمح من بلدان البحر المتوسط ، والذي استمر وصوله إلى مارسيليا لسنوات كثيرة (في القرن التاسع عشر حل القمح الأوكراني محل الشحنات الواردة من إفريقيا الشمالية وشرقي البحر المتوسط) ؛ القمح وخاصة الجاودار من البلطيق ، منذ الجزء الأخير من القرن السادس عشر ؛ أسماك بحر الشمال وخاصة أسماك نيوفاوندلاند ؛ القمح وبراميل الدقيق من الولايات المتحدة منذ أواخر القرن الثامن عشر . وقد نتذكر أيضاً أن تكاليف المعيشة في فرنسا خلال زمن النظام القديم كانت على الأرجح أدنى مما في جاراتها الكبيرات ، ومن ثم كانت الوفرة فيها أعلى (١٥٥) .

وقد تمثلت محصلة كل هذه التحسنات في ارتفاع تدريجي في متوسط العمر ، أي في كبر أعمار السكان . وقد حدد الديموجرافيون عام ١٧٥٠ باعتباره مستهل بداية هذا التحول الذي استمر بلا انقطاع حتى أيامنا . وقد أعرب بعض الناس عن القلق حيال هذا الأمر ، كما لو أن الانتصار على الموت ليس الانجاز الرئيسي و ، من نواح كثيرة ، الأكثر مدعاة للسرور بين انجازات الحداثة . ويقال لنا مثلاً (ولكن هل هذا صحيح؟) إن السكان القادرين على العمل في فرنسا في المستقبل لن يكونوا جد غفيرين بما يكفي لتمويل معاشات المجموعات العمرية الأكبر سناً . لكن صناعة الغد لن تكون كصناعة اليوم . ونحن لا نعرف بشكل مؤكد أنه سوف يحدث هبوط في المجموعات العمرية القادرة على العمل ، في حين أن الحدود بين العمل والتقاعد لن تظل بالضرورة في الموقع الذي تخترقه الآن .

وأعتقد أن هناك اتجاهًا لافتراض أن أوروبا، التي قامت تاريخياً باستغلال الأجزاء الأفقر والأقل نمواً في العالم، كانت من ثم في موقع مميز؛ وأن أوروبا قد عاشت وتحركت واستمدت عظمتها من هذه المزايا والامتيازات. وهناك قدر من الحقيقة في هذا الكلام. لكن الحكم يجب أن يكون مرهفًا. فالتوسع الأوروبي الذي يبدأ مع الحملات الصليبية وامتد مع الاكتشافات الكبرى، لم يؤد بين عشية وضحاها إلى الاستغلال المنتظم والشامل لبقية العالم. وكانت الهجرة إلى خارج أوروبا على نطاق جد متواضع دائماً. وعلاوة على ذلك، لو كانت تقديرات پول بيروش صحيحة، وأنا أعتقد أنها صحيحة، فإن المستويات المعيشية في أوروبا حتى عام ١٨٠٠ لم تكن تقريباً أعلى مما في مناطق العالم الرئيسية الأخرى - كالصين مثلاً (١٥٦). فمع انتصار الصناعة فقط أمكن لأوروبا أن تشهد ثورة نمو، وأن تضمن لنفسها مستقبلاً مميزاً. لكن الثورة الصناعية كانت نتاج تحول متأخر ومتعدد الجوانب للاقتصاد وللتكنولوجيا وللمجتمع وكذلك للزراعة التي كانت قد أصبحت أكثر فأكثر كفاءة ودراية - وهو تقدم رئيسي ما زال يتعين على كثير من بلدان العالم الثالث إنجازه لأنه يتوقف على الجهود والمعارف المتراكمة لأجيال من الفلاحين. وما أحاول قوله هو أن أوروبا، وفرنسا داخل أوروبا، كان عليهما أن تعثرا على قوى في داخلهما حتى تحققا تقدمهما الذي تطلب صبراً وكداً ومثابرة. وهذا يضيفي شكلاً معنوياً أفضل قليلاً على تاريخهما: إنه تاريخ نجاح ناشيء جزئياً عن كفاح داخلي.

III

المشكلات الأحدث:

انتصارات الطب،

الحد من المواليد،

الهجرة الأجنبية

لا يجب أن تتخيلوا أننا عندما نصل إلى الفترة المعاصرة بالفعل ، بعد عام ١٨٥٠ ، سوف تصبح مشكلاتنا أوضح أو أسهل على الحل مما في العصور السابقة. إن لدينا معلومات أوفر عشر أو مائة مرة. لكن ذلك يؤدي في معظم الأحيان إلى جعل استيعاب الوضع الحقيقي أكثر صعوبة بكثير.

بين عام ١٨٥٠ وثمانينيات القرن العشرين ، تواصلت تزايد سكان فرنسا وانتاجها و ثروتها العامة وممتلكات المميزين كما ارتفعت المستويات المعيشية للفرنسيين العاديين . فكل عام يمر إنما يشهد المزيد من العربات والمزيد من الطرق والمزيد من السكك الحديدية والمزيد من المصاهر والمزيد من الحديد والصلب والمزيد من الأقمشة والمزيد من القطن والحرير ، والمزيد من الطلاب في الجامعات والمزيد من الناس الذين يحيون في فرنسا . وقد حدث تحسن ضخم في المستويات المعيشية . وتواصل نمو كل من الدخل القومي ودخل الفرد . ومحتى في أقصى أرجاء فرنسا (١٥٧) ، واصلت أجور العاملين في الأخراج ومعدى الفحم النباتي وناشري ألواح الخشب الارتفاع ، بالقيم الجارية للفرنك . وأنا لا أقول إن كل شيء يسير إلى الأفضل في أفضل العوالم الممكنة وأكثرها عدلاً : فحتى في باريس ، غالباً ما كانت الجماهير في فقر عظيم . إلا أننا إذا نحيثاً جانباً المآسى والأزمات (والتي كانت لفرنسا منها حصة عظيمة) ، فإن هذه الفترة كانت فترة تحسن ملحوظ .

ولا أعتقد أن من الضروري أن أقدم عرضاً مطولاً لهذا التقدم ، ولا لمكانة فرنسا في صفوف قسم محظوظ من الجنس البشري ، هو أوروبا الصناعية : فسوف يجد القاريء في مكان تال من هذا العمل الأشكال والجداول التي تقدم مختلف قياسات هذا التحسن الذي لا شك فيه . ومع استبعاد هذه المهمة المرهقة نوعاً ما ، سوف يكون من الأسر لي أن أركز على ثلاث مشكلات - أعتقد أنها أساسية - تجرنا إلى الواقع الحاضر الذي أتوق إلى الوصول إليه .

١ - ما هي بالضبط التحسينات المعجزة التي ، بفضل العلم الطبي والتقدم المشترك للاقتصاد وللمجتمع ، أدت في مدى عمرنا إلى تحويل الظروف البيولوجية المؤثرة على السكان الفرنسيين ، جنباً إلى جنب شعوب محظوظة أخرى في العالم؟

٢ - ما هو الدور الذي لعبه في مجتمعنا الانتشار الشائع الآن لممارسات منع الحمل ، والتي غالباً ما كانت محل شجب في الماضي؟

٣ - كيف ننظر إلى الدور المتزايد والمؤرق إلى حد ما والذي تلعبه الهجرة الأجنبية في التكوين الحالي ، والمستقبلي خاصة ، للسكان الفرنسيين؟

ولكن قبل أن أستطرد ، أود أن أوضح أمرين :

١ - في الصفحات التالية ، لا أنوي أن أجعل التاريخ الذي ما يزال غير مؤكد والذي يتشكل تحت أعيننا أساساً لأية حلول للمشكلات التي تهمنا . فأنا لست رجل سياسة ولا ممثل حزب ولا واعظ . ولو كان القرار بيدي ، فإنني أعرف أنه سوف تكون هناك هوة عميقة بين ما يجب عمله وما تسمح لي الظروف بعمله (وهو لا شيء تقريباً في معظم الحالات) . وأخشى أن فرنسا ، لسوء الحظ ، قد أصبحت عليها أن تتحمل قدرها ، بدلاً من أن تختاره .

٢ - يجب أن نحذر مما يقوله لنا ضميرنا ، لأنه طرف معني في المناقشة . ويمكن رصد الحاضر علمياً . إلا أنه بسببنا نحن ، يميل الحاضر الموضوعي إلى مراوغتنا والإفلات منا ، خاصة وأن "العلوم" الاجتماعية ما تزال غير ناجزة ومن المحتمل أن تظل كذلك لزمان طويل قادم .

وهكذا ، فكيف يمكن للمرء إبقاء المنظور الأخلاقي خارج المناقشة؟ من المحتمل أن يتعدى ، بشكل عفوي وبشكل منطقي ، على حقل الملاحظة نفسه . وفي الرياضيات ، لا تتدخل الأخلاق . وفي الفيزياء ، لا يوجد غير عدد قليل من مناطق الخطر - وإن كانت مناطق جد خطيرة . وفي البيولوجيا ، تحتج الأخلاق دائماً وسوف تواصل الاحتجاج . أما في العلوم الاجتماعية ، فالأمور أسوأ بكثير : إن صوت الأخلاق أعلى ، خاصة إذا كان المرء غير حذر بما يكفي وانكب على تناول الحاضر أو المستقبل القريب . أما تاريخ الماضي البعيد فهو في مأمن بدرجة معقولة . لكن تاريخ اليوم أو الغد هو شيء يعتقد كل إنسان أن لديه ما يمكنه قوله عنه . وهكذا فإن الأخلاق ومنظوراتنا الأخلاقية تترصدنا . ولن يكون بوسعي أن أبقئها خارج المناقشة ، إلا أنه سوف يتعين عليّ بذل قصارى جهدي للسيطرة عليها .

الطب والصحة العامة

من المؤكد أن تاريخ الطب هو أكثر التواريخ فتنة. لكنه أيضاً أكثرها تعقيداً وتشابكاً وأصعبها على الوصف. والأرجح أن ذلك إنما يرجع، كما ذكرت كثيراً، إلى أنه لا يمكن أن يوجد شيء كالتاريخ الخاص أو الجزئي - أكان تاريخاً للطب أم لسواه - دون أن يترك أثراً على مجمل فضاء التاريخ العام.

ويعتقد أطباء كثيرون اليوم أنه لا معنى، ولا فائدة عملية تُرجى من دراسة طب الأمس. وهم يقولون إنه لا جدوى من النظر إلى ما وراء عام ١٩٤٥، إن كانت هناك أية جدوى أصلاً من النظر إلى الوراء. على أن اكتشاف البنسلين، والذي كان يحوم ضمن مجال الوصول إليه لعدة عقود، قد توصل إليه الكسندر فليمنج في عام ١٩٢٩؛ أما الهيبارين، وهو مضاد طبيعي لتخثر الدم "أتاح إمكانية تنمية استكشاف وعلاج أمراض القلب والأوعية الدموية، فقد اكتشف في السويد" خلال الحرب الأخيرة (١٩٤٨). لكن هذه التطورات تنتمي، والحق يقال، إلى التاريخ الأحدث؛ وهناك هوة تتزايد اتساعاً أبداً بين طب اليوم وطب الأمس.

وأثناء إعدادي لمحاضرات ألقيتها في الماضي في الكوليج دو فرانس، تزايد اهتمامي بعمل أمبرواز پاريه (نحو ١٥٠٩ - ١٥٩٠)؛ وكنت قد افترضت أنه سوف تكون هناك استمرارية معينة بين الأدوات الجراحية المستخدمة في القرن السادس عشر والأدوات الجراحية المستخدمة اليوم. وربما بدا الأمر كذلك، إلا أنه حدثت تغيرات حتى في أسلوب استخدام أدوات تبدو متماثلة، كالمشرط العادي، كما أشار إلى ذلك چان - شارل سورنيا، وهو جراح ومؤرخ طبي واسع الدراية في آن واحد: "إن أبسط بادرة جراحية، كشق الجلد مثلاً، لا تُؤدى اليوم بالشكل الذي كانت تُؤدى به في زمن هيپوقراط: فمشرط الجراح لم يعد يتميز بالحد نفسه ولا بالسن نفسه ولا بالمقبض نفسه. وجراح اليوم يحوز معرفة أوفر عن التشريح ويستحكم في عمق الشق، حتى يتجنب النزيف غير الضروري؛ وهو يراقب كل انزلاق للمشرط. ومن ثم فإنه لا يمسك الأداة بالأسلوب نفسه الذي كان يمسكها به أبو القاسم أو أمبرواز پاريه أو حتى فارابوف، على الأرجح، في القرن الماضي. فالمعصم يتخذ وضعاً مختلفاً وهو ما يؤدي أيضاً إلى اختلاف وضع الساعد والكتف بل والجسم كله" (١٥٩). أما فيما يتعلق بالأدوات الحديثة المستخدمة في الجراحة المتقدمة والجراحة الدقيقة فهي محل تحسين

متواصل وقد وصلت إلى درجة غير مسبقة من الدقة والتخلاق.

ومن الواضح بالمثل أن تاريخ الطب، وهو تيار لا ينتهي من الأفكار والأعمال، هو فرع أصيل ومفيد من فروع التاريخ العام. كيف كان الناس يعالجون في الماضي؟ كيف اقترب الأطباء من معرفة الجسم والمرضى والصحة؟ كيف نظرت السلطات، خاصة في المدن، إلى حماية صحة الجمهور ومراقبتها وتحسينها؟ هذه كلها أسئلة ذات قيمة لا تُقدَّر بالنسبة لدراسة المجتمعات في الماضي.

ثم إن ماضي الطب الطويل، والذي يصب بشكل متواصل في مسار التاريخ الأوسع، يمكنه أن يلقي ضوءاً على بعض سمات وهياكل طب اليوم نفسه. وكل من قرأ كتب جورج كانجيلهيم، الفيلسوف ومؤرخ العلم، سوف يعرف أن طب اليوم، بالرغم من أنه يعتبر نفسه علماً خالصاً وتجريبياً، لا أكثر ولا أقل، ما يزال مشبعاً بمفاهيم مسبقة كما كان في زمن ماري - فرانسوا خافيه بيتشا (١٧٧١ - ١٨٠٤) و"مذهب الحيوة" الذي طرحه. فهل يمكننا أن نسمي هذه المفاهيم بـ "الأساطير"، إذا ما استشهدنا بالبروفيسور سورنيا مرة أخرى؟ على أن مثل هذه الأساطير، إن كانت أساطير، تسحل الآن إحداها محل الأخرى بسرعة مذهلة، كما أن دراسة ميكانيزمات الحياة والخلية البشرية تتقدم بمعدل سريع وثوري.

وقد حدث التحول الخامس في منتصف القرن التاسع عشر. ففي غضون سنوات قليلة، حدثت ثورة عميقة. ولم يحدث قبل ذلك الزمن، كما قال البروفيسور بجان برنار، أكتسب الطبيب "كفاءة عقلانية... مع الانبساط الذي تحدث في غضون سنتين سنوات فقط (١٨٥٩ - ١٨٦٥) لاكتشافات أساسية كالاكتشافات داروين وپاستور وميندل وكلود برنار - والتي أرست أسس الطب الحديث والثورة البيولوجية التي تجري الآن تحت أعيننا" (١٦٠). وإلى هذه الأسماء، ربما جاز لنا أن نضيف اسماً آخر على الأقل، هو اسم فرانسوا ماجندي (١٧٨٣ - ١٨٥٥)، أستاذ وشارك كلود برنار في الكوليج دو فرانس. فبعد الثورة الفرنسية، التي جرّت في أعقابها كلية الطب القديمة، كرس ماجندي نفسه قلباً وروحاً للبحث المطلق عن الجديد، ومن ثم لجادل لا ينتهي ولا يرحم ضد معاصريه. وقد تمثل إنجازه في ربط الطب والفيزيولوجيا بعلمى الفيزياء والكيمياء اللذين كانا قد تشكلا بحلول ذلك الوقت: وهي خطوة إيجابية، لأنه، بإقدامه عليها، كان يؤسس الطب التجريبي. وهو لهذا يستحق مكاناً خاصاً في پانثيون المفكرين العبدعين، يماثل مكان إيفاريسنت جالوا (١٨١١ - ١٨٣٢)، الذي يصغره

بنحو ثلاثين سنة، وهو عالم رياضيات رائع، قتل في مبارزة في العشرين من عمره، لكنه كان لديه ما يكفي من الوقت لكي يصوغ في ورقته الأخيرة النظرية الجديدة عن الدوال الجبرية.

والحال أن ماجندي، وتلميذه كلود برنار (١٨١٣ - ١٨٧٨)، كانا يدركان على نحو فريد أنهما يعيشان في لحظة ثورية في تطور الطب. وقد كتب إميل ليتربه (١٨١٠ - ١٨٨١)، عن ماجندي بعد موته: "لم يكن مهتماً بالتاريخ، بل كان مناوئاً له... فالإنساق القديمة وأتمياط الحجاج والمناهج والاتجاهات التجريبية القديمة قد بدت كلها له غير جديرة بالاهتمام من جانب إنسان جاد. وكان يرى أن العلم لا جذور له في العصور السابقة" (١٦١). كما أكد كلود برنار دون تردد أن "العلم المعاصر هو بالضرورة أرقى من علم الماضي، ولا يوجد أي مبرر على الإطلاق للبحث عن أي من تطورات العلم الحديث في كتابات القدماء. إن نظرياتهم، الخاطئة حتماً لأنها لا تستوعب ظواهر تم اكتشافها فيما بعد، لا يمكن أن تكون لها أية أهمية فعلية بالنسبة للعلم المعاصر" (١٦٢).

وهذا كلام غير منصف لكنه مفهوم: فقد كان ماجندي وبرنار على حد سواء منهمكين بجمالية، في خلق علم طبي قائم على التجريب وحده. وبما أنهما كانا ثوريين بالمعنى الحقيقي للكلمة، فقد كان عليهما النضال ضد نظام قديم قائم. كان يحاصرهما عند كل منعطف وكان يهيمن بدرجة غير معقولة على جميع المؤسسات الطبية الفرنسية آنذاك - المستشفيات، كراسي تدريس الطب، المدارس الطبية. وحتى بعد زمانهما، احتاجت الثورة التي ناضلوا من أجلها إلى مزيد من الوقت حتى ترسخ، ككل الثورات البعيدة الأثر بالفعل، خاصة وأن الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا - الأسس الجوهريّة - كانت هي نفسها علوماً ما تزال في طفولتها، وكان تقدمها ما يزال مترجماً وحبيس أطر معينة. والتجالد أن الطب الجديد لن يتغير مفهومه ويتخذ شكلاً جديداً إلا ببطء، وذلك بفضل العيادات الاستشفائية ثم بفضل الطب المعملية فيما بعد. ولن يصبح فعلاً حقاً إلا عندما تأخذ الدولة والمؤسسات الموسعة للصحة العامة بيده وتدعمه.

وليس هدفي هنا أن أحلل التصاعد الطبي، لثورة هي بحد ذاتها مهمة أهمية الغزور الحالي للفضاء، إن لم تكن أكثر أهمية: فهناك الكثير من الكتب التي تفعل ذلك، وكل ما أريده هو الإشارة بإيجاز إلى نتائج هذه المنجزات المعجزة بالنسبة للحياة اليومية للسكان الفرنسيين (٥.٤ مليون نسمة على الأقل عند التعداد الأخير في عام ١٨٩٢).

وكانت هذه النتائج واضحة بالفعل منذ بعض الوقت. ففي نوفمبر ١٩٤٩، عندما توليت منصبي في الكوليج دو فرانس، لم أكن أنا نفسي في أول شبابي، إلا أنه بما أن المستمعين إلي كان بينهم عدد من الناس أكبر سناً مني بكثير، فقد بدأت محاضرتي الاستهلاكية بالقول: "يمكننا أن نكون واثقين من أمر واحد: في زمن فرانسوا الأول، مؤسس هذه الكلية، كان من المستحيل تماماً تصور اجتماع كاجتماعنا هذا، يشمل المحاضر والمستمعين. فالمعجزة الكبرى للتاريخ الحاضر هي التزايد غير المتوقع في متوسط العمر". والواقع أن الهبوط في الوفيات، كما كتب الفريد سوفي مؤخراً، هو "انتصار فزنا به على عدونا الأزلي، الموت" (١٦٣).

وأنا لا أعني أن هذا الانتصار كان نتيجة للتقدم الطبي وحده، والذي زادت من أثره تطورات أخرى كثيرة: التقدم في المواصلات، المباراة الدولية، الانتاج الضخم لما نسميه الآن بالعقاقير السحرية واللقاحات والكلوروفورم (الذي اكتشف في عام ١٨٣١ وطبق لأول مرة في عام ١٨٤٧)، وأشعة اكس، والليزر، والتوظيف الطبي للالكترونيات ولعلم البصريات ولتقنيات التجميد بدرجة صفر فارنهایت، وعمليات نقل الأعضاء، وجراحة القلب المفتوح، والحملة الشاملة ضد أمراض القلب، والنضال الذي لا نهاية له ضد السرطان - وهلم جرا. ودعونا نعترف بأن هذه الحرب متعددة الجوانب ضد الأمراض - حيث أمكن إنقاذ ملايين الناس بالفعل - تشكل فارقاً أهم بالنسبة للجنس البشري من حروبنا السياسية المزرية، حتى أكثرها دماراً.

وهناك نتيجة واضحة تماماً: إن متوسط العمر في فرنسا اليوم هو ٧١ عاماً بالنسبة للرجال و٧٩ عاماً بالنسبة للنساء. وفي عام ١٩٠٠، كان هذا المتوسط ٤٦ عاماً بالنسبة للرجال (١٦٤).

وقد يساعدنا هذا على أن نرى في "منظور مستقبلي" الأوضاع التي نتجه إليها، دائماً تقريباً، وأعيننا مغمضة. لكنني أخشى من أن الناس يميلون إلى إجراء تنبؤات قائمة على مجرد الحجب الخطية، دون أن يدركوا أن المستقبل هو اجتماع خطوط وحركات، بعضها يصعب التنبؤ به. ففي عام ١٩٤٢ مثلاً، تنبأ أحد الديموجرافيين بأنه بحلول عام ١٩٨٢ سوف يكون عدد السكان الفرنسيين ٢٩ مليون نسمة، لكنه الآن ٥٤ مليون نسمة. واليوم، يقول لنا ديموجرافي آخر إنه، مع تساوي الأمور الأخرى، لن يكون هناك سوى ١٧ مليون فرنسي بحلول عام ٢١٠٠. والحال أننا لن نكون بين الأحياء آنذاك حتى نثبت خطأه، لكن مما لا شك فيه أن هذه النبوءة خاطئة. كما يقال

لنا، استناداً إلى ما تسير عليه الأمور الآن، إنه لن يكون هناك ما يكفي من الشبان العاملين لدفع إسهامات لمعاشات من يكبرونهم سنّاً. لكن من المؤكد أن التحدث بهذا الشكل إنما يعني افتراض أن الغد سوف يكون على شاكلة الأمس واليوم بالضبط. فهل تدرك الحكومة الحالية (١٩٨٥)، التي ما تزال حييسة أسلوب سابق في التفكير والتي تواجه مشكلة البطالة أن "هناك تناقضاً بين النسبة المتزايدة لكبار السن في المجتمع الفرنسي والفكرة الساذجة التي تتحدث عن تخفيض سن التقاعد؟"، بحسب تعبير الفريد سوفي مؤخراً.

الحقيقة هي أن كل أبعاد اقتصاد مجتمع الغد سوف يتعين إعادة صوغها من نواح قديمة وجديدة بشكل جذري في آن واحد. إن "شباب" الغد لن يكونوا من هم دون الثلاثين، كما هم اليوم، بل من هم دون الأربعين، ثم من هم دون الخمسين. وقد لا يعود متوسط العمر ٧١ سنة بل ٨٠ أو حتى ٩٠، من يدري؟ وسوف يكون مجتمع المستقبل مجتمعاً يهيمن عليه وقت الفراغ، اللا عمل، بدرجة غير مسبوقة. وسوف يتعين خلق قطاع معين لتلبية الحاجة إلى تسلية الناس، وإلى مساعدتهم على قضاء الوقت وتوفير ما يمكنهم عمله. ثم إن القطاع الثالث - الواسع بالفعل - سوف يجري توسيعه أكثر فأكثر، خاصة إذا ما انطلق التسيير الأوتوماتيكي بالفعل وبدأ في أداء خدمات من شأنها توفير وقت فراغ أطول بكثير لمن يسمون بالسكان العاملين. وقد اعتبر چون نيسبيت الروبوتات بمثابة "عمال الغد المهاجرين" (١٦٦).

الحد من المواليد

وصلت جميع المجتمعات الصناعية اليوم إلى مأزق بيولوجي. فهي تعاني من مرض عميق الجذور ومتأصل لا علاج له بالفعل. فالحد الاختياري من المواليد قد أدى، أو يعد بأن يؤدي، إلى انهيار ديموجرافي. وعندما يجتمع الحد من المواليد مع الزيادة في متوسط العمر، فإن ذلك إنما يسفر عن مجتمع من كبار السن - عن اختلال متزايد وخطير للتوازن بين السكان القادرين على العمل والسكان غير القادرين على العمل. ومن ثم ففي جميع أرجاء أوروبا، وإن كان في فرنسا بشكل خاص، تتصاعد أصوات التحذير التي تنبأ بالهلاك وتنتقد ممارسات منع الحمل انتقاداً مريراً.

دعونا نوضح ما نتحدث عنه. هناك سلسلة بأكملها من الممارسات التي يُراد بها بشكل أو بآخر الحد من عدد المواليد المحتملين. ومن بين هذه الممارسات: الجماع

الناقص (coitus interruptus)؛ وعدم القذف (implexus restrictus) والعازل الذكري واستخدام ما يسمى بفترة الأمان (الـ Ogino) ومبيدات المنى وخاصة حبوب منع الحمل، المتاحة في فرنسا منذ الستينيات والمسئولة بحد ذاتها عن ثورة في العادات الجنسية. فهل يجب أن نضيف إلى ذلك التعفف عن ممارسة الجنس، والامتناع عن الزواج، والزواج المتأخر واللوواط؟ وخلافاً لمعلقين آخرين هذه الأيام، لن أدرج بشكل تلقائي قتل الأطفال (كما كان يمارس يوماً ما في الصين) أو الإجهاض، الذي بالرغم من أنه قد يكون منتشرًا إلا أنه إذا أردنا الدقة منع للولادة وليس منعاً للحمل.

في الماضي، كانت وفيات الأطفال هي التي تحد من التكاثر. وهذه لعنة اختفت اليوم (وقد أصبحت فرنسا الآن زعيمة للعالم في هذا الصدد) (١٦٧) لكنها كانت في الماضي منتشرة بشكل مأساوي، خاصة بين اللقطاء، الذين كانوا أكثر عرضة للموت. من الأطفال الآخرين. "في إكس - آن - بروفانس"، بين ١ يناير/ كانون الثاني ١٧٢٢ و ٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٧٦٧، من بين ٨٤٤، ٤ طفلاً تركوا في ملجأ سان چاك لمواحد كل ثلاثة أيام، لم يفلت من الموت غير ٢٢٤، ٢، أي أقل من النصف (١٦٨). وهذا مجرد مثال بين أمثلة كثيرة. وبحال أن بير شوني، المؤرخ، الذي احتج بشكل منتظم، في الإذاعة والتلفزيون وفي كتبه ومقالاته، ضد قانون إياحة الإجهاض في فرنسا والصادر في عام ١٩٧٥ (أصبح ساري المفعول بشكل دائم في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٩)، قد مضى إلى حد القول بأنه: "يجري اليوم قتل الأطفال قبل أن يجيئوا إلى العالم؛ وفي الماضي، كانت وفيات الأطفال تراعي بلا كلل أن يموتوا بعد أن يولدوا". من المؤكد أن منع الحمل ليس ابتكاراً حديثاً. لكنه لم يصل إلّا في الأزمنة الأخيرة إلى مقاييس وبائية، حيث امتد إلى أوروبا برمتها وبدل التوازن القديم وأدى إلى ثورة في الأخلاق. والحال أن هذه الثورة قد حدثت في فرنسا قبل أن تحدث في أي مكان آخر. وكان بالإمكان رصدها بالفعل بحلول منتصف القرن الثامن عشر. ولم يكن بوسع المعاصرين أن يتخلفوا عن رؤيتها وعن تخيل نتائجها. وفي هذا الصدد، كنا أسبق من جيراننا الأوروبيين بمائة سنة كاملة.

لكن هذا سبق كان كارثياً بالنسبة للسكان الفرنسيين. فقد راحوا يتزايدون ببطء، بينما واصل جيراننا التوسع - بمعدلات أسرع بكثير خلال الثورة الصناعية. وهكذا تراجعت فرنسا، نسبياً، داخل أوروبا. ومع وجود ٢٧ مليون نسمة في عام ١٨٠٠ (في مقابل ١٨ مليون في إنجلترا و ٢٤، ٨ مليون في ألمانيا)، كانت فرنسا الأمة الأكثر عدداً.

في السكان في أوروبا، فيما عدا روسيا. لقد ضمت ١٥,٧ في المائة من السكان الأوروبيين - وهي نسبة هبطت إلى ١٣,٣ في المائة في عام ١٨٥٠ ثم إلى مجرد ٩,٧ في المائة في عام ١٩٠٠. وهكذا دفعت فرنسا ثمناً غالياً لتورطها في حلقة مفرغة لم تنج منها تماماً. قط، لأنها لم تكن قط تملك القدرة (أو حتى الإرادة) لكي تحاول ذلك بالحيوية المطلوبة. وصحيح تماماً أن الشيء نفسه حدث في نهاية الأمر للأمم الأوروبية الأخرى، بمجرد سيطرة الحد من المواليد: فهي أيضاً سوف يكون من الصعب عليها تغيير الاتجاه..

فهل توقفت فرنسا عن أن تكون قوة عظمى. ليس، كما هو الاعتقاد السائد، في ١٥ يونيو/حزيران ١٨١٥ في ساحة معركة ووترلو، بل قبل ذلك، خلال عهد لويس الخامس عشر عندما حدث إيقاف لمعدل المواليد الطبيعي؟ خلال القرن التاسع عشر، كما أوضح الفريد سوفني، اتبعت بلدان أوروبا الغربية أنماط تطور جد-مماثلة-أحدها للآخر: فكل شيء قد راح يتحرك بمعدل سرعة واحد إلى هذا الحد أو ذاك - التغيير الاجتماعي والسياسي، الصناعة، الطب وهلم جرا، حيث الفارق مجرد سنوات قليلة.. ولم يكن هناك غير استثناء واحد، يخص بلداً واحداً: فقبل الآخرين بمائة سنة، "بدأت فرنسا تختزل مخزونها من الشباب في عين اللحظة التي كان السباق فيها على التوسع العالمي قد بدأ". .. والحال أن مجمل مسار التاريخ الفرنسي منذ ذلك الحين قد تأثر بشيء حدث في القرن الثامن عشر (١٦٩).

يجب علينا إذًا أن نحلل هذا التطور المبكر، وأن نستكشف أسبابه.. ولعل أول ما يجب النظر فيه هو تعليقات المعاصرين، أكانوا اقتصاديين أم -ديموجرافيين" (مع أن الكلمة لم تكن قد وجدت بعد، فكلمة **démographie**: لن تُشتق إلا في عام ١٨٥٣).

إن الاقتصادي، والكاتب الموهوب في رأيي، آنج جودار، قد اتهم حب عصره للترف باعتباره ناصحاً سيئاً في هذا الصدد: "إن هذا الحب نفسه للدعة وللراحة هو الذي يملأ فرنسا بالعزّاب... الرجال الذين يختفون من العالم هم وذريتهم كلها. فهم يعتقدون أن من العار أن يعجز المرء عن عرض زوجة في المجتمع بما يكفي من الإبهار؛ ولذا فإنهم يستتجون أن من الأفضل الامتناع عن الزواج أصلاً. وأنه لأمر مذهل أن يُحل كل يوم دون زيجات كثيرة بسبب مركبة مذهب أو عدد كثر أو قل من الخيول والخدم والحشم" (١٧٠). ثم إن "الإنجاب لم يعد الآن نتيجة الارتباط

الزواجي، فالناس يخشونه ويعملون، بشكل مباشر أو غير مباشر، على عرقلة تقدمه... فالترف يجعل معظم الناس يعتبرون كثرة الأطفال عاراً. وكلما زاد ثراء الرجل، كلما كانت حاجته إلى الحد من ذريته أعظم" (١٧١). والأسوأ من ذلك أن "عدوى {الترف} تنتشر وتؤثر بشكل خفي على رقيقي الحال الذين يعتمد على عملهم مجمل ببيان الحكم المدني" (١٧٢).

لقد كُتبت هذه الكلمات في عام ١٧٥٦، في عین الوقت الذي بدأت فيه حرب الأعوام السبعة (١٧٥٦ - ١٧٦٣) وبينما كان ما يزال أمام لويس الخامس عشر ثمانية عشر عاماً من عهده، قبل موته في عام ١٧٧٤.

وفي عام ١٧٥٨، كتب راهب من جنوب فرنسا، هو جان نوفي دو كافيراك، عن الرجال الذين "يرفضون دون أسف اسم الأب العذب... فالبعض يكبح رغباته، والبعض الآخر يتحايل على الطبيعة" (١٧٣). وفي عام ١٧٦٣، أشار تيرمو دو لا مورانديير، وهو "ديموجرافي هاو"، إلى انتشار ممارسات منع الحمل: فالأزواج لا يريدون غير طفل واحد أو لا أطفال على الإطلاق. وهذا "التدنيس لقدسية الزواج، هذه الحقارة المخزية قد امتدت من شخص إلى آخر كالوباء"، وسوف يؤكد كهنة الاعتراف أن كل طبقة في المجتمع، غنية أم فقيرة، قد تأثرت بهذا الموقف (١٧٤). وقد شجب النيل دو سيرفول في عام ١٧٧٠ الأثر الخبيث على صحة الناس لـ "هذا المسلك الفظيع" الذي ناضلت الكنيسة ضده دون طائل (١٧٥). كما كان الكاتب الشهير موهو حاسماً بالمثل: "إن النساء الثريات... لسن الوحيدات اللاتي يعتبرن تكاثر النوع البشري حماقة بالية؛ فهذه الأسرار القاتلة، التي لا يعرفها حيوان آخر غير الإنسان... قد تغلغلت بالفعل في الريف؛ ويجري التحايل على الطبيعة حتى في القرى" (١٧٦). وفي نورماندي في عام ١٧٨٢، إذا ما صدقنا الأب فيلين، وهو أحد مبشري سان - جان - أود وكان يعمل في المقاطعة "في إنقاذ الأرواح في المدن والريف"، فإن "جريمة أونان {الجماع الناقص} المخزية... منتشرة وجد شائعة بين المتزوجين... خاصة عندما لا يريدون أن يكون لديهم كثرة من الأطفال، دون أن يكونوا راغبين في حرمان أنفسهم من المتعة التي يحصلون عليها من الزواج؛ وهذا المسلك المؤسف شائع بين الأغنياء والفقراء على حد سواء: إن دوافعهم مختلفة لكن جريمتهم واحدة. ونادراً جداً ما يعترفون بها؛ ولذا فإنها السبب القاتل لما حل بكثيرين من الناس من اللعنات" (١٧٧). وبعد ذلك بضع سنوات (١٧٨٨)، شجب ميسانس "الحساب" (أي

الفعل الذي ينطوي على قرار ومسؤولية) "الذي يدفع رجلاً إلى أن لا يريد غير طفل أو طفلين؛ والعظمة الزائفة التي تدفع [هذا الرجل] . . . إلى أن يكون عنده وفرة من الخدم ووفرة من الضيوف على المائدة، بدلاً من أن يجلس محاطاً بأطفاله؛ وأكبر مفسدة، والتي تتوج كل شيء، مفسدة القضاء على بذرته وهو يذرهما". بل إن القلق قد امتد إلى أوساط الحكم. ففي عام ١٧٨٥، أعرب نيكر عن الخوف من احتمال أن يؤدي مثل هذا الفساد للأخلاق إلى أن يهبط عدد المواليد تحت مستوى عدد الوفيات.

ومثل هذه الشواهد لا تدع مجالاً للشك في أن منع الحمل كان آخذاً في الانتشار، وأنه كان يكسب مؤيدين وكان ينتقل كالمرض: وكانت الممارسة المتبعة هي الجماع الناقص. لكن التفسيرات التي عادة ما تقدم لانتشاره قد تكون مفرطة في التبسيط إلى حد ما. فالاعتقاد السائد هو أن "الأسرار القاتلة" قد اكتشفت وطُبِّقت من جانب الطبقات العليا ثم انتقلت إلى الطبقات الوسطى ومنها إلى الناس العاديين في المدن والبورجات، قبل أن تصل إلى سكان الريف "الذين لم تفتح عيونهم عليها إلا فيما بعد". ويكتب أحد المؤرخين فيقول: "إن وصول منع الحمل إلى القرى كان تتويجاً لانحراف ابتدع في المدينة" (١٧٩). ولكن هل كان الريف "بريئاً" وجاهلاً إلى هذا الحد، كما يقال لنا؟

لقد بينت دراسة قام بها جي آر بلو لخمس قرى في المارن الأعلى، غير بعيد عن جوانفيل، أنه، في القرن السابع عشر، كان الأطفال في هذه القرى يولدون إما بعد الحصاد أو بعد موسم قطف العنب، بحسب مهن آبائهم (١٨٠). ويمكن أن نستثني الطفل الأول، الذي يرتبط مولده ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الزواج. إلا أن مواعيد مولد الأطفال الآخرين يبدو أنها كانت مقصودة. والحال أن كون مثل هذا التنظيم للأسرة نتيجة لممارسة منع الحمل لا نتيجة للتغف الأقل أرجحية عن ممارسة الجنس إنما يصبح أمراً مرجحاً بقوة عندما نعرف أنه في الوقت نفسه، في نورماندي السفلى، رهي إقليم "كانت إنجابية المتزوجين فيه تهبط إلى مستويات متواضعة في وقت جد مبكر" (١٨١)، كان منع الحمل محل شجب منتظم من جانب كهنة الاعتراف، بمن فيهم أولئك الذين يوجدون في المناطق الريفية. وفي عام ١٦٥٠ في أبرشية كوتانس، كشفت إرسالية أن "الخطيئة الشائنة يجري ارتكابها بأفزع شكل وبأبشع جهل بحيث إن الناس غالباً لا يتصورون أنهم يرتكبون خطيئة أصلاً" (١٨٢).

ومن ثم فإن المرء لا يدهش عندما يقرأ تعليقاً كتبه في عام ١٧٥٤، أي في وقت

متأخر، وإن كان يجري تقديمه آنذاك كحقيقة عامة، النيل المزعوم جون نيكولس، وهو في الواقع فرنسي ولد في لو مان واتخذ هذا الاسم المستعار حتى يتحدث بحرية عن كل من فرنسا وإنجلترا: "فيما يتعلق بالفلاحين، فإن الريف يقدم أمثلة كبيرة للفقر في هذه الطبقة مثلما تقدم المدن أمثلة كبيرة للثروة. فعملهم يقع الجانب الرئيسي من عبء ضرائب الدولة. والفلاح الذي لا يملك ضروريات الحياة إنما يخاف من العدد الكبير للأبناء خوفاً من الطاعون. والخوف من الفقر الذي لا يحتمل يمنع البعض من الزواج؛ وقد أصبحت الرغبات أقل إنجابية، حتى في هذه الطبقة" (١٨٣).

وتظهر استنتاجات مماثلة من البحوث التي قام بها مؤرخاً ديموجرافيون ومؤرخون، في الوسيطيين الريفية والمدنية، وفقاً للمعايير والمناهج التي صاغها لوي هنري وبالاكتفاء على سجلات الحالة المدنية. وهي تمكننا من أن نجيب بشكل تقريبي معدل إنجابية النساء المتزوجات من الفواصل الزمنية المنتظمة أو غير المنتظمة بين ولادات أطفالهن. وقد ظهرت بالفعل بضعة استنتاجات: لقد أصبح منع الحمل جزءاً من السلوك الفرنسي في وقت مبكر بشكل خاص، قياساً إلى المسلسل الزمني للضرورة نفسها في بقية أوروبا. وأياً كان تفسير المؤرخين للأمر، فإن هذه الممارسات قد انتشرت انتشار النار في الهشيم مع الثورة الفرنسية، بالرغم من أنها كانت مستخدمة بالفعل بشكل واضح قبل ١٧٨٩ بكثير.

وفي مولان مثلاً، وهي مدينة صغيرة على نهر السين، تبعد عن باريس بمسافة ٤٧ كيلو متراً، يبدو أن نسبة ٩٠ في المائة من المتزوجين لم تفعل سوى القليل أو لم تفعل شيئاً، حتى نحو عام ١٧٤٠، للحد من المواليد: أما نسبة الـ ١٠ في المائة الباقية فقد كانت تتألف إما ممن يشكون من العقم أو ممن يقدون إنجابهم عمداً. واعتباراً من عام ١٧٤٠، زادت نسبة الأخصرين، حيث ارتفعت إلى ١٧ في المائة بين عامي ١٧٤٠ و ١٧٦٤، بينما امتدت درجة من درجات الجيد من المواليد إلى بعض المتزوجين الآخرين؛ واعتباراً من نحو عام ١٧٦٥ إلى عام ١٧٨٩، كان نحو ٢٥ في المائة من المتزوجين يمارسون منع الحمل. لكن الفاصل الجاد يحدث نحو عام ١٧٩٠: إن نسبة المتزوجين الذين يولد أطفال أو يقدون إنجاب الأطفال اختارياً انما تقفز من ٢٤ في المائة إلى ٤٦، في المائة بين عامي ١٧٩٠ و ١٨١٥، ثم إلى ٥٩ في المائة بين عامي ١٨١٥ و ١٨٣٩ (١٨٤).

وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة لمولان، فمن المرجح أنه كان صحيحاً بالنسبة

لأنها كن أخرى. ولكن هل كان صحيحاً بالنسبة لمجمل فرنسا؟ فلا يبدو هذا محتملاً. ويكتب ج. ب. باردیه أنه في رومان "لم يؤد سقوط الباستيل إلى أية زيادة في منع الحمل، الذي كان مستقراً بالفعل منذ نحو قرن" (١٨٥). وهو يوضح بشكل متقن أنه "في حين أنه في عام ١٦٧، كان هناك ثمانية أطفال للأسرة، فإن العدد قلماً كان يصل إلى أربعة بحلول عام ١٨٠٠. وفي أقل من ١٥٠ سنة، كان سكان رومان قد اكتسبوا إدراية عجيبة بـ "الأسرار القائلة". فكيف تسنى لهم في غضون أربعة أو خمسة أجيال أن يختزلوا عدد الأطفال إلى النصف؟ إن التحليل الديموغرافي لا يكشف عن ماهية أساليب منع الحمل، لكنه يشهدنا بالفعل على تسرع وتحليل وتأثر حدوث منع الحمل" (١٨٦).

وفي ثلاث قرى في الایل دو فرانس، خلافاً لذلك، = هي بومون = لي = تونين ومارشرو ولو مینیل - تیرینی (وهي الآن كومونات في مركز بوفيه، département التناز) (١٨٧) = يبدو أن العادة لم تستقر إلا في أواخر القرن الثامن عشر. وينطبق هذا الكلام نفسه على شاتيون - سور - سين حيث يمكن رصد قدر من التحد من حجم الأسرة بين عامي ١٧٧١ و ١٧٨٤، وألو أن البيانات لا تعطي غير فترة قصيرة (١٨٨). في حين أنه في سينجان - آن - ميلانسا، قرب لیل، في منطقة أكثر هامشية على حدود فرنسا، نجد أن هذا التطور قد حدث في وقت أكثر تأخراً، وكانت أبعاده في البداية متواضعة تماماً، حيث لم يستقر إلا نحو منتصف القرن التاسع عشر، أما القائدية، حتى في عام ١٨٣، فقد ظلت من الناحية العملية بعيدة عن "الثورة المalthوسية" (١٨٩).

وليس في هذا ما يدعو إلى العجب، فقد أبدت فرنسا ردود فعل متباينة تجاه هذا التطور الأخذ في النمو. والظروف الواحدة لا تؤدي بالضرورة إلى نتائج واحدة. والتفسيرات التي تبدو واضحة بضرورة قبلية قد تجد تأكيداً لها في مكان دون أن تجد تأكيداً لها في مكان آخر. وعلى سبيل المثال، ففي بريتايا، كما في نورماندي، "كانت المستواة في الإرث هي القاعدة السائدة بين العوام"، و، كما في نورماندي، "كانت هناك عناية كبيرة بالأطفال" (١٩٠)، وهما دافعان قد يدفعان الأسر كقاعدة إلى الأخذ من عدد الأطفال. إلا أنه يبدو أن بريتايا كانت مalthوسية كجاراتها.

والواقع أنه كلما اتسعت دائرة البحث كلما أصبحت المشكلة أكثر تعقيداً. وقد جرى التشديد على عوامل كثيرة، الواحد بعد الآخر: عمر الوالدين عند الزواج؛ إرضاع الطفل من جانب أمه الطبيعية؛ أو اللجوء إلى مرصعة أخرى؛ وضع الأسرة في نطاق

الأعمال، وضعها الاجتماعي؛ الوسط الثقافي الذي يمكنه، كما نعلم، تحديد شكل الأسرة نفسه؛ القوانين أو الأعراف التي تحكم الإرث (والتي تتباين بشكل واسع بين المقاطعات)، وأخيراً مدى كفاءة دروس الكنيسة التي انخرطت بقوة في الجدل الذي دار حول الموضوع. والحال أن أي تفسير عام قد يقترحه المرء من المحتمل أن يكون غير مناسب بالنسبة لأي مكان محدد أو في أية فترة محددة وأن لا يكون بالإمكان تطبيقه بشكل واسع إلا إذا سمح بمدى واسع للتباينات وللاختلافات الزمنية. وأنا أقبل كل هذا، إلا أنه ما زالت هناك جدوى من وراء محاولة فهم كيف استقرت ظاهرة منع الحمل - التي كتب لها الانتشار طويلاً وعرضاً - في البداية، ولماذا ظهرت في فرنسا بشكل أسبق مما في أي مكان آخر.

يجب أن نتجنب الخطأ الشائع والذي يتمثل في رد كل شيء إلى عصر التنوير وإلى السنوات العاصفة أو المزعزعة للاستقرار والتي واكبت الثورة الفرنسية. فمنع الحمل ليس اكتشافاً يمكن توصيله بالأسلوب نفسه الذي يجري به توصيل القيم الثقافية أو الأوبئة. كما لا يجب أن نستنتج أن ممارسات منع الحمل قد ابتكرت، كما يزعم البعض، من جانب الارستقراطية الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر أو لويس الخامس عشر، وأن مثلاً سيئاً قد ضربه الدوقات والماركيزات ومعاصرو مدام دو سيفينييه (التي كانت هي نفسها جد تواقعة إلى أن تباعد ابنتها بين مرات حملها) (١٩١).

إن منع الحمل يرجع إلى زمن بعيد في الماضي. وقد زعم بعض المؤرخين أن الحد الاختياري من المواليد هو الذي أنهى الحضارة الإغريقية؛ وأنه في عهد أغسطس المجيد في روما، كان عدد الأطفال أقل من ذي قبل. وفي الكتاب المقدس، يعد أونان الممثل الرمزي للجماع الناقص. وتكفيزات العصور الوسطى عن الذنوب، من القرن السادس فصاعداً، تدفع المرء إلى الاعتقاد بأن "الأسرار القاتلة" كانت قد تغلغلت في حضارة أوروبا الغربية منذ وقت طويل. وأنا أميل إلى تصديق ج. ب. بارديه (١٩٢) عندما يقول إن من الصعب تخيل أي مجتمع "يجهل منع الحمل" جهلاً مطلقاً، لأنه حتى المجتمعات التي يُعتقد أنها كانت من هذا النوع قد ضمت بين صفوفها أزواجاً "لهم ممارسات مريبة". والحال أن الوصول مثلاً من العدد جد المنخفض للمواليد غير الشرعيين في القرى الفرنسية في القرن السابع عشر إلى استنتاج أن فترة كبح للشهوات طويلة إلى أبعد حد كانت مفروضة على الشبان قبل زواجهم، لأن منع الحمل كان غير معروف أو حتى يتعذر تصوره قبل الأزمنة الحديثة، كما ذهب إلى ذلك فيليب آريس،

إنما يبدو لي غير مستساغ، مثلما يبدو غير مستساغ لـ ج. ل. فلاندران. فالمومسات، على أية حال، واللواتي كن دائماً أساتذة في مسائل الجنس، يوجد اتفاق عام على أنهن قد مارسن منع الحمل باعتباره أمراً عادياً. وعندما يكتب مونتاني عن النساء اللاتي يلدن سراً، فإنه يشير إلى "جميع العاهرات {graces} اللاتي يخفين كل يوم أطفالهن، ولادةً وحملًا" (١٩٣). (وكلمة grace لها هنا أيضاً معناها التحقيري الحالي، لأنها توضع من ثم في مقابل "امرأة سابينوس الشريفة").

ثم إنه إذا كانت الكنيسة قد ناضلت بهذا القدر من الشراسة، وحالفها النجاح أحياناً، ضد هذا الاعتداء على الرباط المقدس وعلى أهداف الزواج المسيحي، وإذا كان كهنة الاعتراف قد انزعجوا منه وطلبوا من أساقفتهم إرشادهم إلى سبل التعامل مع مرتكبي الخطيئة، فما ذلك إلاً لأنه كانت هناك، دون شك، مشكلة تمثل تهديداً للزواج كما تتصوره الكنيسة.

موقف الكنيسة

من المهم أن ندرك ما كان عليه التمثيل المثالي للزواج المسيحي، إلى عهد قريب نسبياً - فهو جد بعيد عن الأفكار الحاضرة. إذ لم يكن رباطاً قائماً على الحب، ناهيك عن حب الجسد. ونحن نقرأ في نصوص ترجع إلى القرن السادس عشر أن جميع المشاعر الغرامية تهدد "طهارة فراش الزوجية". إن الرجل الذي "يشبع" مع زوجته "شهوة الجسد المختلفة" إلى درجة أنه حتى لو لم تكن هي زوجته لـ "اشتبهى النوم معها"؛ الرجل "الذي يبدو مع زوجته عاشقاً مغرماً بأكثر مما يبدو زوجاً هو مرتكب للزنا". فالزواج قد وجد على وجه التحديد "للوفاة من الخطيئة" التي تتمثل في البحث عن المتعة لذاتها ومن أجل إيجاد ذرية يمكن تربيتهما على حب الرب والخوف منه" (١٩٤). فهدف "قدسية الزواج" هو إيجاد "ذرية تؤبد حمد الرب" (١٩٥)، و"إنجاب أطفال وتربيتهم إعلاءً لمجد الرب" (١٩٦). والويل لمن ينسى هذه القاعدة الأساسية. والحال أن موعظة أسقفية مو، عندما كان بوسويه أسقفاً هناك، كانت تذهب إلى أن أعظم خطيئة يمكن أن ترتكب أثناء الزواج هي "الامتناع عن إنجاب أطفال، وهو جرم مقبوت"، ما لم يكن السبيل إلى ذلك بالطبع هو العفاف المتفق عليه من الطرفين. والواقع أن الجرم المقبوت، الذي حرمة الكنيسة بلا هوادة، كان خطيئة قاتلة، تحكم على الخاطيء بإعلان التوبة وتحرمه من تناول القربان المقدس.

ولا يجب أن نتصور أن هذه الفكرة عن الزواج كانت مقصورة على أوساط المتزمتين. فقد كتب مونتاني بعبارات ما كان كاهن اعترافه ليتردد في قبولها عن "رباط" الزواج "الديني والسورع"، وعن الحاجة إلى تطهيره من كل "انحلال وتجاوز" (١٩٧). وهو يكتب فيقول: "إن العهر الشائن الذي تدفع إليه الأهواء الأولى في هذه العلاقة ليس فقط غير لائق بل إنه ضار أيضاً إذا ما استخدم حيال زوجاتنا. دعوهن على الأقل يتعلمن قلة الأدب على أيدي آخرين. إنهن مهينات دائماً بما يكفي للتجاوب مع حاجاتنا".

والحال أن الجملة التي شددت عليها إنما تبدو ناشئة في هذا المقتطف الوعظي. ويبدو أن قلة الأدب و"العهر" خارج الزواج، في الزنا مثلاً، من الأمور الطبيعية تماماً. وهذا يشير بوضوح إلى السهولة الواسعة الموصى بها والمطلوبة بين عالم الزواج، عالم النظام الأسري، عالم الكرامة، وذلك العالم الآخر، عالم الغراميات خارج إطار الزواج، حيث يمكن إطلاق العنان للوحش الهائج. وهكذا كان هناك أسلوبان لتجريب الحياة الجنسية، الأسلوب الفاضح والأسلوب الفاضل، وما كان مسموحاً به في أحدهما ليس لائقاً، من الناحية النظرية، في الآخر. والحال أن برانتوم، المتساهل إلى حد بعيد مع المحامقات الجنسية والحكايات الداعرة التي يحكيها باستمتاع أو بتسامح، إنما يقول هو نفسه إنه وفقاً "للكتاب المقدس... ليست هناك دعوة إلى أن يحب الزوج والزوجة أحدهما الآخر أكثر من اللازم... بهوى داعر وماجن؛ لأنهما إن وضعا وأغرقا جماع مشاعرهما في هذه المتع الحسية وإن انكباً عليها انكباً محموماً، فسوف يهملان الحب الذي يجب أن يشعرا به تجاه الرب" (١٩٨). وهو يتحدث في مكان آخر عن "الخطايا" التي من شأنها "أن تلطخ" الزواج. لكنه يعتبر هذه الخطايا نفسها (كالأوضاع غير المتعارف عليها في ممارسة الجنس) جد فاتنة عندما يجري عرضها بخبث في بلاط أميري على مجموعة من الشابات على شكل صور منقوشة داخل الكوب الذي يشربن منه. "إن عديدات منهن قد فجرن في تجريبها، لأن كل من له روح يريد أن يجرب كل شيء" (١٩٩).

وهكذا فإن الشيء المدهش هو أن ما كان يعتبر إثماً خطيراً داخل الزواج قد اعتبر أقل خطورة، بل لقد اعتبر طبيعياً، خارج الزواج. على أن الأكثر إثارة للدهشة هو أن رأي الكنيسة والرأي العام في المجتمع كانا متفقين في هذا. ويتحدث برانتوم مثلاً بشكل مكشوف تماماً عن الجماع الناقص الذي يعتقد بعض النساء أن من واجبهن فرضه

في علاقة زنا، "حتى يتفادين أن يظن أزواجهن أن الأطفال أطفالهم وهم ليسوا أطفالهم وحتى لا يبدو أنهم قد أخطأ في حقهم أو دَيَّسُوهم، ما دام المني لم يدخل فيهن... وهكذا فإنهن شريفات بحكم حسن نواياهن" (٢٠٠). وقد يبدو هذا الاستنتاج ساخرًا، لكن رأي الكنيسة كان يتمثل بالفعل في أن تجنب إنجاب طفل من علاقة زنا أو فسق أو جماع محارم إنما يخفف من حجم الخطيئة. وكانت تلك هي الحال بدءًا من أحكام التكفير في العصور الوسطى، والتي تضاعف سنوات التكفير المفروضة على الفاسق أو الزاني مرتين أو ثلاث مرات إذا كان قد تسبب في مولد طفل غير شرعي - إلى مجادلات المفتين وكهنة الاعتراف في القرن السابع عشر، والذين انتهوا إلى أنه في جميع العلاقات الغرامية المحرمة، يعد الفعل الجنسي الناقص شرًا أصغر، يخفف من حجم الخطيئة.

وقد دافع المفتون عن مثل هذا التساهل باسم تفسير أكثر من معقول للخطيئة. إلا أن مما لا مراء فيه أنه قد جرى فرضه على كهنة الاعتراف الذين كان عليهم أن يشتبكوا مع الحياة اليومية، من جراء مجرد الحرص على تجنب المواليد غير الشرعيين. وما كان يمكن للمحصلة النهائية إلا أن تتمثل في تشجيع انتقال العدوى من مجال إلى آخر من مجالي الحياة الجنسية المنفصلين بشكل مصطنع، المجال الزوجي والمجال خارج الزوجي. والحال أن الأب فيلين نفسه الذي كان قد روعه الطابع المنتشر لـ "جريمة أونان المقيتة" في عام ١٧٨٢، قد لاحظ أن الأزواج الذين حظرت عليهم الكنيسة والعلم الطبي آنذاك الإنجاب خلال فترة إرضاع طفل، قد نجوا من فترة تكفير طويلة بالشكل الذي أفلتت به سيدات برانتوم الزانيات، وبراحة الضمير نفسها (٢٠١).

إلا أنه قبل انقضاء وقت طويل، سوف يرفض الأزواج السماح للكنيسة بالتدخل في حميمية علاقاتهم. وكانت تلك هي المرحلة الأخيرة من مراحل التفكك الطويل للزواج المسيحي، ونهاية توازن ثقافي وانهيار نظام قديم، وقد حدث ذلك ببطء كما هي الحال دائماً في تغيرات من هذا النوع.

ومن الناحية النظرية، لم تتغير التعاليم الكنسية حول منع الحمل. لكن الغالبية العظمى من الكاثوليك أنفسهم قد تخلت عنها. وكانت تلك هي الحال بالفعل بحلول عام ١٨٤٢. والواقع أن المونسنيور بوفيه، أسقف لو مان، قد اضطر في ذلك العام إلى أن يشير إلى أن "جميع المتزوجين الشبان تقريباً ليسوا على استعداد لأن تكون لهم ذرية وفيرة العدد، ومع ذلك فليس بوسعهم من الناحية الأدبية أن يمتنعوا عن الفعل

الزواجي . وعندما يسألهم كهنة الاعتراف كيف يمارسون حقوقهم الزوجية ، فإنهم عادة ما يصابون بالصدمة ، وبالرغم من تحذيرهم ، لا يمتنعون عن الفعل الزواجي ، كما لا يمكنهم أن يتصالحوا مع تكاثر غير محدد للنوع وهم يعترفون كلهم عن طيب خاطر بأن عدم الإخلاص للشريك في الحياة الزوجية والإجهاض المتعمد هما من الخطايا العظيمة جداً . وقليلون منهم هم الذين يمكن إقناعهم بأن عليهم ، حتى لا يرتكبوا خطيئة قاتلة ، إما أن يراعوا العفاف التام داخل الزواج أو يغامروا بإنجاب ذرية وفيرة العدد " (٢٠٢) .

والحال أن الإلغاء التدريجي للتحريم إنما يعبر عن الانتشار السريع لمنع الحمل ، بعد السنوات الأخيرة للقرن الثامن عشر . لكنه لا يفسر السبب في أن الناس كانوا غير راغبين في إنجاب أطفال . وفي القرن السادس عشر ، وفقاً لمونتاني ، كان " الجزء الأكثر عادية والأوفر صحة بين البشر ، يعتبر وفرة الأطفال حظاً سعيداً عظيماً " (٢٠٣) . فلماذا ، بعد قرنين ، أصبحت هذه الوفرة غير ملائمة ؟ لماذا كان عدم الاستعداد هذا مبكراً بشكل مدهش وملحوظ في حالة فرنسا الخاصة ؟ هذا هو السؤال الأكثر إثارة لحيرة المؤرخ .

الحالة الفرنسية

بصورة قبلية ، من المرجح أن أي تفسير لا يراعي الاختلافات (لا يميز بين فرنسا من ناحية وأوروبا من الناحية الأخرى) سوف يكون خاطئاً . ولذا فلا يمكننا القول إن تبكير فرنسا في هذا الصدد ناشيء عن حالتها الاقتصادية مثلاً : ففرنسا كانت من الناحية الاقتصادية مماثلة لجاراتها . كما لا يمكن القول إن الفرنسيين كانوا أول من اكتشف منع الحمل : فقد كان معروفاً منذ زمن بعيد ولم يكن أي شعب من شعوب أوروبا بحاجة إلى إطلاعه عليه . كما لا يمكننا القول واثقين تماماً إن تنامي حب الأطفال في القرن الثامن عشر هو الذي قاد الفرنسيين إلى إنجاب عدد قليل من الأطفال حتى يتسنى لهم تربيته في ظروف أفضل . فقد شهدت أواخر القرن الثامن عشر تزايداً مهولاً عندنا للأطفال المتخلى عنهم .

ولا يمكنني أن أفكر إلا في تفسيرين يمكن قبولهما : تفسير طرحه الفريد سوفي (٢٠٤) ، عارضته بشكل متسرع إلى حد ما في الماضي ؛ والتفسير الآخر هو الحجة التي طرحتها ضده آنذاك . وقد يتماشيان معاً ، إلا أنهما لا يعزز أحدهما الآخر حيث إنهما مختلفان من حيث النوع : فأحدهما ثقافي ، والآخر إقتصادي أو ، بالأحرى ،

ديموجرافي . وبما أن هناك وفرة من المفاجآت في هذا المجال، فإن المفاجأة هنا هي أن الفريد سوفي ليس الديموجرافي هذه المرة، بل مؤيد تفسير ثقافي (كدت أقول: مثالي).

ينظر الفريد سوفي إلى الحد من المواليد في فرنسا على أنه نتيجة لتحرر الفرنسيين من تعاليم وقيود ونير الكنيسة الكاثوليكية. فقد سعت الكنيسة إلى السيطرة على الجسد، حتى يتسنى لها أن تسيطر بشكل أفضل على الروح. والحال أن الدراما التي شهدتها القرن الثامن عشر كانت نوعاً من الثأر من جانب الإصلاح. فبعد أن ترددت فرنسا، قبل قرنين، بين روما ولوثر، أو بالأحرى بين روما وكالفن، اختارت روما، لكن هذا الاختيار قد ارتد في الاتجاه المضاد. فهل كان يمكن لذلك أن يحدث بعد انقضاء قرنين؟ الآن، وقد أصبحت على دراية بمنظور الأجل الطويل، أجدني مستعداً تماماً لأن أقول نعم. ويجب أن أشير مثلاً إلى أنه حتى فيما بعد، في زمن فردينان بيسون وآخرين (٢٠٥)، تقدم المدرسة الابتدائية العلمانية صدى آخر للإصلاح. وهناك أصداء للإصلاح أيضاً في كواليس مجلس الفاتيكان الثاني.

ولكن هل يمكننا الحديث عن "الإصلاح" دون مزيد؟ يجب أن لا ننسى أن التعليم غير الديني قد ظهر في فرنسا لأول مرة في القرن السادس عشر، في المدارس الجديدة التي جرى تأسيسها بأعداد كبيرة وبمزيد من الحماسة من جانب تلك النخبة المميزة اجتماعياً وثقافياً التي درسها جورج هيبير بإخلاص. فقد نجحت، لبعض الوقت، في إبعاد التعليم عن وصاية الكنيسة، إلى أن سيطر اليسوعيون سيطرة حازمة على الأمور في القرن السابع عشر. على أن هؤلاء الناس لم يكونوا بروتستانتين. فقد رفضوا هذا الإغراء الخاص. وأنا أعتقد أنهم يمثلون ما قد يمكن وصفه بالتردد، الأصيل عند فرنسا، بين الإصلاح والإصلاح المضاد والجهود، الملحوظة دائماً على الأقل بين صفوف المثقفين الفرنسيين (٢٠٦)، الإنسانيين و"الانحلايين" أو المفكرين الأحرار، الرامية إلى التحرر من الاثنين. وهذا التردد، هذا التحرك أولاً في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر، هذا البحث عن طريق منفصل، كان سمة فريدة للثقافة الفرنسية. وقد كان عامل تشجيع لاستقلال الفكر، من مونتاني إلى فولتير وبعد فولتير. وكما هو متوقع، فقد تبين أنه محبط وضار بشكل متزايد للكنيسة. وأعتقد أن هذا لا بد أنه لعب دوراً ما في المواقف الفرنسية تجاه منع الحمل.

بل إنني أكثر استعداداً لأن أتصور أن فرنسا، لكونها كانت مأهولة جيداً بالسكان

وجد متطورة منذ أزمان مبكرة، ربما تكون قد عانت بشكل يكاد يكون مزمناً من كونها بلداً يتمتع بفائض سكاني. وهذا على أية حال هو ما تصوره مارسيل رينهار وزملاؤه الذين ساعدوه على إعداد الطبعة الثالثة من كتابه الضخم: التاريخ العام لسكان العالم (١٩٦٨). والحق إن الفائض السكاني من حيث هو مفهوم إنما يستدعي تحفظات وحذراً. إذ لا يمكن الاعتماد عليه إلا عندما يظهر إنعدام توازن أو خطر إنعدام توازن بين حجم السكان وحجم الموارد. وفي عام ١٧٨٩، من المؤكد أن فرنسا كانت غاصة بالسكان، حيث كان هناك ٢٦ مليون نسمة وكانت الكثافة في الكيلو متر المربع الواحد أكثر من ٥٠ نسمة. في حين أن إنجلترا، لا بريطانيا العظمى برمتها، لم تكن غاصة بالسكان، حيث كان هناك مجرد ٨ مليون نسمة وكانت الكثافة في الكيلو متر المربع الواحد أعلى من المستوى الفرنسي بدرجة طفيفة فقط. وكان الناتج القومي الإجمالي لإنجلترا مساوياً تقريباً للناتج القومي الإجمالي لفرنسا، ولذا فإن دخل الفرد فيها لابد أنه كان أعلى بكثير. وكان السكان الإنجليز يصطدمون بسقف أقل وطأة؛ وكان بوسعهم أن ينموا ضمن ما يمكن تسميته بإطار مرن. إذ كان بوسعهم أن يعتمدوا، كما سوف يبين المستقبل ذلك، على قطاع زراعي عالي الانتاجية وعلى صناعة آخذة بالتوسع وعلى عدد من المدن الصناعية التي تحولت إلى مراكز ومحركات لنمو تال. في حين أن مدن فرنسا، خلال الثورة الفرنسية، كانت، خلافاً لذلك، محركات توقفت عن العمل، ولن تشرع في العمل من جديد إلا في زمن القنصلية والامبراطورية. وفي اللحظة الحاسمة، في عامي ١٧٨٩ و ١٧٩٠، عندما انهارت النخب الثقافية، بعد أن كانت قد استنزفت لبعض الوقت، دخلت الحياة الاقتصادية في أزمة. وقد امتزج الحد من المواليد بظروف تشجع على انتشاره عبر مفاومة مصاعب الحياة اليومية. كما أن الحروب النابوليونية ربما تكون قد أحدثت درجة من الارتباك والقلق النفسيين تجاه الحياة. وقد وصف إدجار كينييه (٢٠٧) مظاهر قلق ذلك الجيل: إن والديه مثلاً، مع أنهما كانا متعلمين تعليماً عالياً، لم يريا أن هناك جدوى من وراء تعليم ابنهما تعليماً مناسباً، فقد كان من المحتمل أن يموت شاباً في ساحة ما من ساحات المعارك. ومثل هذا القلق يصعب أن يشجع قيام أسر كبيرة العدد.

وربما جاز لنا أن نضيف ملاحظتين إلى هذه التعليقات. إن مارسيل رينهار وزملاءه يعتقدون أن الفائض السكاني الفرنسي قد استقر في القرن السابع عشر، الزمن الذي كانت فيه فرنسا "ممتلئة كالبيضة"، بحسب عبارة برانتوم التي سبق لنا الاستشهاد بها.

وما قد نكون بإزائه هو فائض سكاني طويل العمر، يسبب ضغطاً من المرجح أن لا مثيل له في أوروبا. ومن ثم يصبح منع الحمل استجابة لضرورة ملحة، شأنه في ذلك شأن خيارات أخرى، كالزواج المتأخر أو العزوبة - خاصة في جنوب فرنسا، حيث كان بوسع سلطة كبير العائلة فرضهما.

أما ملاحظتي الثانية والأخيرة فهي أنه خلال الشطر الأول من القرن التاسع عشر، شهدت فرنسا نمو سكانها بنسبة ٣٠ في المائة، في حين أن بقية أوروبا قد زادت في المتوسط بنسبة ٥٠ في المائة (وقد زاد عدد السكان الإنجليز بنسبة الضعف). والحال أن فرنسا لم تكن في موقف جيد حيال اختبار القوة في مستهل القرن التاسع عشر، والذي تميز في الحالة الفرنسية بمحاولة بطيئة وصعبة وناقصة لتدارك ما فاتها من الناحية الصناعية. وفي عين اللحظة التي كان سيكون من المفيد فيها زيادة معدل المواليد في فرنسا، تعالت أصوات لها وزنها تشجع البلد على التثبت بعاداته المalthusية. وفي هذا الصدد، يستحق الجائزة جان - باتيست ساي المثقف، مؤلف مراجع علم الاقتصاد السياسي. فقد كتب يقول: "يجب تشجيع الناس على الإدخار لا على الإنجاب" (٢٠٨).

الخلاصة: هل كلمة منع الحمل هي الكلمة الأنسب لوصف السيرة الدرامية التي اخترقت تاريخ فرنسا الحي؟ من المؤكد تماماً أن الحياة اليومية في فرنسا قد شهدت تدهور الزواج المسيحي التقليدي بشكله الذي كانت الكنيسة تريد صونه - وهو تدهور طويل كانت له مقدمات أسبق: فالتاريخ الثقافي، بالرغم من بعض الصور الصارخة، لا يأخذ البتة بالفعل شكل انهيار. وما حدث نحو منعطف القرن الثامن عشر حتى التاسع عشر كان، بوجه عام، عين ما حدث مؤخراً، وما زال يحدث تحت أعيننا، مع انهيار الأنماط الزوجية التي كانت في وقت من الأوقات المعيار الاجتماعي. وما نراه اليوم هو رفض مجرد الزواج الرسمي أمام السيد العمدية: قد يكون مناسبة أقل شعائرية من الزواج في الكنيسة، إلا أنه يمثل مع ذلك جميع القيود والمتطلبات والعقبات التي يفرضها القانون - أي المجتمع. فكيف إذاً سوف يتمكن مجتمع الغد من مواجهة واستيعاب الارتباط الحر (union libre)، حيث يحيا الشريكان معاً دون زواج؟ إن الثقافة لا يمكنها أن تبقى عبر الزمن إلا بالتخلص من بعض الموروثات: أولاً الزواج المسيحي، والآن الزواج المدني. فما الذي سوف تود التخلص منه غداً؟

الهجرة الأجنبية: مشكلة حديثة

كنت محظوظاً بما يكفي إذ وجدت نفسي على مدار عمري في صف التسامح. وأنا مرتاح لذلك. لكنني لا يسعني أن أنسب لنفسي فضلاً شخصياً في ذلك. فالواقع أنني لم أكتشف المسألة اليهودية مثلاً إلا في الجزائر، في عام ١٩٢٣، عندما كنت قد تجاوزت العشرين من عمري بالفعل. وعلى مدار السنوات العشر التالية، في الجزائر أيضاً، كنت أحيا في بلد مسلم حيث تعلمت أن أفهم وأحترم العرب والبربر. وفيما بعد، في عام ١٩٣٥، عندما عشت في البرازيل حيث مارست التدريس لعدة أعوام، قابلت سوداً في مناخ هو، بالنسبة لي، أشبه بمناخ ذهب مع الريح. وأنا أعرف جميع البلدان الأوروبية، باستثناء قليل منها، وقد قضيت فيها فترات طويلة جد ممتعة ودون صعوبات.

التسامح والمزيد من التسامح! ذلك هو المطلوب إذا كنا نريد فهم الهجرة البروليتارية الواسعة التي أصبحت فرنسا الآن وجهتها. ونحن بحاجة إلى أن نفهم لماذا تعد هذه المرة مشكلة، في حين أن فرنسا، لأجيال إثر أجيال خلت، قد استقبلت واستوعبت موجات مختلفة من المهاجرين، الذين أغنوا البلد مادياً وثقافياً.

الاستيعاب، إذا كان ممكناً ومقبولاً، هو في رأي أفضل علاج للهجرة دون آلام. كان هذا هو السبيل الذي سار عليه جميع أولئك الذين اختاروا في الماضي، بشكل فردي أم في مجموعات صغيرة، أن يصبحوا فرنسيين: لاجئون سياسيون، أكانوا إيطاليين هاربين من الفاشية أم إسبان ناجين من الحرب الأهلية، أم روساً بيض في عام ١٩١٧؛ وفنانون وعلماء ومثقفون من كل جنسية. إن هؤلاء المهاجرين، الذين جرى استقبالهم بالأحضان، قد تم استيعابهم بسرعة في نشاطات حضارتنا أو في أركانها الهادئة. ولم يعد أصلهم يميزهم عن جمهرة الشعب الفرنسي. وكثيرون من أولئك الذين كانوا فرنسيين بالتبني كانوا شخصيات محورية في أعظم نجاحات فرنسا: إن ماري سكلودوفسكا (١٨٦٧ - ١٩٣٤)، المولودة في وارسو، قد أصبحت ماري كوري واكتشفت مع زوجها الراديوم في عام ١٨٩٨، وحازت على جائزة نوبل في عام ١٩١١. وقد ولد بابلو بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣) في مَلَقَا؛ وولد آميديو موديليانى (١٨٨٤ - ١٩٢٠) في ليفورنو؛ وولد مارك شاجال في فيتبسك في عام ١٨٨٧؛ وولد يوجين يونسكو في سلاتين، رومانيا، في عام ١٩١٢؛ وجاء حاييم سوتين (١٨٩٥ - ١٩٤٤) من ليتوانيا، وما زال الناس يتذكرونه بحبوره في مدينة سيريه الصغيرة، التي أقام

فيها ربحاً من الزمن: لقد اعتاد مسح فرشاته على أية ملابس يرتديها، مما أسفر عن نتائج لا تنسى. والحال أن الحديث عن جميع الأجانب المشاهير الذين اختاروا أن يكون وطنهم في فرنسا لا يمكن أن ينتهي. وإذا كانوا أعزاء على قلوبنا، فإن ذلك لا يرجع فقط إلى أنهم قد شرفونا بمآثرهم الشهيرة، بل يرجع أيضاً إلى أنهم قد اختاروا الانضمام إلينا، وأن يصبحوا فرنسيين شأن أشهر أبناء وطننا، وإلى أنهم قد أضافوا ظلاً ثرياً آخر إلى ثقافتنا المركبة.

لكن الأهم من الناحية الإحصائية هو موجات الهجرة الجماعية التي شملت إيطاليين في أواخر القرن التاسع عشر وروساً بيضاً بعد ١٩١٧ وبولونيين جاءوا إلى مناجم ومزارع فرنسا الشمالية نحو عام ١٩٢٠ ويهوداً رحلوا عن مصر عبد الناصر أو عن الجزائر بعد الاستقلال (كان اليهود الجزائريون يحملون الجنسية الفرنسية منذ مرسوم كريميو في عام ١٨٧١) والـ *pied - noirs*، المستوطنين الأوروبيين الذين تركوا الجزائر في عام ١٩٦٢ ودخلوا فرنسا دون ترحيب رسمي: أكثر من مليون رجل وامرأة وطفل، أصلهم فرنسي بالطبع ومن ثم يعودون إلى وطنهم، لكنهم فقدوا كل شيء تقريباً، وغالباً ما كان يجري تركهم يُصرفون أمورهم بأنفسهم كالمهاجرين. وأخيراً، كانت هناك الموجة العظمى للعمال المهاجرين في الستينيات والسبعينيات.

والحال أن الهجرة الواسعة النطاق هي ظاهرة حديثة بما يكفي في فرنسا: ففي عام ١٨٥١، عشية إعلان الامبراطورية الثانية، كان الأجانب يمثلون نسبة ١ في المائة فقط من السكان. وبحلول عام ١٨٧٢، عند بداية الجمهورية الثالثة، كانت هذه النسبة ما تزال ٢ في المائة فقط. وكان البلجيكيون، العاملون في مدن ومناجم وحقول البنجر في الشمال يمثلون نسبة لا تقل عن ٤٠ في المائة من المهاجرين في تلك الأيام، يتلوهم الإيطاليون مباشرة. على أن استيعاب هؤلاء المهاجرين، والذين كانوا في الواقع جيراناً أقربين، قد تحقق بسرعة كبيرة، خاصة بمجرد ما أن أدى قانون ٢٦ يونيو/ حزيران ١٨٨٩ إلى جعل التجنس بالجنسية الفرنسية أكثر سهولة. ونحو عام ١٩١٤، "استقر عدد الأجانب عند ١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، بما يمثل أقل قليلاً من ٣ في المائة من إجمالي السكان" (٢٠٩).

وبعد الحرب العالمية الأولى (وحتى قبل أن تنتهي) كانت فرنسا تشكو من نقص القوى البشرية، حيث إن الشبان القادرين على العمل بالدرجة الأولى هم الذين ضاعوا في الخنادق. ومن هنا مجيء موجة ثانية من المهاجرين، الذين جاءوا هذه المرة من

بلدان البحر المتوسط، خاصة إفريقيا الشمالية، التي كانت قد ضُمَّت (في أعوام ١٨٣٠ و١٨٨١ - ١٨٨٣ و١٩١١) إلى الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية. وبحلول عام ١٩٣١، كان هناك ٢,٧٠٠,٠٠٠ أجنبي في فرنسا، ٦,٦ في المائة من السكان.

وقد أدى ركود الثلاثينيات ثم الحرب العالمية الثانية إلى هبوط هذا الرقم: ففي عام ١٩٤٦ لم يكن هناك غير ١,٧٠٠,٠٠٠ أجنبي، ٤,٤ في المائة من السكان.

وبعد عام ١٩٥٦ فقط، تشكلت بسرعة الموجة الثالثة للهجرة. وبحلول عام ١٩٧٦، قُدِّرَ عدد المهاجرين بـ ٣,٧٠٠,٠٠٠ نسمة، أي ٧ في المائة من إجمالي السكان. ومن هذا العدد، مثل البرتغاليون نسبة ٢٢ في المائة، والجزائريون ٢١ في المائة والإسبان ١٥ في المائة والإيطاليون ١٣ في المائة والمغاربة ٨ في المائة والتونسيون ٤ في المائة والأتراك ١,٥ في المائة والأفارقة السود ٢,٣ في المائة (الأرقام من تعداد عام ١٩٧٥). وكان معظم هؤلاء المهاجرين من البالغين، الرجال المختارين (كان معدل وفياتهم أقل بكثير من المتوسط الفرنسي). وكان معدل المواليد بين المهاجرين مرتفعاً: فالمهاجرون من بلدان إفريقيا الشمالية الثلاثة تنجب المرأة الواحدة منهم ما بين ٥ و٦ أطفال في المتوسط، والمتوسط بين البرتغاليين ٣,٣ وبين الإسبان ٢,٥ وبين الإيطاليين ٢. "في المتوسط، في عام ١٩٧٥، كان هذا المؤشر [معدل الإنجابية] ٣,٣٢ لجميع المهاجرين، في مقابل ١,٨٤ للفرنسيين و١,٩٣ لمجمل السكان المقيمين في فرنسا". إلا أنه بمجرد استقرار المهاجرين في فرنسا، فإن معدل إنجابيتهم، حيثما كان القياس ممكناً، يميل "إلى الهبوط بشكل مواز لمعدل إنجابية الفرنسيين الأصليين" (٢١٠).

ومه الأزمة الاقتصادية خلال السبعينيات، وصلت هذه الموجة الثالثة إلى ذروتها. "هل التوقف المؤقت، بعد عام ١٩٧٤... سوف يتكشف عن مجرد مرحلة عندما يرجع بعض المهاجرين إلى بلادهم، أم أنه سوف يعلن عن انقلاب لاتجاه الهجرة؟... إن تأمل الوضع الديموجرافي العالمي إنما يدفع المرء إلى تحييد الافتراض الذي يذهب إلى أن هذا هو مجرد توقف مؤقت" (٢١١).

أياً كان الأمر، فإنني أعتقد أن الهجرة قد طرحت، لأول مرة، على مستوى قومي، نوعاً من مشكلة "كولونيالية"، موقعها هذه المرة في داخل فرنسا. وتترتب على هذه المشكلة آثار سياسية تميل إلى إخفاء تعقيد الأشكال المتبادلة للرفض والتي لا يمكن إنكار وجودها، بالرغم من عظيم الأسف لها. فهل يمكن تحليل هذه المشكلات؟

مشكلة اقتصادية

تمثل كتلة العمال المهاجرين في فرنسا، كما في أماكن أخرى من أوروبا، نسبة ١٠ في المائة من السكان القادرين على العمل. فهل أدت البطالة والأزمة الاقتصادية الحالية إلى تشجيع العداوة لهم من جانب العمال الفرنسيين؟ في بعض الحالات، لا شك في ذلك. ولكن بأقل بكثير مما يوحي به شعار حزب سياسي معين: "١,٥٠٠,٠٠٠ عاطل تعني وجود ١,٥٠٠,٠٠٠ مهاجر زائدين عن الحاجة".

فالواقع أن الغالبية العظمى من العمال المهاجرين إنما تُستخدَم كعمالة رخيصة، مهمتها أداء الأعمال الأقل جدارة أو التي يُنظر إليها بهذا الشكل، وهي أعمال تعزف القوة العاملة "الفرنسية" عن أدائها في تسع حالات من كل عشر. وإذا ما جرى طرد جميع المهاجرين، فسرعان ما سوف يتضح أن العاطلين ومعظمهم فرنسيون، لن يتكالبوا على شغل أدنى درجات السلم التي كان الأجانب يحتلونها من قبل. وهذا يذكرني بتعليق كبير أساقفة فالينسيا عندما دار حديث عن طرد المغاربة غير المرغوب فيهم من إسبانيا في عام ١٦١٠، فقد تساءل: "ولكن من الذي سوف يصنع أحذيتنا؟". وإذا ترك المهاجرون فرنسا، فمن الذي سوف يبنّي طرقنا، ومن الذي سوف يؤدي أصعب الأعمال في المصانع أو العمل القاسي في مهنة البناء؟ هذه الوظائف لن يضطلع بها رعايا فرنسيون إلا إذا تمكن نظام سلطوي ما من رفع الأجور لهم، بشكل تعسفي وغير حكيم. والواقع أن هذا قد جرت تجربته مؤخراً بالنسبة لـزبالي باريس: فالمعدات الجيدة وجداول العمل والأجر الجيد قد أدت كلها بالفعل إلى تجنيد مزيد من العمال الفرنسيين في المهنة.

والحال أن الهجرة، وهي مصدر عمال يحصلون على أدنى الأجور، هي واقع كامن في جميع المجتمعات الرأسمالية. وما يحدث في فرنسا حادث في جميع البلدان الصناعية في أوروبا - حتى في بلجيكا التي تشكو من فائض سكاني، والتي ترسل مهاجرين [بلجيكيين] إلى فرنسا لكنها تستقبل مهاجرين من المغرب؛ بل وفي إيطاليا، التي كانت على مدار مائة عام ترسل موجات متواصلة من المهاجرين [الإيطاليين] إلى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وما تزال ترسل عمالاً [إيطاليين] إلى ألمانيا وسويسرا، لكنها من جانب آخر تستقبل تونسيين للعمل كصيادين للأسماك في صقلية، جنبا إلى جنب لبيين واريترين. وبالمثل، في الولايات المتحدة وكندا، وفي المناطق الصناعية في أمريكا اللاتينية أو استراليا، يجري تجنيد العمالة غير الماهرة "العضلات لا

أكثر " (٢١٣)، إمّا من الخارج (" البروليتاريا الخارجية " التي تحدث عنها توينبي، والتي يمكن استغلالها حتى عن بُعد) أو من داخل البلد. وينطبق هذا بالمثل على الاتحاد السوفيتي، حيث لا يعتبر جميع العمال في المراكز الصناعية الكبرى روساً بحال من الأحوال.

والواقع أن الهجرة الأجنبية إنما تشكل استنساخاً وثيقاً تماماً للهجرة الداخلية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر، بل وأوائل القرن العشرين. فصناعة ذلك الزمن قد جندت بروليتاريها - الذين كانوا يعاملون معاملة أفضع من معاملة بروليتاريي اليوم - من بين صفوف المهاجرين من الريف. وفيما بعد، حل محلهم أجانب في المهام الصناعية الأكثر مشقة. كما أن القادمين الجدد قد سدوا أيضاً بعض الثغرات المبكرة في الريف (المهاجرون البولونيون والأكرانيون في الشمال وفي الأين نحو عام ١٩٢٥). ومع النمو الصناعي السريع خلال "السنوات الثلاثين المجيدة" بعد الحرب، تعين تجنيد العمالة الأجنبية من الخارج بشكل مباشر.

وهي قوة عاملة تحيا غالباً في ظروف جد بائسة، كما يمكن التأكد من ذلك للأسف، لو نظرنا إلى أحيائنا الفقيرة وبدروماتنا وبيدونفيلاتنا (مدننا العشوائية). لقد كانت هذه المدن العشوائية ما تزال موجودة في عام ١٩٣٩ على طول الحدود السابقة لتحصينات باريس وهي الآن موجودة في الضواحي الأبعد، والتي تمتد حتى مانت - لا - جولي. وفي عام ١٩٨٠، كانت **département** الأوت - دو - سين تضم ٢٢٠,٠٠٠ مهاجر، نحو ١٥ في المائة من إجمالي سكانها. وقد قال عامل بناء جزائري هو محمد نجعي، البالغ من العمر ٥٦ عاماً، والذي عمل في فرنسا على مدار ٣٥ عاماً: "بعد أن بنيت كل هذه البيوت للفرنسيين، أظن أنه سوف يكون من العدل تماماً أن أتمتع أخيراً بشقة مدعّمة" (٢١٥). لكن الشقة المدعّمة، والتي تكلف قدراً معيناً من المال، ليست كبيرة بما يكفي لاستيعاب أسرة من ثمانية أو تسعة أطفال. فهل يمكن لمثل هذه الأسر أن تتحمل أعباء منزل من منازل "الطبقة الوسطى"؟ قد تتمثل إحدى الإجابات في بناء بيوت بدلاً من الشقق، لكن ما يُبنى من مثل هذه البيوت ليس كافياً بالمرّة لتلبية الطلب. ويتذكر المرء التصريحات المسرفة التي كان يدلي بها في السبعينيات چاك - شاپان - ديلماس، رئيس الوزراء آنذاك في عهد الرئيس جورج بومبيدو: لقد وعد بهدم البيدونفيلات - كما لو أن هذا الإجراء المناسب كان ممكناً في الظروف القائمة. والحال أنه بمجرد هدم مدينة عشوائية سرعان ما تظهر أخرى على

مقربة منها. إنها تتكاثر مثل الـ **macumbos** أو الـ **Favelas** في البرازيل - خاصة أن الموجة الثالثة للمهاجرين بعد ١٩٥٦ قد فاجأت فرنسا ولم يكن قد جرى إعداد سكن لهم. فتم اتخاذ ترتيبات بديلة مؤقتة بعباءة عن أن تكون نرضية، وكان القادمون الجدد هم الذين عانوا من ذلك.

والآن وقد انقلبت الموجة الاقتصادية: هل من الإنصاف اتهام القوة العاملة الأجنبية بأنها تشكل عبئاً على الاقتصاد الفرنسي؟ وانتقاد المهاجرين لأنهم يحصلون على إعانة البطالة؟ أو لأن لديهم وفرة من الأطفال، الأمر الذي يسهم في عجز الضمان الاجتماعي؟ الأرجح هو أن مثل هذه الاتهامات جد سرفسة. ولكن حتى إذا كانت صحيحة، فإنها تظل غير ذات مضموع. فالمهاجرون الذين عاشوا في فرنسا لوقت طويل قد أسهموا في النمو الاقتصادي الفرنسي، وفي تبرجز قسم من الطبقة العاملة الفرنسية، وفي ارتفاع عام في المستويات المعيشية. وإذا كان على الأمة ككل أن تدفع مقابلاً لذلك اليوم، بشكل أو بآخر، حتى ولو أدى ذلك إلى انخفاض طفيف في القوة الشرائية، فإن ذلك لن يكون أكثر من إحقاق للحق (٢١٦).

المشكلة العنصرية

المشكلة هي أن الأزمة الاقتصادية قد غدت لهب السقد العنصري. وهو يصبح حاداً بشكل خاص في المناطق التي تتواجد فيها جماعتان متباستان - الفرنسيون والأفارقة الشماليون مثلاً - وجهاً لوجه، شريكاً في المحنة غالباً ومضطرتان إلى العيش جنباً إلى جنب، ولكن دون أن تمتزجا بالفعل أبداً ومن ثم تضطران في كل حالة إلى تأكيد خصوصياتهما بشكل عنيف.

إنها مشكلة قديمة، وما تزال باقية معنا. إنها مشكلة الأخيرة، أي الشحور بأن الوجود الأجنبي هو آخر وتمدد لذات رلهوية المرء، وذلك إلى درجة بعيدة بحيث إن هذا الاختلاف الواقعي أو المتخيل يستثير لدى كل من الفريتمين عدم ارتياح أو ازدراء أو خوف أو كراهية. فهل لكي نرجد لا بد لنا من مقارنة أنفسنا بالآخر؟ لقد أدت النزعة القومية في الماضي إلى إغراق أوروبا في الفرقة والجنون والوحشية. ونحن الفرنسيين كشفنا عن أسناننا في وجوه الإسبان والإنجليز والألمان - وهم فعلوا الشيء نفسه معنا. وفي عام ١٨١٥، كانت الياقات الحمراء على سترات الضباط الروسين تمثل "دم الفرنسي"، **Franzosen Blut**، أو هكذا قيل. ولعل أبشع تعبير صاغته الأخيرة هو

تعبير "speak white!" المشحون بالازدراء والذي اعتاد الإنجليز استخدامه عند مخاطبة الكنديين الفرنسيين .

حماقة؟ ربما، لكن كل عصر في التاريخ له جوانبه المخزية وحماقته وتحيزه، وهي أشياء يتقاسمها المعاصرون حتى دون أن يلحظوا ذلك دائماً. إن كتاب ناتانيال فيل الذي يحمل عنوان: كارل ماركس، عنصرياً (٢١٧) قد يكون مسلياً، مع أنه لا يمكن مع ذلك أن يكون مقنعاً. فهو يقول إن ماركس يظهر من رسائله وكتاباتة في صورة "مؤيد للعبودية" : فقد كتب ماركس في مكان ما: "دون العبودية، فإن أمريكا الشمالية، تلك الأمة الأكثر تقدماً، كان بالإمكان أن تتحول إلى مجتمع أبوي" (وهي عبارة يمكن، مع ذلك، تأويلها بأكثر من شكل). كما كان ماركس استعمارياً، ميالاً إلى الإيمان بتفوق البيض على غير البيض. وفي عام ١٨٤٩، عندما انتزع "الأمريكيون" كاليفورنيا من المكسيكيين، كتب يقول: "لا شيء يتحقق أبداً في التاريخ دون عنف... هل يسع أي إنسان القول بأنه أمر سيء أن كاليفورنيا قد انتزعت من المكسيكيين الكسالى، الذين ما كان يمكن لهم أن يعرفوا ماذا يصنعون بها؟". ولكن ما الذي يثبت ذلك؟ إنه يثبت ببساطة أن المرء لا يمكن أن يحيا في عصره دون أن يتأثر به، حتى ولو كان هذا المرء هو كارل ماركس. والحال أن العنصرية لم تسكن فكره، إلا أن من المؤكد أنها قد مسته: فماركس نفسه ما كان يمكن أن يسلم من ذلك وهو يحيا في لندن، المركز المتجبر والامبريالي للعالم. [الاستشهاد الأخير يرجع إلى إنجلس وليس إلى ماركس، راجع السياق كاملاً في: ماركس، ثورات ١٨٤٨، لندن، ١٩٧٣، دار نشر بنجوين (بالإنجليزية)، ص ص ٢٢٦ - ٢٣٦. - المترجم].

بعد هذا الكلام، هل يمكن لأحد أن يصدق بالفعل أن العنصرية لا تسكن بلدنا، أنها لا ترقد، مستترة في الأعماق ربما، لكنها مستعدة لأن تنبثق على السطح مثل بقبقات تخرج من قاع البحر؟

إن نوع الشواهد الذي أوثره حول هذا الموضوع إنما يجيء من الحوادث اليومية - وهي أشياء صغيرة عادية تماماً لكنها تتكرر مراراً. وأحد أصدقائي ينتقدني بشدة على هذه العادة التي يقول إنها غير دقيقة علمياً، لكنني مازلت أعتقد أنني محق في ممارستها. ولترك الحكم للقاريء: إنني أقدم هنا حكايتين أو ثلاث حكايات كنت فيها مشاركاً دون إرادتي، لكنني كنت مشاركاً على أية حال. وهذه الحوادث لها على الأقل ميزة تتفوق بها على كثير من الحوادث التي نقرأ عنها: ميزة أنها ليست عنيفة.

إنني أحيا في حي من أحياء باريس ، هو الدائرة الثالثة عشرة ، حيث يوجد مهاجرون كثيرون من إفريقيا وآسيا . ذات مساء كنت أنا وزوجتي نمشي بهدوء في اتجاه التقاطع حيث يلتقي شارع شديد الانحدار بشارعنا على زاوية قائمة . والحال أن مراهقاً أسود ، في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، لكن طوله لا يقل عن متر و ٨٠ سم ، يرتدي ثياباً جميلة ، جاء مندفعاً إلى التقاطع على مزلجة ذات عجلات ، عبر طريقنا تماماً ، دون أن يتوقف ، انعطف بسرعة فائقة وعلى مقربة جد شديدة منا . وقد أبدت استغرابي غاضباً - مجرد كلمات قليلة : كان المزلج قد ابتعد بالفعل . لكنه عاد على الفور ، وأمطرني بالشتائم ، واحتدم غضباً ، وهو يصيح : " ولكن دعونا نحيا ! " . وقد بدا لي هذا الكلام غير عادي ، لكنه كرره . إنني مجرد رجعي عجوز ، اقترفت ذنب الوجود في طريقه واحتجاجاتي ليست غير عدوان عنصري . وقد حاولت تهدئة نفسي ، دون نجاح كبير ، بأن أقول لنفسي إن صبيّاً أبيض على المزلجة يمكن أن يكون فظاً بالدرجة نفسها . وقبل ذلك بعشر سنوات ، كان من المحتمل لرد فعلي أن يكون أكثر حدة .

والحكاية الثانية هي أنني كنت جالساً مستريحاً في تاكسي يتبع شركة اشتركت فيها لنحو خمس عشرة سنة . وأنا أعرف السائق جيداً : إنه مارتينيكي ، يذكرني بسائقي التاكسيات السود في واشنطن . كان المشوار طويلاً ، وقد حدثني عن نفسه ، وكيف استطاع توفير قدر من المال بالعزف في فرقة موسيقية في السهرات ، وكيف تزوج من امرأة فرنسية وأنجب ثلاثة أطفال ، أكد لي أنهم كلهم يتميزون بالوسامة . وأحدهم الآن أصبح طبيب أسنان وله زوجة فنلندية . وقد قال لي مبتسماً ابتسامة عريضة : " ولك أن تتخيل يا سيدي أنني أصبحت جداً لبنت شقراء ! " . لقد أحبيت هذه القصة ، قصة المهاجر الذي وجد السعادة ، ولسبب ما ، عند عودتي ذلك المساء ، وهذه المرة في سيارة أجرة تقودها شابة من الشركة نفسها ، قررت أن أحكيها لها . إلا أنه يبدو أن هذا القرار لم يكن سليماً . فقد ردت بغضب وأمطرت سائقي التاكسيات الأجانب بوابل من الشتائم . وإذا كنت أعرف أنها وزوجها ، وهو سائق هو الآخر ، لا أطفال لديهما ، لم يكن بوسعي أن أقاوم الرغبة في أن أكون صاحب الكلمة الأخيرة ، فقلت لها : " ولكن لو كان عندك أطفال ، لكان عدد سائقي التاكسيات الأجانب أقل " .

وحكايتي الأخيرة قد لا يكون لها معنى إلا بالنسبة لي أنا وحدي . كنت أستمع إلى حديث في الراديو مع شابة جزائرية ، مقيمة من الجيل الثاني في فرنسا ، وهي الآن طالبة ، وكانت تصف تعاستها ومشاعر الغضب لديها والمشكلات المتواصلة التي لا مفر

لها من مواجهتها. وقد قالت هذا كله بفرنسية ممتازة وجميلة (لا شك أن التعليم في المدارس الفرنسية جيد) بحيث إنني قد غمرني فجأة إحساس سار لا شك أنه ليس هناك ما يبرره، بأن النجاح، بالنسبة لها على الأقل، قد أصبح قاب قوسين أو أدنى.

سوف أتوقف هنا عن الانطباعات الشخصية. ولا مرأ في أن كل واحد منا لديه مخزوناً من الحكايات من هذا النوع، وشواهد على العنصرية، تسير عادة في اتجاهين: إن الرفض متبادل وهو يتغذى على تبادل الرفض. وإذا كانت معاداة السامية قد انحسرت بشدة في فرنسا منذ زمن إدوار دريمون (١٨٤٤ - ١٩١٧)، كاتب الكتاب السجالي فرنسا اليهودية الذي لا يُغتفر، فإن من المزعج أن نشهد إعادة تأجيجه كنار تحت الرماد، بينما تتطور العنصرية في فرنسا ضد قادمين جدد آخرين، استيعابهم أصعب وأعدادهم تتزايد. ومن هنا الحوادث اليومية والمخاطر.

ومع ذلك فكيف يمكن للمرء أن يتحدث حديثاً جاداً عن "العنصر" في فرنسا. إن شعوب إفريقيا الشمالية من أصل أبيض والجنوبيين الفرنسيين تجري في عروقهم دماء ساراسينية وإسبانية وأندلسية. يقول عالم الاجتماع أوجوستين باربارا (٢١٨): "أنظروا إلى الحشد في مترو [باريس] أو في شوارع مدن مثل ليون أو مارسيليا أو ليل أو جرينوبل. إن التنوع الشديد للوجوه وللأنماط البشرية إنما يكشف عن الثراء العظيم لهؤلاء السكان ويكشف في الوقت نفسه عن حماقة أولئك الذين يتحدثون عن "إبعاد الأجانب". إن السكان الفرنسيون هم نسيج مكون من جماعات عرقية مختلفة، ومن جماعات سكانية إقليمية مختلفة انضم إليها، في موجات هجرة ترجع إلى أكثر من مائة سنة، أجنب من أوروبا ومن أماكن أبعد" (٢١٩). كما نجح "مهاجرون" كثيرون، لزمن طويل، منذ ما قبل التاريخ حتى التاريخ الحاضر، في الاستقرار، دون مصاعب كبيرة، بين صفوف السكان الفرنسيين، بحيث يجوز للمرء من الناحية العملية أن يقول إن كل الفرنسيين - إذا ما نظرنا إلى القرون وآلاف السنين السابقة لزماننا - هم أبناء مهاجرين. وفرنسا الآن متنوعة إلى أبعد حد بالفعل: فهل يمكنها ألا تغامر بأن تصبح أكثر تنوعاً من الناحية البيولوجية؟

مشكلة ثقافية

تبقى مشكلة أخيرة وحيدة، هي المشكلة الحقيقية والمزعجة الوحيدة: المشكلة الثقافية. وما يقوله برنار ستاسي في كتابه الرائع إنما ينطبق على هذه المسألة بأكثر مما

ينطبق على ما عداها: "إن الصفاء الذهني هو الصفة المفتقدة أكثر من سواها في النقاش الصعب حول الهجرة" (٢٢٠). فهنا أيضاً، ليس من شأن الكلمات التي يجري تقاذفها كأشياء جيدة أو سيئة - الدمج، الاستيعاب، الإدراج - سوى حجب الواقع.

فالامتزاجات الثقافية ليست سهلة البتة، كما يدل على ذلك المثال اليهودي. وما زلت أذكر أستاذاً للتاريخ في ستراسبورج من زمن بعيد. فعندما كانوا يطلبون إليه أن يرد على شيء ما "باعتباره يهودياً"، كان يجيب: "أنا لست يهودياً، أنا فرنسي". وأنا ميال إلى التصفيق له، لكن سيرج كوستر ربما كان أصدق عندما رد على استطلاع جرى مؤخراً فقال: "إن فرنسا وطني، بلد لغتي وعواطفني. لكنني أشعر حيال [دولة] إسرائيل، التي لست بلدي، بتعلق لا يموت" (٢٢١). وكنت ذات مرة أتناول العشاء خارج المنزل في براسيري ليب، في عام ١٩٥٨ على ما أظن، مع ريمون آرون: أوضح لي أنه باعتباره يهودياً، كان مضطراً في مناسبات معينة إلى أن يتصرف بشكل معين. فأجبت: ولكن يا ريمون، أنت لست يهودياً، أنت لوريني (حيث إن عائلته، كعائلة قريبه الشهير مارسيل موس، قد جاءت من تلك المقاطعة). وأنا لا أذكر ما إذا كان قد ابتسم لهذا الكلام أم لا، لكنني واثق أنه لم يجب. وأنه لصحيح أن اليهودي، عندما يواجه حضارات مختلفة تعد في البداية غريبة عنه، فإنه سوف ينجح في تمثيلها تماماً، ويصبح مستوعباً تماماً فيها، بينما سوف يلوذ في الوقت نفسه بحضارة كامنة ما تزال عزيزة عليه، ولا يمكنه أن انفصل عنها إلاً بشكل ناقص، هذا إن انفصل عنها على الإطلاق.

ومع ذلك فليس هناك سوى ١٤ مليون يهودي هم كل يهود العالم، وهم موزعون في مختلف أرجاء العالم (٦٠٠,٠٠٠ في فرنسا، حيث يشكلون أكبر مجموعة خارج الولايات المتحدة). فكيف لم تؤد النجاحات الباهرة التي يحفل بها تاريخ الدياسپورا - بولندا في القرن السابع عشر، إيطاليا في القرن الخامس عشر، إسبانيا في القرن السادس عشر، ألمانيا في القرن الثامن عشر، الولايات المتحدة اليوم، البرازيل، فرنسا - إلى أي استيعاب حقيقي؟ لماذا لم يجر استيعاب هذه الجاليات اليهودية، خلافاً لأجسام أجنبية أخرى، في واحد أو آخر من البلدان الكثيرة التي عاشت فيها لأزمة طويلة؟

لعل ذلك يرجع، كما أشار صحافي مؤخراً، إلى أنه "في كل مرة... كانت الجالية اليهودية تبدو فيها بسبيلها إلى الاستيعاب، كان شيء ما يحدث ليذكرها بأصولها، بماضٍ أليم ومعذب، في الجيتو" (٢٢٢). ولو كنت قابلت ريمون آرون قبل عام ١٩٣٣ [أي قبل صعود هتلر إلى الحكم في ألمانيا - المترجم]، فهل كان

سيتحدث معي بالشكل الذي تحدث به معي [في عام ١٩٥٨]؟ الأرجح لا . فبعد الهولوكوست، كيف يمكن لأي يهودي، حتى وإن كان يشعر بالصدمة حيال بعض تباديات النزعة القومية الإسرائيلية، أن يعلن عن شعوره هذا على الملأ؟ إن الزيارة التي قام بها الرئيس جيسكار ديستان إلى الشرق الأوسط في عام ١٩٨٠، عندما تحدث مؤيداً للقضية الفلسطينية، قد أثارت في الصحافة واحداً من تلك الانفجارات العاطفية . لقد هددته صحيفة **Tribune juive** بـ "تصويت الناخبين اليهود ضده"، وهو رد فعل سرعان ما قوبل بدوره بوابل من الشتائم والاتهامات التي لا مصدر لها سوى المعاداة السافرة للسامية . ومن حسن الحظ، أنه كانت هناك أيضاً بعض الدعوات إلى التعقل صدرت عن مثقفين على كل من الجانبين؛ لكن الحادثة كانت حادثة كاشفة وذات مغزى .

وقياساً إلى بقاء الشعب اليهودي على مدار قرون، وهو بقاء يشكل معجزة بالفعل، فإن استيعاب الجاليات الأولى من المهاجرين الأجانب إلى فرنسا قد يبدو أنه كان سريعاً إلى أبعد حد . على أن السنوات الأولى كانت صعبة غالباً، وكانت جد أليمة أحياناً . ففي عام ١٨٩٦، لم يكن في فرنسا غير ٢٩١,٠٠٠ إيطالي، لكنهم كانوا يتركزون في الجنوب: ١٠ في المائة في الفار، ١٢ في المائة في بوش - دي - رون، ٢٠ في المائة في ألب - ماريتيم . والحال أن هؤلاء الـ "الريطال" [تسمية ساخرة للمهاجرين الإيطاليين . - المترجم]، كما كانوا يسمون، كان يجري اتهامهم علناً بأخذ الخبز من أفواه الفرنسيين، وقد وجدوا أنفسهم معرضين للهجوم . وكانت هناك صدامات عنيفة وجرائم عنصرية، بل وإعدامات من غير محاكمة قانونية في أليس (٢٢٣) . وبعد نحو ثلاثين سنة، سنجد أن البولونيين، المتركزين تركزاً ضخماً هم أيضاً، في شمال فرنسا هذه المرة، والمعزولين علاوة على ذلك بحاجز لغتهم، والمقيمين مع بعضهم البعض ومع حرفيهم هم، كانوا هم أيضاً عرضة لعداوة عامة . وفي أي من الحالتين، لم يلعب الدين الكاثوليكي دور الأصرة - على العكس . إن عمال الموانئ من نابولي الذين عبروا للعمل في ميناء مارسيليا كانوا يتعرضون للسخرية - ومن هنا تلقيهم بالـ **cristos** . والأشكال التي اتخذتها الكاثوليكية البولونية - مثل تقبيل يد القس - قد بدت مضحكة للناس في **département** نور . والكنيسة نفسها جعلت الأمور صعبة بالنسبة لهؤلاء القادمين الجدد الذين كانوا يريدون أن يكون قساوستهم من بني جلدتهم - وإلا، كما كانوا يقولون، فكيف يذهبون للاعتراف؟ (٢٢٤) . وقد أعلن كل مديري الشرطة

آنذاك أن "الپولونيين لن يندمجوا أبداً". إلا أنه كانت هناك قوى تعمل في الاتجاه الآخر، خاصة المدارس، وفي بعض الحالات عمل النقابات والأحزاب السياسية (الحزب الشيوعي خاصة بالنسبة للإيطاليين). ومع الجيل الثاني أو الثالث على أية حال، كان الاندماج قد أصبح تاماً. والآن لم يتبق من البلد الأصلي سوى لقب عائلي أو بعض التقاليد العائلية. ويشعر المرء أنه فيما يتعلق بالإسبان وبالبرتغاليين وبالإيطاليين في موجة الهجرة الأخيرة، فيما عدا أولئك الذين يرجعون إلى بلادهم ومعهم مدخراتهم، فإن سيرورة الاستيعاب السريعة هذه نفسها تواصل فعلها.

فلماذا إذاً تبدو الحالة عكس ذلك فيما يتعلق بالمسلمين في فرنسا، ومعظمهم من إفريقيا الشمالية؟ إن المهاجرين من الجيل الثاني هم الذين يواجهون أعظم مشكلة، لكونهم مرفوضين ورافضين هم أنفسهم للاستيعاب الذي كان آباؤهم وأجدادهم قد حققوه في بعض الحالات. وهناك عقبات خطيرة: الانعدام المتبادل للثقة، الخوف، التحيز العنصري، إلا أن هناك أيضاً اختلافات عميقة في المعتقدات والعادات. وما نحن بإزائه هنا ليس امتزاج ثقافات، بل تجاور أو مواجهة - كما في الولايات المتحدة، حيث تظل المشكلات الثقافية قائمة، بالرغم من جاذبيات أسلوب الحياة الأمريكي. لكن الوضع في فرنسا أكثر توتراً بكثير وأكثر انعداماً للاستقرار بكثير مما في الولايات المتحدة، وذلك بأشكال أكثر رهافة: لأن فرنسا بلد قديم؛ ولأن البلد الأصلي لضيوفنا هو أيضاً بلد قديم وجار. ولا يحتاج عامل إفريقي شمالي إلا إلى ساعات قليلة يركب فيها الطائرة ويسافر إلى مطار الميزون بلانش في الجزائر العاصمة ثم يتجه إلى القبائل، حيث يرجع إلى عالم طفولته وشبابه وسعادته أو حنينه. أما في أمريكا، فإن المسافة البعيدة جداً عن الوطن - عبر المحيط الأطلسي بالنسبة لكثيرين - كانت فاصلاً قوياً. والمهاجرون لا يعودون من أمريكا إلا بعد أن يحققوا حظوظهم وأحياناً لا يرجعون حتى بعد أن ينجحوا في ذلك. وعندما هبط هيرنان كورتيس على سواحل المكسيك، أحرق سفنه.

لا اعتراض لديّ على وجود معابد يهودية أو كنائس أرثوذكسية في فرنسا - ومن ثم فلا اعتراض لديّ أيضاً على وجود المساجد التي يجري بناء المزيد والمزيد منها ويؤمنها الناس. لكن الإسلام ليس مجرد دين، فهو حضارة كاملة عامرة بالحيوية، وهو أسلوب حياة كامل. والحالات التي نقرأ عنها في الصحف - الشابة الإفريقية الشمالية التي اختطفها وحبسها اخوتها لأنها أرادت الزواج من شاب فرنسي، مئات الفرنسيات

المتزوجات من جزائريين واللواتي، بعد الطلاق، يكتشفن خطف أطفالهن وإرسالهم إلى الجزائر من جانب آباء يرون أنهم وحدهم هم الذين لهم كل حق فيهم - هي أكثر من مجرد موضوعات خبرية، فهي رموز للعقبة الرئيسية التي تواجه المهاجرين من إفريقيا الشمالية: حضارة مختلفة عن حضارتهم. لقد اصطدموا بنظام قانوني لا يعترف بقانونهم، القائم على شرع القرآن الأسمى. ولا مرأ في أن السلطة الأبوية ووضعية المرأة هما أكبر المشكلات، لأنهما تتصلان بالأسرة، عين أساس المجتمع. وفي كل عام، تتم نحو ٢٠,٠٠٠ زيجة مختلطة، في المتوسط. وزيجتان من كل ثلاث تنتهيان إلى الطلاق (٢٢٥). لأن مثل هذه الزيجات تميل إلى أن تتطلب من شريك أو من الآخر، أو من الاثنين، القطيعة مع خلفيتهما. إلا أنه لا يمكن أن يحدث اندماج دون زيجات مختلطة.

ومن هنا تردد وعذاب الجيل الأصغر من الأفارقة الشماليين الذين يواجهون زمناً صعباً جداً خلال الأزمة الاقتصادية في الغرب، ويواجهون العداوة في المدن الكبرى. وإذا كانوا غالباً ما يحوزون الجنسية الفرنسية بحكم مولدهم في فرنسا، فإنهم قد يرفضون المواطنة من باب الولاء لشعبهم أو من باب التحدي، والحلم بالعودة إلى إفريقيا الشمالية - ولكن دون أن يكونوا مؤمنين بذلك تماماً أو حتى راغبين فيه بالفعل. ومثل هذه النزاعات الداخلية يمكن أن تكون قاتلة، وقد حدثت وفيات لا يمكن لأحد منا أن يتجنب الشعور بالمسئولية عنها. إن شاباً إفريقياً شمالياً، بعد إلقاء القبض عليه وسجنه في كليرفو، قد انتحر، تاركاً هذه الرسالة الغريبة: "إنني أموت كل يوم. وهو موت جد مروّع. إنه أشبه بسرطان ينهشني. إنني أترككم مفعماً بالكراهية وبالحب. الحب الذي لم أجده، الحب الذي لم أئله قط، الحب الذي أردت أن أمنحه". وحتى لو كان الطاهر بن جلّون (٢٢٦) الذي يحكي هذه الحكاية قد أعمل قلمه الأدبي مُجَمَّلاً هذه الرسالة جد الجميلة بالفعل، فما أفدح صرخة اليأس التي تمثلها! وتتصل حالة أخرى جرى وصفها في صحيفة **Le Monde** باثنين من الفيتناميين: "لما كانا معزولين في مدينة صغيرة في وسط فرنسا، دون عمل ودون سكن، بعيدين عن سمائهما وعن أرضهما، فقد كانا عاجزين عن استجماع الشجاعة اللازمة لمواصلة الحياة. لقد ماتا مرتين. ونحن [أي الفرنسيين الذين كان يجب عليهم أن يرحبوا بهما] لا حق لنا في السماح بحدوث ذلك" (٢٢٧).

وبالرغم من أن هذه الحوادث المأساوية قد تكون محزنة، إلا أنها، من الناحية

الإحصائية، تبهت إلى جانب المصير الرهيب للحركيين (الجزائريين الذين خدموا مع القوات الفرنسية خلال الحرب الجزائرية). هناك نحو ٤٠٠,٠٠٠ منهم يقيمون في فرنسا (والإحصاءات لا تعتبرهم مهاجرين لأنهم حصلوا على الجنسية الفرنسية في مقابل الخدمات التي قدموها إلى فرنسا خلال الحرب الجزائرية). فبعد اتفاقات إيفيان (١٩٦٢)، فروا إلى فرنسا هرباً من المذبحة التي كانت مصير الآلاف منهم. وما هم هنا الآن، بعضهم مبعثر كعمال مهاجرين، إلا أنهم مستبعدون، خاصة من جانب المهاجرين الجزائريين الآخرين الذين يعتبرونهم "متعاونين مع المحتل" وخونة". وما زال بعضهم الآخر يحيا في معسكرات الاستقبال في بيا في لو - ايه - جارون أو سان - موريس - لاردواز في الجار، "والتي يجب أن نضيف إليها ستاً وثلاثين قرية في الغابات موزعة عبر مجمل أقاليم الغابات في اللوزير والليموزان والفوج" (٢٢٨). وفي الأكواخ التي يحيون فيها متكديسين، يحيا هؤلاء الناس على المعاشات المتواضعة التي يدفعها الجيش، وينجبون أطفالاً عديدين حتى يتسنى لهم الحصول على قدر من المال المخصص للإعانات العائلية. ومن المستحيل بالنسبة لهم أو لأطفالهم أن يعودوا إلى الجزائر. وقد بذلت وعود في هذا الاتجاه، ولكن هل سوف تُراعى؟ إننا مسئولون عن مصير هؤلاء الناس، بصرف النظر عن أسباب انحيازهم إلى فرنسا التي علقوا عليها آمالهم، دون أن يكونوا مدركين دائماً لما كانوا يفعلونه. وأنا أعترف بأنني أكثر تأثراً بمصيرهم مما بمصير من عداهم. لكن التعاطف ليس عوناً كبيراً في مثل هذه الحالات.

ولكن هل فرنسا هي المذنب الوحيد؟ كما هي الحال دائماً، فإن الأخطاء مشتركة. وهكذا فإن الأفارقة الشماليين الذين عاشوا وقتاً طويلاً بما يكفي في فرنسا وتبنوا الأساليب الفرنسية، وبالأحرى أولئك الذين ولدوا في فرنسا، ربما يقابلون استقبالا فاتراً عندما يعودون، بشكل مؤقت أو بشكل نهائي، إلى وطنهم. لنستمع إلى الشهادة المؤلمة لطالب جزائري في السادسة والعشرين من عمره مسجل في جامعة ليل: "لا أعرف هل يجب أن أعود إلى الجزائر أم أبقى في فرنسا. قد يبدو الاختيار سهلاً، لكنه أشبه بدعوة إنسان إلى أن يختار بين قدمه اليمنى وقدمه اليسرى. إننا في بلدنا الأصلي، نجد أنفسنا أجنب، ويتم إشعارنا بذلك. وفي البلد الذي جئنا إليه، فإننا أجنب لأننا لا نحمل الجنسية الفرنسية [كان قد ولد في الجزائر] ولأن بشرتنا غامقة" (٢٢٩).

والحال أن الـ **Beurs** (ذلك هو الاسم الذي يسمى به المهاجرون الأفارقة

الشماليون من الجيل الثاني) إنما يشعرون فعلاً بعدم الارتياح، ليس فقط في فرنسا (سواء حصلوا أم لم يحصلوا على الجنسية الفرنسية والتي يحق لهم الحصول عليها) وإنما أيضاً في الجزائر حيث يُنظر إليهم على أنهم أشباه أجنب. فما هو السبب في ذلك؟ أحياناً ما يجري تفسيره بالتفاخر - "مظاهر الترف" التي يدونها عندما يعودون إلى وطنهم في العطلات، الملابس أو السيارات. وهم أحياناً ما يعبرون عن القرف. فقد جاء على لسان واحد من الـ **Beurs** لدى عودته إلى فرنسا: "ليس هناك ما يؤكل. إن الذهاب إلى هناك هو أشبه بالعودة إلى العصور الوسطى" (٢٣٠). وقال آخر: "إن المشهد هناك جد كئيب، وليس هناك ما يمكن للمرء عمله، والعائلة تراقبك ليل نهار" (٢٣١). كما أن الـ **Beurs** قد يصدمون الناس في بلدتهم باعتدائهم، دون وعي منهم أحياناً، على العادات وأنماط السلوك المحلية. وقد قال حسن، الذي زار باريس عدة مرات، لكنه لم يستقر فيها، إنه وجد مجتمع المهاجرين "عفناً"، وأوضح: "إن لنا تقاليد معينة يجب أن تُراعى. أمّا هناك، في فرنسا، فإنكم تفقدون شخصيتكم... إن الشبان المولودين في فرنسا قد فقدوا بالكامل كل إحساس بالتقاليد... وإذا تحدثنا بصراحة، فلا يمكنني أن أكون واحداً منهم. إنهم يتميزون بالفظاظة في تعاملهم مع آبائهم. أمّا أنا، فحتى لو كنت في الستين من عمري، فسوف أحترم أبي وأمي". والخلاصة، "كما قال عالم نفس جزائري [إن المهاجرين مشبه فيهم بوصفهم] ناقلين محتملين لخطر الحداثة والتطور الاجتماعي" (٢٣٢).

ويرد المهاجرون العائدون بشكاوى تخصهم. إذ تذكر شابة جزائرية: "غالباً عندما أمشي في الطريق، يعلّق الرجال بصوت عال أنني لابد أنني مهاجرة، وذلك لمجرد أنني لا أخفض بصري" (٢٣٣). فإلى أي مدى يجب أن يذهب الإنسان حتى يتم قبوله من جديد في الجماعة! إن جميل، وهو شاب في الثانية والعشرين من عمره، تحيا أسرته كلها في فرنسا، قد عاد بمفرده إلى الوطن لأنه، كما يقول، لا يمكنه العيش في أي مكان آخر، فهو يشعر بأنه أمازيغي "حتى النخاع". وهو الآن يدرس الطب في تيزي أوزو: "كانت الأسابيع الأولى جد قاسية، فقد كان عليّ أن أجاهد حتى يقبلني الطلاب الآخرين. إنني ما زلت أعامل باعتباري مهاجراً، لكنهم سوف يتوقفون يوماً ما عن معاملتي على هذا الأساس... وفي غضون سنوات قليلة، سوف أصبح طبيباً في عيادة خبرة ما، على حساب الدولة. فالأمور أبعد من أن تكون جيدة هنا... [لكنني] أؤمن بما أقدمت عليه؛ إنني أحلم بأن الأمور سوف تسير إلى الأفضل، وأود أن ألعب دوراً

في ذلك" (٢٣٤).

ولكن كم هم الناس الذين يمكنهم استحضار مثل هذه الشجاعة والعزيمة؟ إن عَمَّارَ، المولود في سان مور، قد حاول العودة مرتين. ثم تخلى عن المحاولة: "كل ما في الأمر أن ذلك كان خطأ كبيراً. وأنا لست مستعداً لأن أتمزق من جراء ذلك. هناك حديث رسمي كثير عن "إعادة الإدراج"، لكن هذا لا يعني شيئاً. إنهم لا يفعلون شيئاً للترحيب بك أو لمساعدتك. بل إنك لا يمكنك الحصول على دروس في العربية. والناس ليل نهار يسمونك مهاجراً أو باريسياً" (٢٣٥).

إلا أن من الأرجح أن الحكومة الجزائرية لا حول لها ولا قوة كالحكومة الفرنسية في مواجهة هذه الصدمات الثقافية. في عام ١٩٨٣، طرح موظف شاب في وزارة التخطيط الجزائرية آراءه حول المسألة: إنه لا يتعاطف مع "المهاجرين الذين يكتزون المال"، والذين لا يعودون إلى الجزائر إلا بعد "تحقيق ثروة من وراء تجارة العملة"، والذين يصبحون "بورجوازية جديدة، مرتاحة إلى نفسها ولا تُطاق بالمرّة". لكنه لا يوافق على "العودة القسرية"، حيث يجري "إرغام البنات المولودات في فرنسا على زيجة مباغتة"، خلال زيارة صيفية. وهو يوضح أن هناك بعض ردود الأفعال غير المفهومة ضد المهاجرين العائدين: "في الجامعة مثلاً، يجري عزل المهاجرين ومقاطعتهم. فالطلاب الآخرون يضايقونهم، أمّا البنات {العائدات} فهن يعاملن كمومسات لا أكثر ولا أقل. وهؤلاء المهاجرون من الجيل الثاني لا يمكنون عادة أكثر من أسابيع قليلة. وهذا أمر خطير، فنحن بحاجة إلى إناس جدد ذوي أفكار مختلفة. إن شجب العنصرية في فرنسا هو شيء رائع لكن إعادة انتاجها هنا شيء لا يحتمل" (٢٣٦). فهل من العجيب إذاً أن المناقشات الأخيرة قد كشفت عن مدرستين فكريتين متعارضتين داخل الجالية المسلمة في فرنسا؟

تواصل المدرسة الأولى الدعوة بنشاط وبكفاحية إلى عودة إلى الأصل، إلى القرآن، "إلى الإسلام بوصفه سبيلاً إلى الخلاص". ويرى إدريس اليازامي أن "الدين وحده هو الذي يمكنه أن يجمعنا، كل القادمين من إفريقيا الشمالية، بمن في ذلك أبناء الحركيين"، وهو الشيء الوحيد الذي يمكنه صون "هوية" إفريقية شمالية في وجه الهوية الفرنسية (٢٣٧). لكن "في وجه" يمكن بسهولة تامة أن تتحول إلى "ضد". فهل نحن بإزاء تشجيع للفرنسيين من أصل مسلم على الامتناع عن التصويت، إذ يجري اعتبار المشاركة في الانتخابات نوعاً من الخيانة الثقافية، مصدراً لتنازع بين الواجبات

الدينية بالمعنى الإسلامي والالتزامات التي يملئها القانون الفرنسي، حول مسائل كالطلاق وحقوق الوالدين وما إلى ذلك؟

وهل هذا هو الدور الحقيقي للدين الذي من المؤكد أنه، في مجتمع متعدد الثقافات ومتعدد الأعراق، يجب أن يظل مسألة خاصة تتصل بحقل الإيمان الشخصي والأخلاق الفردية؟ خلال الجدل الذي دار في عام ١٩٨٠، والذي أسلفت الإشارة إليه، سنجد أن ليو هامون، في محاولة منه لإعادة الطرفين المختصمين إلى تحكيم العقل، قد حدد ما يعتقد أنها واجبات جميع "الفرنسيين ذوي الديانة اليهودية"؛ وهي تبدو لي مناسبة لأي فرد راغب في العيش في سياق أمة، مثل فرنسا، ليست لها ديانة رسمية. إنه يكتب فيقول: "إن الحق في الاختلاف إنما يتوقف عند النقطة التي لا يتمايز عندها واقع جماعة عن واقع جماعة أخرى. وكل إنسان، في المجتمع الحديث، له ولاءات مختلفة - دينية، فلسفية، مهنية، ثقافية، قومية... إلّا أنه مثلما أنه لا يمكن أن توجد غير دولة واحدة في أرض محددة، فإنه لا يمكن أن يوجد بالنسبة للفرد غير ولاء قومي واحد. ولا يمكن تأمين الممارسة الكاملة لحقوق كل فرد وتماسك المجتمع إلّا بهذا الثمن... وإذا فكرت خلافاً لذلك، إذا كانت إسرائيل هي الدولة التي أمنحها ولائي الرئيسي، فلن أكون معذوراً إن لم أعش هناك" (٢٣٨).

باختصار، على المرء أن يختار. وهذا بالتحديد هو رأي المدرسة الفكرية الأخرى، كما يظهر بشكل خاص من المناقشات حول مسألة التصويت. ويوضح بلقاسم، البالغ من العمر ٢٦ عاماً، وهو الأمين العام لرابطة العمال الجزائريين في فرنسا: "إننا نعرف أن ٩٠ في المائة من الأفارقة الشماليين في فرنسا سوف يبقون فيها. وسوف يكون شعارنا هو: «مستقبلي هنا، ولذا فسوف أدلي بصوتي هنا»" (٢٣٩). أمّا سليمان طير، وهو باحث اقتصادي في التاسعة والعشرين من عمره، وقد أنشأ في روبيه مركزاً إفريقياً شمالياً للثقافة وللبحوث وللنشاط، فهو لا يتردد في قول إن معظم المهاجرين "يعتبرون فرنسا اليوم بلدهم الفعلي" وإن فكرة العودة إلى الوطن هي "أسطورة" و"هرب من ذلك الواقع". ولذا يجب عليهم أن يشاركوا بنشاط في الحياة السياسية وأن يمارسوا حقهم في التصويت وأن يتمكنوا من تحصيل "ثقافة حتى يحققوا مواطنة جديدة". وحتى يتسنى لهم ذلك، "يجب أن يختاروا. والحال أن كثيرين جداً من الشباب مغرورون في موقف عدم اختيار" (٢٤٠).

ويكتب جان - فرنسيس هيلد في عدد L'Événement du jeudi هذا نفسه

فيقول: "إن الاختيار، السير في طريق بدلاً من الآخر، هو ما سوف يقرر مجمل المشوار التالي. والـ **Beurs** الشبان أخذوا يدركون أن ورقة الانتخاب تنطوي على آمال أكبر من البحث عن ملاذ في القرآن أو الحلم بالعودة إلى الجزائر". وهو يتخيل زمناً "يشق فيه كثيرون من الـ **Beurs** طريقهم ليصبحوا أساتذة وجراحين ورجال أعمال وأعضاء في الجمعية الوطنية وعمداً"، ومن ثم فسوف يكون بوسعهم تكييف علاقاتهم "مع غالبية السكان" (٢٤١).

وأرجو أن يكون محقاً. فعندما يجيء ذلك اليوم، سيكون الأفارقة الشماليون قد أحرزوا انتصاراً لأنفسهم، ومن ثم لنا، وللمجتمع ككل. وأملّي في ذلك جد كبير خاصة أن صعود الأصولية في العالم يجعل المرء متزعجاً حتى من أكثر الحملات الدينية إخلاصاً ونزاهة. ومن المؤكد أن فرنسا لم تكف عن أن تكون بلداً مسيحياً، لكنها في هذا الصدد قد أصبحت بلداً متسامحاً وقد خبت الحماسات. لقد مر وقت طويل على مكابدات الفرنسيين من حروب الدين، لكن عدة قرون لم تمنح بعد ذكرى بشاعات تلك الأزمنة. فمن الذي يمكنه أن يحتمل رؤية حرب دينية جديدة في فرنسا؟

NOTES

1. Joan ROBINSON, *Hérésies économiques*, 1972, p. 229.
2. Guy BOIS, *Crise du féodalisme*, 1976, p. 16.

Notes du premier chapitre

1. Alfred SAUVY, Lettre du 29 février 1980.
2. Pierre CHAUNU, *La France*, 1982, p. 33.
3. Henri LERIDON et Michel Louis LEVY, « Populations du monde : les conditions de la stabilisation », in : *Population et sociétés*, déc. 1980, n° 42.
4. Ange GOUDAN, *Les Intérêts de la France mal entendus*, 1756, I, pp. 255 et 342.
5. Jean MARTEL, *Le Roi Arthur et la civilisation celtique*, 1976, p. 9.
6. Cité par Gilles DELUZE et Félix GUATTARI, *Capitalisme et Schizophrénie, L'anti-Œdipe*, 1972, p. 169.
7. Ferdinand LOT, *La Fin du monde antique et le début du Moyen Âge*, 1968, pp. 11-13. 1983, pp. 28-29.
8. Colin RENFREW, *Les Origines de l'Europe*, 1983, p. 29.
9. Isaac NEWTON, *The Chronology of Ancient Kingdoms amended*, in : *Œuvres complètes*, 1779-1785, tome V, cité par C. RENFREW, *op. cit.*, p. 29.
10. C. RENFREW, *ibid.*, p. 282.
11. Sur cette révision radicale, voir C. RENFREW, *ibid.*, Chapitres III, IV, V et *passim*.
12. Gabriel CAMPS, *La Préhistoire*, 1982, pp. 125-140.
13. Gabriel CAMPS, *op. cit.*, p. 54.
14. *Ibid.*, pp. 55 sq.
15. Selon la remarque d'André LEROI-GOURHAN, cité par G. CAMPS, *op. cit.*, p. 59.
16. Jean GUILAINE, *La France d'avant la France. Du Néolithique à l'Âge de fer*, 1980, p. 14.
17. Henri DELPORTE, « Les premières industries humaines en Auvergne », in : *Préhistoire française. I, Les Civilisations paléolithiques et mésolithiques de la France*, 1976, p. 803, p.p. Henri de LUMLEY.
18. H. de LUMLEY, S. GAGNIÈRE, L. BARRAL et R. PASCAL, « La grotte du Vallonet Roquebrune-Cap-Martin (Alpes-Maritimes) », in :

Bulletin du Musée d'Anthropologie préhistorique de Monaco, 10, 1963, pp. 5-20.

19. Franck BOURDIER, *Préhistoire de la France*, 1967, pp. 55 sq. et *Préhistoire française*, I, op. cit., tableau chronologique, p. 10.
20. On sait que dans un passé extrêmement lointain, la dérive des continents a pu déplacer des continents entiers. Par exemple, l'Inde, jadis rattachée à l'Antarctide, a été finalement percuter l'Eurasie, au nord de l'Equateur et s'y est soudée (le processus a duré 50 millions d'années).
21. H. de LUMLEY, S. GAGNIÈRE, L. BARRAL et R. PASCAL, art. cit.
22. E.W. PFIZENMAYER, *Les Mammouths de Sibérie. La découverte des cadavres de mammouths préhistoriques sur les bords de la Beresovka et de la Sanga-Iourakh*, 1939, passim et pp. 17-21.
23. H. de LUMLEY, J. RENAUL-MISKOVSKY, J.-C. MISKOVSKY, J. GUILAINE, « Le cadre chronologique et paléoclimatique du Postglaciaire », in : *La Préhistoire française. II, Les Civilisations néolithiques et protohistoriques de la France*, p.p. Jean GUILAINE, op. cit., 1976, p. 3.
24. Marie-Antoinette de LUMLEY, « Les Antécédents dans le Sud », in : *La Préhistoire française*, p.p. Henri de LUMLEY, I, *Les Civilisations paléolithiques et mésolithiques de la France*, 1976, p. 547.
25. Jean ABELANET, *Le Musée de Tautavel*, 1982, pp. 32-36.
26. *Ibid.*, pp. 11 et 25.
27. G. CAMPS, op. cit., p. 157.
28. *Ibid.*, pp. 380-381.
29. *Ibid.*, p. 381 et F. BOURDIER, op. cit., pp. 223-224.
30. G. CAMPS, op. cit., pp. 162-176 ; F. BOURDIER, op. cit., p. 208.
31. Philip LIBERMAN, « L'évolution du langage humain », in : *La Recherche*, 1975, pp. 751 sq.
32. G. CAMPS, op. cit., pp. 173-174 et 178.
33. F. BOURDIER, op. cit., p. 262.
34. André LEROI-GOURHAN, « L'art paléolithique en France », in : *Préhistoire française*, op. cit. I, pp. 741 sq. ; G. CAMPS, op. cit., pp. 203-207.
35. Pierre GAXOTTE, *Histoire des Français*, 1951, I, pp. 16-17.
36. G. CAMPS, op. cit., p. 194.
37. G. CAMPS, op. cit., pp. 187-190 ; F. BOURDIER, op. cit., pp. 240-244.
38. F. BOURDIER, op. cit., pp. 249-256.
39. G. CAMPS, op. cit., pp. 229-232.
40. Robert ARDREY, *La Loi naturelle*, 1971, pp. 390-391.
41. J. GUILAINE, op. cit., p. 29.
42. *Ibid.*, pp. 29-30.
43. Raymond Riquet, « L'anthropologie préhistorique », in : *La Préhistoire française*, pp. Jean GUILAINE, II, 1976, p. 151.
44. J. GUILAINE, op. cit., p. 34.
45. J. GUILAINE, op. cit., p. 37.
46. R. Riquet, op. cit., p. 140.
47. J. GUILAINE, op. cit., pp. 40 sq.
48. On désigne sous ce nom aussi bien les constructions faites d'énormes pierres dressées, comme à Carnac, ou à Stonehenge en Angleterre; que les tombes à toitures en encorbellement, comme celles de l'île Longue, en Bretagne, qui utilisent de petites pierres.
49. J. GUILAINE, op. cit., pp. 66-67.
50. J. GUILAINE, op. cit., p. 94 sq.
51. J. GUILAINE, op. cit., p. 94.

52. R. RIQUET, *op. cit.*, p. 144.
53. J. GUILAINE, *op. cit.*, pp. 95-96.
54. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 103.
55. Statuette d'ivoire, découverte dans la grotte du Pape, à Brassempouy (Landes).
56. J. GUILAINE, *op. cit.*, pp. 104-105.
57. *Ibid.*, pp. 129-130.
58. *Ibid.*, p. 131.
59. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 149.
60. Le forgeron, dans les sociétés primitives modernes, a toujours été un personnage à part, respecté, généralement redouté.
61. J. GUILAINE, pp. 160-161.
62. *Ibid. op. cit.*, p. 167.
63. *Ibid.*, *op. cit.*, pp. 174 sq.
64. *Ibid.*, p. 177.
65. G. RACHET, *op. cit.*, p. 38.
66. J. GUILAINE, *op. cit.*, p. 203.
67. *Ibid.*, p. 241.
68. *Ibid.*, *op. cit.*, pp. 241 sq.
69. *Ibid.*, pp. 242 sq.
70. *Ibid.*, pp. 248-250.
71. Bien que, récemment, on ait mis en doute qu'il s'agisse bien d'une femme.
72. J. GUILAINE, *op. cit.*, pp. 254-255.
73. Jacques HARMAUD, *Les Celtes au second Age du fer*, 1972, pp. 16-17.
74. Venceslas KRUTA, *Les Celtes*, 1976, pp. 68-70.
75. *Ibid.*, pp. 34-35.
76. Barry CUNLIFFE, *L'Univers des Celtes*, 1981, pp. 14-15.
77. Sur l'étonnante civilisation unitaire du Levant au II^e millénaire, cf. W. CULICAN, *Le Levant et la mer, histoire et commerce*, 1967.
78. Jacques HARMAUD, *Les Celtes au second Age du fer*, 1972, p. 15.
79. *Ibid.*, p. 40.
80. *Ibid.*, p. 42.
81. Jules MICHELET, *Histoire de France*, 1876, I, p. 12.
82. J. MICHELET, *op. cit.*, I, p. 15.
83. Jan de VRIES, *La Religion des Celtes*, 1963, p. 14.
84. Henri HUBERT, *Les Celtes et l'expansion celtique jusqu'à l'époque de la Tène*, 1950 ; *Les Celtes depuis l'époque de la Tène et la civilisation celtique*, 1950.
85. Gustave BLOCH, « La Gaule indépendante et la conquête romaine », in : *Histoire de France*, p.p. Ernest LAVISSE, II, 1911, p. 33.
86. Vital-Fleury VIMAL de SAINT-PAL, « Le Celte, homme de cheval », in : *La Cavalerie celtique*, 1952.
87. J. HARMAUD, *op. cit.*, p. 80 ; B. CUNLIFFE, *op. cit.*, p. 120.
88. Karl Ferdinand WERNER, *Les Origines*, in : *Histoire de France*, p.p. Jean FAVIER, 1984, I, p. 202.
89. Paul-Henri PAILLOU, *L'Anti-César*, 1965.
90. J. HARMAUD, *op. cit.*, pp. 88-89.
91. *Infra*, tome III, Chapitre IV.
92. *Dictionnaire archéologique des techniques*, Éditions de l'Accueil, 1964, II, p. 1008, article « transports ».
93. Alain GUILLERM, *L'Etat et l'espace de la guerre*, 1982, dactylogramme, I, pp. 37 sq., p. 49.
94. G. BLOCH, *op. cit.*, p. 43.

95. Venceslas KRUTA, *Les Celtes*, pp. 112-115.
96. *Ibid.*, p. 105.
97. *Ibid.*, p.p. 102-103 et 108-110.
98. G. BLOCH, *op. cit.*, in : *Histoire de France*, pp. E. LAVISSE, II, p. 42.
99. CICÉRON, *De provinciis consularibus*, 12, cité par G. BLOCH, *op. cit.*, p. 37.
100. G. BLOCH, *op. cit.*, p. 95.
101. Albert GRENIER, « Aux origines de l'économie rurale : la conquête du sol français », in : *Annales d'histoire économique et sociale*, 1930, pp. 32-33.
102. A. GUILLERM, *op. cit.*, p. 66.
103. Pierre BONNAUD, « La ville : deux origines, deux filières », in : *Géographie historique des villes d'Europe occidentale. Actes du colloque du 10-12 janvier 1981 à l'Université de Paris-Sorbonne*, t. I. *Villes et réseaux urbains*, p.p. Paul CLAVAL, 1984, p. 29.
104. Emmanuel de MARTONNE, conférence, à São Paulo, Brésil.
105. Colin RENFREW, *Les Origines de l'Europe*, 1983, p.p. 165-168.
106. Raymond RIQUET, « L'anthropologie préhistorique », in : *La Préhistoire française*, p.p. Jean GUILAINE, II, 1976, pp. 150-151.
107. Ferdinand LOT, *La France des origines à la guerre de Cent Ans*, 5^e éd. 1941, p. 8.
108. C. RENFREW, *op. cit.*, pp. 133 sq.
109. K.F. WERNER, *op. cit.*, p. 71.
110. Louis-René NOUGIER, *Le Peuplement préhistorique*, 1950, p. 65.
111. G. CAMPS, *op. cit.*, pp. 310-311.
112. R. RIQUET, *op. cit.*, p. 146.
113. Cité par Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968, p. 43.
114. G. BLOCH, *op. cit.*, p. 35.
115. Eugène CAVAIGNAC, cité par Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968, qui adoptent ce chiffre « assez solidement établi », p. 43.
116. K. F. WERNER, *op. cit.*, p. 167.
117. Jean BERNARD et Jacques RUFFIÉ, *Hématologie géographique*, 1966, I, cité par M. BORDEAUX, « Voies ouvertes à l'histoire des coutumes par l'hématologie géographique », in : *Annales E.S.C.*, 1969, p. 1275 (carte p. 1282, à titre d'exemple).
118. Robert FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, 1970, p. 22 ; Michel ROBLIN, *Le Terroir de l'Oise aux époques gallo-romaine et franque. Peuplement, défrichement, environnement*, 1978, p. 297.
119. G. BLOCH, *op. cit.*, p. 101.
120. A. GUILLERM, *op. cit.*, p. 44.
121. J. MICHELET, *op. cit.*, I, p. 52.
122. Jérôme CARCOPINO, *César*, 1936, p. 707 ; Camille JULLIAN, *Histoire de la Gaule*, éd. 1971, II, pp. 437-447, pp. 449-452.
123. Gustave BLOCH, *Les Origines. La Gaule indépendante et la Gaule romaine*, in : *Histoire de France*, pp. Ernest LAVISSE, I, 1911, p. 101.
124. *Ibid.*, p. 104.
125. Ferdinand LOT, *La Gaule*, 1947, p. 170.
126. C. JULLIAN, *op. cit.*, pp. 508-509.
127. K.F. WERNER, *op. cit.*, p. 137.
128. A. GUILLERM, *op. cit.*, p. 143.
129. Siegfried Jan DE LAET, « Romains, Celtes et Germains en Gaule septentrionale », in : *Studia historica gandensia*, 1964, p. 92.
130. *Ibid.*, p. 93.

131. Marcel LE GLAY, « Les Gallo-Romains », in : *Histoire de France*, p.p. G. DUBY, 1970, I, p. 114.
132. Maurice BOUVIER-AJAM, *Dagobert*, p. 19 ; Pierre LANCE, *La Défaite d'Alésia, Ses causes dans la société celtique, ses conséquences dans la société française*, 1978, pp. 155 sq.
133. André FIGANIOL, *Histoire de Rome*, 1962, p. 273.
134. Jules MICHELET, cité par François GEORGE, *Histoire personnelle de la France*, 1983, p. 91.
135. Pierre LANCE, *op. cit.*, *passim*.
136. Pierre BONNAUD, *Terres et langages. Peuples et régions*, 1981, I, pp. 37-39 et 45. « La situation des Gaulois par rapport au latin au cours du haut Moyen Age rappelle [...] celle de la langue d'oc par rapport au français entre le XVI^e siècle et nos jours. » Yves FLORENNE, « Les peuples fidèles », in : *Le Monde*, 21 juillet 1983.
137. J. MARKALE, *Le Roi Arthur*, *op. cit.*, p. 24.
138. Jan DE LAET, *art. cit.*, p. 91.
139. Référence égarée.
140. F. LOT, *op. cit.*, p. 69.
141. Karl Julius BELOCH, *Die Bevölkerung der Griechisch-Römischen Welt*, 1886, p. 507.
142. Voir *supra*, note 115.
143. K. J. BELOCH, « Die Bevölkerung im Altertum », in : *Zeitschrift für Social und Wissenschaft*, II, 1899, pp. 512 et 619. Cet article est d'une quinzaine d'années postérieur à l'ouvrage cité note 141.
144. Robert FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, p. 51.
145. Heinrich BECHTEL, « Städte und Bürger vom 13.-15. Jahrhundert », in : *Wirtschaftsgeschichte Deutschlands*, 1951, p. 256.
146. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...* 1979, I, p. 232.
147. F. LOT, *op. cit.*, p. 397.
148. R. FOSSIER, référence non retrouvée.
149. Jean-Louis VATINEL, *Les Années terribles du III^e siècle en Gaule*, 1978, p. 17.
150. Lucien MUSSET, « Les Gallo-Romains », in : *Histoire de France*, p.p. Georges DUBY, 1970, I, p. 159.
151. André FIGANIOL, cité par Robert FOSSIER, *Le Moyen Age. I. Les Mondes nouveaux (350-950)*, 1982, p. 33.
152. Michel ROUCHE, « L'éclatement des mondes anciens », in : *Le Moyen Age*, *op. cit.*, I, p. 107.
153. Pierre DOCKES, *La Libération médiévale*, 1979 ; « Révoltes bagaudes et ensauvagement », in : *Sauvages et ensauvagés ; analyse épistémologique, histoire économique*, mars 1980, n° 19, pp. 145 sq.
154. M. ROUCHE, *op. cit.*, p. 108.
155. Roger AGACHE, « Détection aérienne des vestiges protohistoriques, gallo-romains et médiévaux dans le bassin de la Somme », in : Numéro spécial du *Bulletin de la Société de Préhistoire du Nord*, n° 7, 1970, pp. 179-180.
156. Guillaume FOVET, *Gallia*, supp. 20, 1969.
157. Roger AGACHE, « Archéologie aérienne de la Somme », in : Numéro spécial du *Bulletin de la Société de Préhistoire du Nord*, n° 6, 1964, planche 32 : fig. 103 et 104.
158. Monique CLAVEL, *Béziers et son territoire dans l'Antiquité*, 1970, pp. 606-607.

159. Pierre DURVIN, *Essai sur l'économie gallo-romaine dans la région de Greil*, 1972, pp. 9-16.
160. Sidoine APOLLINAIRE, *Lettres*, II, éd. 1970, p. 46 et note 9.
161. Henri DUBLED, « Quelques observations sur le sens du mot villa », in : *Le Moyen Age*, 1953, 1-2, pp. 1-9.
162. P. DURVIN, *op. cit.*, p. 68.
163. Lucien GACHON, *La Vie rurale en France*, 1^{re} éd. 1967, 3^e éd. 1976, p. 39.
164. Michel ROUCHE, « L'éclatement des mondes anciens », in : *Le Moyen Age*, p.p. R. FOSSIER, *op. cit.*, p. 57.
165. *Ibid.*, p. 59.
166. Marie-Bernadette BRUGUIÈRE, *Littérature et droit dans la Gaule du v^e siècle*, 1974, p. 321 : Lampridius, ami de Sidoine Apollinaire, assassiné par ses esclaves ; le même Sidoine Apollinaire signale l'enlèvement d'une femme, vendue comme esclave au marché de la ville de Clermont.
167. Régine PERNOUD, in : *Histoire du peuple français*, p.p. Louis-Henri PARIAS, I. *Des origines au Moyen Age*, p. 29.
168. Pierre DOCKES, *La Libération médiévale*, 1979, p. 118.
169. P. DOCKES, *Révoltes bagaudes et ensauvagement*, *op. cit.*, pp. 152-154.
170. Henri HUBERT, *Les Celtes depuis l'époque de la Tène et de la civilisation celtique*, 1950, p. 184.
171. Salvien se retira à l'abbaye de Lerins en 420, puis à Marseille où il fut ordonné prêtre en 430. Ce passage est extrait de *De gubernatione Dei* où il présente les Barbares, chargés par Dieu de châtier le monde romain, comme les promoteurs d'une société régénérée.
172. Cité par Robert FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, *op. cit.*, p. 45.
173. M.-B. BRUGUIÈRE, *op. cit.*, p. 53.
174. P. DOCKES, *Révoltes bagaudes et ensauvagement*, *op. cit.*, p. 237.
175. Jan DHONDT, *Le Haut Moyen Age (vii^e-xi^e siècles)*, 1976, pp. 27-28.
176. Hans DELBRÜCK, *Geschichte der Kriegskunst in Rahmen der Politischen Geschichte*, I, 1900, pp. 472 sq.
177. Henri PIRENNE, Conférences à Alger, 1931.
178. Lucien ROMIER, *L'Ancienne France des origines à la Révolution*, 1948, p. 45.
179. Ferdinand LOT, « La civilisation mérovingienne », in : *Les Destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888*. Première partie : *De 395 à 768*. *Histoire du Moyen Age*, p.p. Gustave GLOTZ, 1940, p. 383.
180. P. DOCKES, *La Libération médiévale*, *op. cit.*, p. 109.
181. Référence égarée.
182. R. FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, *op. cit.*, pp. 33 sq.
183. Paul DUFOURNET, *Pour une archéologie du paysage*, 1978, p. 163.
184. Robert FOLZ, André GUILLOU, Lucien MUSSET, Dominique SOURDEL, *De l'Antiquité au monde médiéval*, 1972, pp. 94-99 et 243.
185. R. FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, *op. cit.*, p. 36.
186. Jean-Louis VATINEL, *Les Années terribles du iii^e siècle en Gaule*, 1969, p. 29.
187. Collection des historiens de France, I, p. 275, cité par Emile LEVASSEUR, *La Population française*, I, 1889, p. 107.
188. Paul-Albert FÉVRIER, *Le Développement urbain en Provence de l'époque romaine à la fin du xiv^e siècle (archéologie et histoire urbaine)*, 1964, p. 212.

189. Henri LABROUSSE, *Toulouse antique. Des origines à l'établissement des Wisigoths*, 1968, p. 571.
190. Alexander RÜSTOW, *Ortsbestimmung der Gegenwart. II, Weg der Freiheit*, 1952, p. 243.
191. Edmond FREZOULS, « Etudes et recherches sur les villes en Gaule », in : *La Gallia romana*, Actes du colloque de l'Accademia Nazionale dei Lincei (Rome, 10-11 mai 1971), 1973, p. 164.
192. M.-B. BRUGUIÈRE, *Littérature et droit...*, *op. cit.*, pp. 391 sq.
193. Numa Denis FUSTEL DE COULANGES, *La Monarchie franque*, 5^e éd. 1926, p. 520.
194. Marc BLOCH, « Le problème de l'or au Moyen Age », in : *Annales d'histoire économique et sociale*, V, 1933, p. 18.
195. Etienne SABBE, « L'importation des tissus orientaux en Europe occidentale au haut Moyen Age », in : *Revue belge de philologie et d'histoire*, XIV, 1935, pp. 811 et 1261.
196. François-Louis GANSHOF, « Notes sur les ports de Provence du VIII^e au X^e siècle », in : *Revue historique*, 184, 1938, p. 128.
197. Elyas ASHTOR, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, 1976.
198. Pierre BONNASSIÉ, *La Catalogne du milieu du X^e à la fin du XI^e siècle*, 1975, I, p. 379.
199. Je ne crois pas qu'un réchauffement du climat, à partir du VIII^e siècle, autre explication plausible de dernière heure, nous mette sur la bonne voie des causes et conséquences.
200. Marcel REINHARD, André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968, p.p. 62 et 64 ; Karl Ferdinand WERNER, *Les Origines*, in : *Histoire de France*, p.p. Jean FAVIER, 1984, p. 360.
201. K.F. WERNER, *op. cit.*, p. 302 ; Lucien MUSSET, in : R. FOLZ, A. GUILLOU, L. MUSSET, D. SOURDEL, *op. cit.*, pp. 118-120.
202. Lucien MUSSET, « Les migrations barbares », in : *Histoire de France*, p.p. Georges DUBY, I, 1970, p. 165 et Pierre RICHE, « Les temps mérovingiens, VI^e-VII^e siècles », *ibid.*, I, p. 171.
203. Renée DOEHAERD, *Le Haut Moyen Age occidental. Economies et sociétés*, 1971, pp. 125-126 et 223-224.
204. *Ibid.*, p. 223.
205. Michel ROUCHE, « L'éclatement des mondes anciens », in : *Le Moyen Age*, p.p. Robert FOSSIER, *op. cit.*, p. 97.
206. Jean-François LEMARIGNIER, *La France médiévale, institutions et société*, 1970, p. 52.
207. Pierre RICHÉ, *op. cit.*, in : *Histoire de France*, p.p. G. DUBY, I, p. 170.
208. Léopold GENICOT, « Aux origines de la civilisation occidentale, Nord et Sud de la Gaule », in : *Miscellanea L. Van der Essen*, 1947, pp. 1 sq.
209. *Ibid.*, p. 89.
210. Renée DOEHAERD, *op. cit.*, pp. 90 sq.
211. Thomas REGAZZOLA et Jacques LEFEVRE, *La Domestication du mouvement. Poussées mobilisatrices et surrection de l'Etat*, 1981, p. 20.
212. Marc BLOCH, cité par Michel LE MENÉ, *L'Economie médiévale*, 1977, p. 26.
213. Henri PIRENNE, « L'instruction des marchands au Moyen Age », in : *Annales d'histoire économique et sociale*, 1929, p. 18.
214. P. RICHÉ, *op. cit.*, in : *Histoire de France*, p.p. G. DUBY, I, p. 170.
215. *Ibid.*, pp. 180-181.
216. R. FOSSIER, *Histoire sociale de l'Occident médiéval*, *op. cit.*, p. 52.

217. Jan DHONDT, *Le Haut Moyen Age (VIII^e-XI^e siècles)*, traduction française, 1976, p. 73. Sur le traité de Verdun, voir *L'Identité de la France*, I, pp. 282-284 et carte.
218. J. DHONDT, *op. cit.*, p. 75.
219. Jacques MADAULE, *Histoire de France*, 1943, I, p. 77.
220. C'est-à-dire un événement qui a des conséquences à long terme et s'annexe ainsi un temps très supérieur à sa propre durée.
221. Ernst Robert CURTIUS, *La Littérature européenne et le Moyen Age latin*, 1956, p. 23.
222. Nicolas JORGA, *Histoire du peuple français*, éd. en roumain, 1919, p. 93.
223. P. BONNASSIÉ, *op. cit.*, I, p. 131.
224. Robert FOSSIER, *Le Moyen Age*, I. *Les Mondes nouveaux 350-950*, p. 14; II. *L'Éveil de l'Europe 950-1250*, p. 7.
225. J. DHONDT, *op. cit.*, pp. 2-3.
226. Fisc : produit des diverses contributions levées dans les provinces de l'Empire romain. Le mot désigne ensuite le domaine particulier du souverain ou de l'Etat et le produit des droits seigneuriaux que le roi percevait comme possesseur ou suzerain des fiefs.
227. Comtes : gouverneurs de provinces qui avaient autorité administrative, judiciaire, financière et militaire. Les *Missi Domini* ont été établis par Charlemagne pour les surveiller.
228. Honneur. On donnait le nom d'*honor* ou *honor*, sous les Carolingiens, aux terres, revenus ou délégations d'impôt que le roi concédait en forme de bénéfice à ses principaux fonctionnaires pour leur tenir lieu de traitement pendant la durée de leur fonction.
229. Voir supra I, pp. 274-275 et J. DHONDT, *op. cit.*, p. 55.
230. *Ibid.*, p. 55.
231. *Ibid.*, p. 58.
232. Lucien GACHON, *La Vie rurale en France*, 3^e éd. 1976, p. 42.
233. Paul ROLLAND, « De l'économie antique au grand commerce médiéval. Le problème de la continuité à Tournai et dans la Gaule » du Nord, in : *Annales d'histoire économique et sociale*, 1935, VII, pp. 245-284.
234. Anne LOMBARD-JOURDAN, « Du problème de la continuité : y a-t-il une protohistoire urbaine de la France ? », in : *Annales E.S.C.*, 1970, 4, p. 1127.
235. Jacob van KLAVEREN, « Die Wikingerzüge in ihrer Bedeutung für die Belebung der Geldwirtschaft in frühen Mittelalter », in : *Jahrbuch für Nationalökonomie und Statistik*, 1957, Bd.168, H.5/6, pp. 405 sq.
236. Maurice LOMBARD, « Mahomet et Charlemagne », in : *Annales E.S.C.*, 1948, n° 2, p. 197.
237. Michel ROUCHE, « La rénovation carolingienne », in : *Le Moyen Age*, I. *Les Mondes nouveaux 350-950*, 1982, p. 371.
238. T. REGAZZOLA et J. LEFEVRE, *op. cit.*, p. 19.
239. *Ibid.*, p. 23.
240. Voir par exemple l'abondante collecte réunie par Renée DOEHAERD, concernant les ventes faites par les villas royales aussi bien que par les seigneurs, les abbayes et les paysans eux-mêmes : *Le Haut Moyen Age occidental*, *op. cit.*, pp. 224-230.
241. Il s'agit de l'*Edictum Pistense* de 864, in : Alfred BORETIUS et Victor KRAUSE, *Capitularia regum Francorum*, II, p. 319, in : *Monumenta Germaniae Historica*, 1890.
242. J. DHONDT, *op. cit.*, p. 194.

243. *Ibid.*, p. 36 et pour le commerce à longue distance, pp. 152 sq.
244. *Ibid.*, pp. 172-190.
245. *Ibid.*, pp. 160 sq.
246. Renée DOEHAERD, *op. cit.*, pp. 103-109.
247. Mozarabes : chrétiens d'Espagne soumis à la domination musulmane.
248. Polyptyque : registre plié en plusieurs parties où l'on inscrivait les états officiels et authentiques des biens et droits d'une abbaye.
249. John RUSSEL, cité par Marcel REINHARD, in : *Histoire générale de la population mondiale*, *op. cit.*, p. 64.
250. Karl Julius BELOCH, « Die Bevölkerung Europas im Mittelalter », in : *Zeitschrift für Socialwissenschaft*, 1900, p. 408.
251. M. ROUCHE, *op. cit.*, pp. 460-461.
252. Sur le concept d'économie-monde, voir : F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, *op. cit.*, III, pp. 12 et sq.
253. Henri PIRENNE, *Histoire économique et sociale du Moyen Age*, éd. 1969, p. 20.
254. J. DHONDT, *op. cit.*, p. 183.
255. J. DHONDT, *op. cit.*, p. 189.

Notes du deuxième chapitre

1. Jan DHONDT, *Le Haut Moyen Age (VIII^e-IX^e siècles)*, 1976, p. 186.
2. Guy BOIS, *Crise du féodalisme*, 1976, p. 299.
3. 70 % en Normandie, 64 % en Haute-Provence, 70 % dans le Champsaur, à peu près autant dans la région parisienne. Ces chiffres sont cités par G. BOIS, *op. cit.* pp. 62-63, d'après Edouard BARATIER, *La Démographie provençale du XIII^e au XVI^e siècle*, 81 et 59 ; Alfred FIERRO, « Un cycle démographique : Dauphiné et Faucigny du XIV^e au XIX^e siècle », in : *Annales E.S.C.*, sept.-oct. 1971, pp. 941-949 ; Guy FOURQUIN, *Les Campagnes de la région parisienne à la fin du Moyen Age*, 1964, pp. 364-366.
4. G. BOIS, *op. cit.*, troisième partie : « Les étapes de la crise ».
5. Cf. Karl Ferdinand WERNER, *Les Origines*, in : *Histoire de France*, publiée sous la dir. de Jean FAVIER, I, 1984, p. 432.
6. *Ibid.*, p. 431.
7. *Ibid.*, p. 433.
8. *Ibid.*, p. 426. Dès le XI^e siècle dans le Nord de la Bourgogne.
9. La Frise, pays maritime de longue date, intégrée au royaume de Lothaire lors du traité de Verdun en 843, pratiquait le commerce à longue distance de son industrie textile. Jan DHONDT, *Le Haut Moyen Age (VIII^e-XI^e siècles)*, 1976, pp. 143-144.
10. Edouard PERROY, *La Guerre de Cent Ans*, 1945, p. 41.
11. Alléu : héritage tenu en franchise par opposition aux fiefs.
12. Ce « qu'à la fin du XI^e siècle, on commencera d'appeler le « fief », Jean FAVIER, *Le Temps des principautés : de l'an Mil à 1515*, in : *Histoire de France...* *op. cit.*, II, 1984, p. 22.
13. Charles PFISTER, *Etudes sur le règne de Robert le Pieux (996-1031)*, 1885, pp. 167-168.
14. E. PERROY, *op. cit.*, p. 18.
15. François SIGAUT, « Moulins, femmes, esclaves », in : *Colloque*

- Techniques, technologie et histoire dans l'aire méditerranéenne, Aix-en-Provence, 21-23 octobre 1982, à paraître.
16. K.F. WERNER, *op. cit.*, p. 424 ; J. DHONDT, *op. cit.* p. 27.
 17. J. DHONDT, *op. cit.* pp. 24-25 et Georges DUBY, *L'Economie rurale et la vie des campagnes de l'Occident médiéval*, 1962, I, pp. 100-102.
 18. Sur la formation de ces deux pôles d'activité, cf. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, III, 1979, pp. 78 sq.
 19. *Ibid.*, p. 77, note 17.
 20. Josiah Cox RUSSELL, « Late ancient and medieval population », in : *Transactions of the American Philosophical Society*, 1958, pp. 95 sq., cité par Wilhelm ABEL, *Crises agraires en Europe (XIII^e-XX^e siècle)*, 1973, pp. 35-36.
 22. Josiah Cox RUSSELL, art. cit., p. 96.
 23. W. ABEL, *op. cit.*, p. 37.
 24. G. DUBY, R. MANTRAN, *L'Eurasie...* *op. cit.* pp. 18-19.
 25. *Ibid.*, p. 85.
 26. Amédée THALAMAS, *La Société seigneuriale française 1050-1270*, 1951, p. 46, note 18.
 27. Marc BLOCH, *Les Caractères originaux de l'histoire rurale française*, I, 1976, pp. 5 et 9.
 28. A. THALAMAS, *op. cit.*, p. 43.
 29. M. BLOCH, *op. cit.*, I, p. 9.
 30. Louis BADRÉ, *Histoire de la forêt française*, 1983, p. 27.
 31. E. MOREL, « En Champagne, le bois dont on fait les villages », in : *Marie-France*, octobre 1982.
 32. Sur l'importance de l'usage du bois, cf. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...* 1979, I, p. 252.
 33. Le Multien, ancienne région de France, entre la Marne et l'Ourcq.
 34. L'Orxoia, petit pays de la Brie.
 35. Pierre BRUNET, *Structure agraire et économie rurale des plateaux tertiaires entre la Seine et l'Oise*, 1960, pp. 430 sq.
 36. Voir les étonnantes photographies aériennes de Roger Agache, qui révèlent l'emplacement d'anciennes villas gallo-romaines aujourd'hui invisibles, et le village, construit parallèlement à la limite, parfois irrégulière, des terres de la villa. Ce qui suppose une première implantation au temps où l'exploitation existait encore. R. AGACHE, « Archéologie aérienne de la Somme, recherches nouvelles », *Bulletin spécial de la Société de Préhistoire du Nord*, n° 6, 1964, figure 218 ; « Détection aérienne des vestiges protohistoriques gallo-romains et médiévaux dans le bassin de la Somme et ses abords », *ibid.*, n° 7, 1970, figure 637 et figure Q, pp. 210-211.
 37. Emile MIREAUX, *Une province française au temps du Grand Roi : la Brie*, 1956, pp. 70 sq.
 38. P. BRUNET, *op. cit.* p. 434.
 39. François JULIEN-LABRUYÈRE, *Paysans charentais, histoire des campagnes d'Aunis, Saintonge et Bas-Angoumois*, I, 1982, p. 43.
 40. Guy BOIS, « Population, ressources et progrès technique dans un village du Mâconnais (X^e-XVIII^e siècles) », in : *Des labours de Cluny à la révolution verte, actes du Colloque Population-ressources*, 1985, p. 38.
 41. Jan DHONDT, *op. cit.*, pp. 115-117 et note p. 330.
 42. Jean FAVIER, *Histoire de France*, II : *Le Temps des principautés de l'an Mil à 1515*, 1984, p. 58.
 43. Cf. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...* *op. cit.*, III, p. 77, note 19.

44. *Ibid.*, p. 77, note 18.
45. J. FAVIER, *op. cit.*, p. 56.
46. Guy BOIS, *Crise du féodalisme*, 1976, p. 264.
47. K.F. WERNER, *op. cit.*, pp. 426-428.
48. *Ibid.*, p. 58.
49. *Ibid.*, p. 60.
50. Pierre CHAUNU, *Le Temps des Réformes*, 1975, p. 77.
51. Robert PHILIPPE, *L'Energie au Moyen Age : l'exemple des pays d'entre Seine et Loire de la fin du X^e siècle à la fin du XV^e siècle* (thèse inédite) I, 1980, p. 173.
52. André CHEDEVILLE, *Chartres et ses campagnes, XI^e-XIII^e siècles*, 1973, p. 196.
53. *Ibid.*, p. 194.
54. La puissance moyenne d'un moulin étant fixée à 6 HP, l'énergie mise en œuvre est de 120 000 HP, alors que le cheval, animal tracteur, représente 1/7 de HP et l'homme, 0,3 HP, mais il faudrait tenir compte de l'intermittence du travail fourni par l'homme ou le cheval, et aussi de l'intermittence saisonnière de l'activité des moulins.
55. Robert PHILIPPE dans une de nos discussions.
56. Robert PHILIPPE, « Les premiers moulins à vent », in : *Annales de Normandie*, n° 2, juin 1982, p. 100, note : « En 1802, 66 000 moulins à eau, 10 000 moulins à vent ; en 1896, 37 051 moulins à eau et à vent ; en 1921, 20 168. »
57. P. BONNAUD, *op. cit.*, I, p. 18.
58. Même si l'on ne retient pas le chiffre très bas de Russell cité plus haut (6 200 000 habitants), la population au début du XII^e siècle ne peut dépasser un maximum de dix millions, soit une population active d'environ deux millions. En admettant que les 20 000 moulins de cette époque soient l'équivalent de 600 000 travailleurs (voir *supra* et note 54), ils augmenteraient l'activité générale d'environ un tiers. Tout cela hypothétique, mais qui suggère un ordre de grandeur.
59. Témoignage recueilli au hasard d'un voyage de l'intéressé lui-même.
60. R. PHILIPPE, *L'Energie au Moyen Age*, *op. cit.*, I, p. 15.
61. W. ABEL, *op. cit.*, chapitre I, en particulier pp. 49-51.
62. P. CHAUNU, *op. cit.*, p. 13.
63. Léopold DELISLE, *Etudes sur la condition de la classe agricole et l'état de l'agriculture en Normandie au Moyen Age*, 1850, cité par R. PHILIPPE, *op. cit.*, p. 66.
64. Pour plus de détails sur cette première économie-monde européenne, cf. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, III, pp. 74-94.
65. Félix BOURQUELOT, *Etudes sur les foires de Champagne*, 1865 (I, pp. 72-75) ; Robert-Henri BAUTIER, « Les foires de Champagne », in : *Recueils de la Société Jean Bodin*, V, *La Foire*, 1953, p. 14.
66. Michel BUR, « Remarques sur les plus anciens documents concernant les foires de Champagne », in : *Colloque Les Villes, contribution à l'étude de leur développement en fonction de l'évolution économique*, Troyes, octobre 1970, 1972, p. 60.
67. Philippe DOLLINGER, « Le chiffre de la population de Paris au XIV^e siècle : 210 000 habitants ou 80 000 habitants ? », in : *Revue historique*, juil.-sept. 1956, pp. 35-44.
68. E. FERROY, *op. cit.*, p. 16. Charles V (1356-1380) construira au-delà des murailles le quartier du Marais.

69. « Georges Suffert fait le point avec Régine Pernoud : des cathédrales à recolorier », in : *Le Point*, 24-30 janvier 1983, pp. 112-122.
70. Ernst CURTIUS, *La Littérature européenne et le Moyen Age latin*, trad. française, 1956, p. 68.
71. *Ibid.* pp. 588-589. Michael Blaunpau, dit aussi Michel de Cornubie, natif de Cornouailles, fit ses études à Oxford et à Paris.
72. Lando BORTOLOTTI, *Le Città nella storia d'Italia*, 1983, p. 36.
73. Robert FOSSIER, *Le Moyen Age*, III, 1983, p. 55.
74. François SIMIAND distingue la phase A, phase de montée, et la phase B, phase de descente dans les crises cycliques.
75. R. FOSSIER, *op. cit.* p. 21.
76. Guy BOIS, *Crise du féodalisme*, 1976, p. 10.
77. *Ibid.*, p. 11.
78. André CHÉDEVILLE, *Chartres et ses campagnes, XI^e-XIII^e siècles*, 1973, p. 528.
79. R. FOSSIER, *op. cit.*, III, p. 25.
80. Michel BELOTTE, *La Région de Bar-sur-Seine à la fin du Moyen Age*, thèse 1973, p. 37.
81. R. FOSSIER, *op. cit.*, III, p. 44.
82. Robert PHILIPPE, *op. cit.*, I, p. 265.
83. G. BOIS, *op. cit.*, p. 52.
84. *Ibid.*, p. 62.
85. *Ibid.*, p. 299.
86. Adolphe VUITRY, *Etudes sur le régime financier de la France avant la Révolution de 1789*, 1883, II, pp. 295-299, cité par G. BOIS, *op. cit.*, p. 267.
87. Jean-Noël BIRABEN, *Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, 1975, I, p. 55.
88. En provenance du Proche-Orient, où la peste n'avait pas disparu comme en Europe (cf. note 90).
89. J.-N. BIRABEN, *op. cit.*, I, p. 309.
90. Dans l'Empire ottoman, la peste continuera à sévir, imposant des quarantaines dans tous les ports de la Méditerranée ; comme en Europe, elle disparaîtra complètement, mais vers 1850 seulement. Daniel PANZAC, *La Peste dans l'Empire ottoman 1700-1850*, thèse inédite, Aix-en-Provence, 1982.
91. Jean de VENETTE, *Continuations de Guillaume de Nangis (1300-1368)*, II, éd. 1844, cité par Noël COULET, « Le malheur des temps, 1348-1440 », in : *Histoire de la France*, p.p. Georges DUBY, II, 1971, p. 11.
92. J.-N. BIRABEN, *op. cit.*, p. 159.
93. N. COULET, in : G. DUBY, *op. cit.*, II, p. 9.
94. Thomas BASIN, *Histoire de Charles VII*, éd. 1933, pp. 88-89.
95. F. JULIEN-LABRUYÈRE, *op. cit.*, p. 132.
96. Noël COULET, in : G. DUBY, *op. cit.*, p. 18.
97. Jean FROISSART, *Chroniques*, V (1356-1360), cité par N. COULET, *op. cit.*, p. 14.
98. *Journal d'un bourgeois de Paris (1405-1449)*, éd. 1881, cité par N. COULET, *op. cit.*, p. 32.
99. *Ibid.*, p. 9.
100. Emile LEVASSEUR, *La Population française*, 1891, I, p. 179.
101. N. COULET, in : G. DUBY, *op. cit.*, II, p. 28.
102. R. FOSSIER, *op. cit.*, III, p. 65.
103. John DAY, « The Great Bullion Famine of the 15th century », in : *Past and Present*, mai 1978, pp. 3-54 ; « The Question of Monetary

- Contraction in late Medieval Europe », in : *Nordisk Numismatik Arsskrift*, 1981, pp. 12-29.
104. F. BOURQUELOT, *op. cit.*, I, p. 190.
 105. André LEFEVRE, « Les finances de la Champagne aux XIII^e et XIV^e siècles », in : *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, 1859, p. 69, cité par M. BELOTTE, *op. cit.*, p. 156.
 106. Renée DOEHAERD, « Les galères génoises dans la Manche et la mer du Nord à la fin du XIII^e et au début du XIV^e siècle », in : *Bulletin de l'Institut Historique belge de Rome*, 1938, pp. 5-76.
 107. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, III, p. 123.
 108. Enrique OTTE, « La Rochelle et l'Espagne. L'expédition de Diego Ingenios à l'île des Perles en 1528 », in : *Revue d'Histoire économique et sociale*, 1959, I, p. 44.
 109. F. BRAUDEL, *op. cit.*, III, p. 95.
 110. *Ibid.*, pp. 475-477.
 111. *Ibid.*, pp. 95 sq.
 112. Pierre CHAUNU, Georges SUFFERT, *La Peste blanche*, 1976, p. 57.
 113. Franck C. SPOONER, *The international Economy and Monetary Movements in France, 1493-1725*, 1972.
 114. F. BRAUDEL, *La Méditerranée et le monde...*, *op. cit.*, II, p. 217.
 115. Père Roger MOLS, *Introduction à la démographie historique des villes d'Europe du XIV^e au XVIII^e siècle*, II, 1955, p. 516.
 116. Jean-H. MARIÉJOL, *La Réforme et la Ligue. L'Edit de Nantes (1559-1598)*, t. VI, de l'*Histoire de France*, p.p. Ernest LAVISSE, 1911, pp. 111 sq.
 117. Pierre GOUBERT, *Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730. Contribution à l'histoire sociale de la France du XVII^e siècle*, 1960, p. 30.
 118. E. LEVASSEUR, *op. cit.*, I, p. 189.
 119. E. LE ROY LADURIE, *Les Paysans de Languedoc*, 1966, I, pp. 149-150.
 120. *Ibid.*, p. 163.
 121. *Ibid.*, p. 189.
 122. M. BELOTTE, *op. cit.*, p. 266.
 123. *Ibid.* p. 310.
 124. Claude HARMELLE, *Les Piqués de l'aigle. Saint-Antonin et sa région (1850-1940)*, 1982, p. 22.
 125. Pierre de BRANTÔME, *Œuvres*, IX, éd. 1779, p. 249.
 126. Cité par Karl HELLEINER, in : *The Cambridge Economic History of Europe*, éd. E.E. RICH et H.J. HABAKKUK, IV, 1967, p. 24.
 127. Omer LÜTFI BARKAN, cité par F. BRAUDEL, *La Méditerranée et le monde méditerranéen...*, I, 1982, p. 363.
 128. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, I, 1979, pp. 163 sq.
 129. Cela dépend probablement des régions. En Normandie, par exemple, Guy Bois constate que le plafond atteint vers 1550 est sensiblement inférieur du quart environ à celui de la fin du XIII^e siècle, *op. cit.*, p. 71.
 130. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, III, p. 69 ; Guy Bois, *op. cit.*, p. 10 en donne une saisissante illustration ; en 1473, le Nord de la Normandie est anéanti par les Bourguignons : villages rasés, récoltes totalement brûlées, la désolation est la même qu'un siècle plus tôt, mais cette fois, en pleine reprise économique, tout est réparé en quelques années seulement.
 131. André ARMENGAUD, *La Famille et l'enfant en France et en Angleterre du XVI^e au XVIII^e siècle*, 1975, p. 81.
 132. Oudard COQUAULT, *Mémoires...* (1649-1668), éd. 1875, I, p. 34.

133. Pierre GOUBERT, « Le régime démographique français au temps de Louis XIV », in : *Histoire économique et sociale de la France*, p.p. Fernand BRAUDEL et Ernest LABROUSSE, II, 1970, p. 37.
134. Jean FOURASTIÉ, « De la vie traditionnelle à la vie tertiaire », in : *Population*, 1959, n° 3, p. 418.
135. André ARMENGAUD, Jacques DUPAQUIER, Marcel REINHARD, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968, pp. 175-176.
136. *Ibid.* p. 195.
137. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, 1979, I, p. 136.
138. *Histoire de l'Aquitaine*, p.p. Charles HIGOUNET, 1971, p. 303.
139. Alain CROIX, *La Bretagne aux XVI^e et XVII^e siècles*, 1981, I, pp. 44-45.
140. F. BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, I, p. 141 et notes 233 et 234.
141. E. JUILLARD, *La Vie rurale dans la plaine de Basse-Alsace. Essai de géographie sociale*, 1953, pp. 213-215.
142. Earl J. HAMILTON, *American Treasure and the Price Revolution in Spain*, 1934.
143. Huguette et Pierre CHAUNU, *Séville et l'Atlantique 1504-1650*, 1955-1960.
144. Michel MORINEAU, *Incroyables Gazettes et fabuleux métaux. Les retours des trésors américains d'après les gazettes hollandaises (XVI^e-XVIII^e siècles)*, 1985.
145. P. GOUBERT, *Beauvais et le Beauvaisis...*, *op. cit.*, p. 382 et note 77.
146. Witold KULA, *Théorie économique du système féodal...*, 1970, p. 48.
147. Frank SPOONER, *The International Economy and Monetary Movements in France 1493-1725*, 1972, p. 306.
148. Karl Julius BELOCH, « Die Bevölkerung Europas zur Zeit der Renaissance », in : *Zeitschrift für Sozialwissenschaft*, 1900, pp. 774 et 786.
149. A. ARMENGAUD, J. DUPAQUIER, M. REINHARD, *op. cit.*, pp. 241-271, 328-339.
150. Charles-Henri POUTHAS, *La Population française pendant la première moitié du XIX^e siècle*, 1956 ; P. GOUBERT, « Les fondements démographiques », in : *Histoire économique et sociale de la France...* *op. cit.*, II, 1970, pp. 9-84 ; André ARMENGAUD, « Le rôle de la démographie », in : *Histoire économique et sociale de la France...* *op. cit.*, III, 1976, pp. 161-238.
151. A. ARMENGAUD, J. DUPAQUIER, M. REINHARD, *op. cit.*, p. 252.
152. A. ARMENGAUD, *op. cit.*, in : F. BRAUDEL et E. LABROUSSE, *Histoire économique et sociale de la France*, III, 1976, p. 173.
153. C.E. LABROUSSE, *La Crise de l'économie française à la fin de l'Ancien Régime et au début de la Révolution*, 1944.
154. B.H. SLICHER VAN BATH, *Yield Ratios 810-1820*, 1963, p. 16.
155. Richard GASCON, « La France du mouvement : les commerces et les villes », in : *Histoire économique et sociale de la France...*, I, 1977, p. 238, qui cite MACHIAVEL, *Tableau de la France en 1510*.
156. Paul BAIROCH, « Les grandes tendances des disparités économiques nationales depuis la révolution industrielle », in : *Regional and International Disparities in Economic Development since the Industrial Revolution*, 7^e congrès international d'histoire économique, 1978, pp. 43-45.
157. L.M. POUSSEREAU, « Changements survenus depuis un siècle dans la condition des bûcherons et des ouvriers forestiers du département de la Nièvre », in : *Bulletin de la Société scientifique et artistique de Clamecy*, 1927, pp. 36-54.
158. Jean-Charles SOURNIA, *Histoire et médecine*, 1982, p. 236.

159. *Ibid.*, p. 235.
160. Jean BERNARD cité in : « Le 28^e Congrès d'histoire de la médecine, tromper la mort », in : *Le Monde*, 8 septembre 1982.
161. Emile LITTRÉ, *Journal des débats*, 18 Juin 1856, cité par J.-Ch. SOURNIA, *op. cit.*, p. 237.
162. Claude BERNARD, *Introduction à l'étude de la médecine expérimentale*, cité par J.-Ch. SOURNIA, *op. cit.*, p. 236.
163. Alfred SAUVY, « Préface » à *Demain le Tiers-Monde : population et développement*, n° spécial de la *Revue Tiers Monde*, XXIV, n° 94, avril-juin 1983, p. 236.
164. Alfred SAUVY, *La Population*, 1963, p. 66.
165. A. SAUVY, Notes de lecture *Le Monde*, 14 septembre 1982.
166. John NAISBITT, *Megatrends*, cité par Jacques DUQUESNE, « Spécial 1983-2000, l'agenda du futur », in : *Le Point*, 7 nov. 1983, p. IV.
167. 10 pour mille en 1980, huitième place dans le monde, derrière la Suède, le Japon, la Finlande, la Suisse... avant les États-Unis et l'Allemagne (*Population et Sociétés*, août 1982, n° 160). En 1985, ce chiffre est passé à 8,3 pour mille (*ibid.*, n° 200).
168. Georges VALRAN, *Misère et charité en Provence au XVIII^e siècle*, 1899, pp. 22-23.
169. A. SAUVY, *H. économique de la France entre les deux guerres*, *op. cit.*, II, 1974, pp. 340-341.
170. Ange GOUDAR, *op. cit.*, 1756, I, pp. 271 et 275.
171. Jean AUFFRAY, *Le Luxe considéré relativement à la population et à l'économie*, 1762, pp. 29-30.
172. A. GOUDAR, *op. cit.*, p. 96.
173. Jean NOVI DE CAVEIRAC, *Paradoxes intéressants sur la cause et les effets de la révocation de l'Edit de Nantes, la dépopulation et repopulation du Royaume, l'intolérance civile et rigoureuse d'un gouvernement...*, 1758, p. 253.
174. Denis-Laurian TURMEAU de LA MORANDIÈRE, *Appel des étrangers dans nos colonies*, 1763, p. 21.
175. Chevalier de CERFVOL, *Législation du divorce*, 1770, pp. 62-63.
176. M^r MOHEAU, *Recherches et considérations sur la population de la France*, 1778, éd. 1912, p. 258.
177. Père FÉLINE, *Catéchisme*, 1782, p. 11, cité par Jean-Marie GOUESSE, « En Basse-Normandie aux XVII^e et XVIII^e siècles : le refus de l'enfant au tribunal de la pénitence », in : *Annales de démographie historique*, 1973, pp. 255-256.
178. M. MESSANCE, *Nouvelles Recherches sur la population de la France*, 1788, p. 27.
179. Jean-Pierre BARDET, *Rouen aux XVII^e et XVIII^e siècles, les mutations d'un espace social*, I, 1983, p. 263.
180. Guy ARBELLOT, *Cinq Paroisses du Vallage, XVII^e-XVIII^e siècles. Etude de démographie historique*, 1970, p. 225.
181. J.-M. GOUESSE, *art. cit.*, p. 231.
182. *Ibid.*, p. 251.
183. John NICKOLLS (pseudonyme de PLUMARD DE DANGEUL), *Remarques sur les avantages et désavantages de la France et de la Grande-Bretagne par rapport au commerce et autres sources de la puissance des États*, 1754, pp. 18-19.
184. Jacques DUPAQUIER, Marcel LACHIVER, « La contraception en France ou les deux malthusianismes », in : *Annales E.S.C.*, 1969, n° 6, p. 1401.
185. J.-P. BARDET, *op. cit.*, p. 265.

186. *Ibid.*, p. 272.
187. Jean GANIAGE, *Trois Villages d'Ile-de-France au XVIII^e siècle*, I.N.E.D., cahier n° 40, 1963, p. 131.
188. Antoinette CHAMOUX et Cécile DAUPHIN, « La contraception avant la Révolution française : l'exemple de Châtillon-sur-Seine », in : *Annales E.S.C.*, 1969, 3, pp. 662-684.
189. Raymond DENIEL et Louis HENRY, « La population d'un village du Nord de la France, Sainghin-en-Mélantois de 1665 à 1851 », in : *Population*, 1965, 4, pp. 563-602. Pour la Vendée, J.-L. FLANDRIN, *Les Amours paysannes (xvi^e-xix^e siècles)*, 1975, p. 242.
190. J.-M. GOUESSE, art. cit., p. 232 et note 6.
191. Marquise de SÉVIGNÉ, *Lettres*, I, éd. Pléiade, 1953, pp. 432, 433, 450; cf. aussi *La Prévention des naissances dans la famille, ses origines dans les pays modernes*, cahier de l'INED, n° 35, 1960, pp. 156-159.
192. J.-P. BARDET, *op. cit.*, p. 264.
193. Michel de MONTAIGNE, *Les Essais*, éd. Pléiade 1962, I, XIV, p. 58.
194. Textes du xvi^e siècle cités par Jean-Louis FLANDRIN, *op. cit.*, pp. 83 et 86.
196. Bricquebec, sept. 1708, cité par J.-M. GOUESSE, art. cit., p. 258.
197. M. de MONTAIGNE, *op. cit.*, I, XXX, p. 196.
198. Pierre de BRANTÔME, *Les Dames galantes*, éd. Maurice RAT, [1917], p. 25, cité par Jean-Louis FLANDRIN, « La vie sexuelle des gens mariés dans l'ancienne société : de la doctrine de l'Église à la réalité des comportements », in : *Communications*, 1982, pp. 108-109.
199. P. de BRANTÔME, *op. cit.*, pp. 32 et 27-28, cité par Jean-Louis FLANDRIN, « Contraception, mariage et relations amoureuses dans l'Occident chrétien », in : *Annales E.S.C.*, 1969, 6, pp. 1383-1384 et note 4.
200. P. de BRANTÔME, *op. cit.*, pp. 38-39, cité par J.-L. FLANDRIN, art. cit., p. 1385.
201. J.-L. FLANDRIN, « L'attitude à l'égard du petit enfant et les conduites sexuelles dans la civilisation occidentale », *Annales de démographie historique*, 1973, pp. 182 sq.
202. Cité par Hélène BERGUES, *La Prévention des naissances dans la famille*, INED, cahier n° 35, 1960, pp. 229-230.
203. M. de MONTAIGNE, *op. cit.*, I, XIV, p. 62.
204. Alfred SAUVY, « Essai d'une vue d'ensemble », in : *La Prévention des naissances dans la famille, ses origines dans les temps modernes*, *op. cit.*, pp. 389-390.
205. Ferdinand BUISSON, *Souvenirs (1866-1916)*, 1916, pp. 30-32.
206. Sur ce groupe, sa vie et son rôle social au xvi^e siècle, cf. George HUPPERT, *L'Idée de l'histoire parfaite*, 1973 ; *Bourgeois et gentilshommes. La réussite sociale en France au xvi^e siècle*, 1983. Pour la fondation des nouvelles écoles, au xvi^e siècle, George HUPPERT, *Public School France in Renaissance*, 1984.
207. Edgar QUINET, *Histoire de mes idées. Autobiographie*, [1878], pp. 78-79.
208. Cité par M. REINHARD, A. ARMENGAUD, J. DUPAQUIER, *Histoire de la population mondiale*, 1968, p. 336.
209. Michel-Louis LEVY, « Les étrangers en France », in : *Population et société*, juillet-août 1980, n° 137. Les chiffres qui précèdent sont empruntés à ce même article.
210. *Ibid.*
211. *Ibid.*
212. Cité par F. BRAUDEL, *La Méditerranée... op. cit.*, II, p. 129.

213. Augustin BARBARA, « Un muscle seulement ? », in : *Le Monde*, 25 juillet 1980.
214. En 1984, aux Etats-Unis, certaines industries de pointe trouvaient plus avantageux, pour réduire leurs coûts, de recourir à l'off-shore manufacturing (en Asie le plus souvent) plutôt qu'à la main-d'œuvre mexicaine.
215. Jean-François DUPAQUIER, « Les familles d'immigrés ne veulent pas jouer les « bourgeois »... mais avec 8 ou 9 enfants, les appartements sociaux leur sont interdits », in : *Le Quotidien de Paris*, 27 mars 1980.
216. C'est ce que pensent d'ailleurs la majorité des Français : selon un sondage du Figaro-Sofres (novembre 1985), 90 % trouvent normal que les immigrés qui cotisent reçoivent allocations de chômage et allocations familiales, bien que 71 % souhaitent le renvoi dans leur pays des immigrés clandestins.
217. Nathaniel Weyl, *Karl Marx, racist*, 1980.
218. Art. cit. in : *Le Monde*, 25 juillet 1980.
219. Ce que confirme une étude biologique réalisée par l'INSERM, à partir de milliers de tests sanguins, tant en ce qui concerne les groupes sanguins que les combinaisons de gènes. Réalisée sur des familles installées dans leur région depuis au moins trois générations, elle prouve « la grande diversité de nos origines ethniques », avec des différences régionales parfois surprenantes, révélatrices de très anciens courants migratoires. Franck NOUCHI, « Une étude biologique démontre le "métissage" du peuple français », in : *Le Monde*, 25 octobre 1985.
220. Bernard STASI, *L'immigration, une chance pour la France*, 1984, p. 13.
221. « Après les accusations de Begin, les Français sont-ils antisémites ? Oui, dit Serge Koster, qui pense qu'il n'y a pas de discours innocent sur Israël », in : *Le Quotidien de Paris*, 12 août 1982.
222. « Un équilibre sans cesse remis en question », in : *Le Quotidien de Paris*, 2 avril 1980.
223. Jean-François DUPAQUIER, « Quand les bougnoules étaient ritals... », in : *L'Événement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 48-49, qui se réfère à *L'Emigrazione italiana in Francia prima del 1914*, J.-B. DUROSSELLE et E. SERA, Milan 1978.
224. Jean-François DUPAQUIER, « Quand les bougnoules étaient polaks... », in : *L'Événement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 50-51.
225. Judith SAYMAL, « Si ma sœur épouse un Français, je la tue ! », in : *L'Événement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 40-41.
226. Tahar BEN JELLOUN, « Les jeunes et la mère amnésique », in : *Le Monde*, 25 juillet 1980.
227. G. LECLERC-COUTEL, « Ne pas mourir deux fois », in : *Le Monde*, 25 juillet 1980.
228. Jean ANGLADE, *La Vie quotidienne des immigrés en France de 1919 à nos jours*, 1976, pp. 105 sq.
229. Débat : « Les immigrés parmi nous », *Le Monde*, 19-20 juin 1983.
230. Jean-François MONGIEAUX, « L'album de voyage de petits maghrébins au Maghreb », in : *Le Quotidien de Paris*, 7 septembre 1982.
231. Enquête en Kabylie de Jacques MAIGNE, « Le double exil des immigrés qui choisissent le "grand retour" », in : *Libération*, 7 novembre 1983.
232. Enquête à Alger de Michel AREZKI, « Les émigrés, ces étrangers de l'intérieur », in : *Libération*, 9 novembre 1983.

- 233. *Ibid.*
- 234. Enquête en Kabylie de J. MAIGNE, art. cit.
- 235. *Ibid.*
- 236. *Ibid.*
- 237. Jean-François DUPÂQUIER, « L'Islam ou le bulletin de vote ? », in : *L'Événement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 34-38.
- 238. Léo HAMON, « Une seule appartenance », in : *Le Monde*, 23 mai 1980.
- 239. J.-F. DUPÂQUIER, art. cit., p. 37.
- 240. *Ibidem*, J.-F. DUPÂQUIER, « Le pays réel, c'est la France », *ibid.*, p. 41.
- 241. Jean-François HELD, « Comment faire des Français avec du Beur ? », in : *L'Événement du jeudi*, 13-19 juin 1985, pp. 32-33.

فهرست الاشكال

- ١- توزيع الماموث بين عامي ١٥,٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد - - - - - 20
- ٢ - التعقد المتزايد للأدوات، ١٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ قبل الميلاد - - - - - 22
- ٣ - التوزيع الجغرافي لآثار إنسان نياندرتال (٧٥٠٠٠ - ٣٥٠٠٠ قبل الميلاد) - - - - - 24
- ٤ - فن جدران الكهوف الذي يصور الحيوانات ١٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ قبل الميلاد - - - - - 26
- ٥ - الجماعات الفلاحية الأولى في فرنسا، من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل الميلاد - - - - - 31
- ٦ - مناطق الغرين والطمي في أوروبا - - - - - 33
- ٧ - التوزيع الجغرافي للأضرحة في فرنسا من الألف الخامسة إلى الألف الثالثة قبل الميلاد - - - - - 36
- ٨ - المواقع الرئيسية لبدايات العصر النيوليتي في فرنسا من الألف السادسة إلى الألف الرابعة قبل الميلاد - - - - - 37
- ٩ - مواقع الألفين الرابعة والثالثة قبل الميلاد - - - - - 38
- ١٠ - مواقع عصر البرونز في فرنسا - - - - - 44
- ١١ - مواقع العصر الأول للحديد (٧٠٠ - ٥٠٠ قبل يسوع المسيح) - - - - - 46
- ١٢ - غاليا الكلتيّة في القرن الثاني قبل يسوع المسيح - - - - - 50
- ١٣ - الفتوحات الكلتيّة (بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد) - - - - - 52
- ١٤ - غاليا قبل الفتح الروماني - - - - - 60
- ١٥ - الاستيطان في حوض اللوان في الأزمنة النيوليتية واليوم - - - - - 64
- ١٦ - فتح قيصر لغاليا (٥٨ - ٥٢ قبل يسوع المسيح) - - - - - 69
- ١٧ - القنوات الرومانية في ليون - - - - - 80
- ١٨ - طرق غاليا الرومانية - - - - - 81
- ١٩ - الشبكة الحضرية في غاليا الرومانية - - - - - 82
- ٢٠ - غزوات القرن الثالث بعد الميلاد - - - - - 84
- ٢١ - اقتصاد العالم الروماني - - - - - 96

٢٢ - التوسع الفرانكي	102
٢٣ - غاليا في عهد داجوبير	104
٢٤ - الامبراطورية الكارولينجية	110
٢٥ - فرنسا في ظل آل كايه	129
٢٦ - طواحين قديمة على الأندر	141
٢٧ - المدن المتصلة بأسواق شامپانيا	
الكبرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر	144
٢٨ - خريطة العمارة القوطية	146
٢٩ - انتشار الطاعون الأسود (١٣٤٧ - ١٣٥١)	154
٣٠ - الاقتصاد العالمي الأوروبي في عام ١٥٠٠	161

المحتويات

المجلد الثاني: الناس والأشياء

- 5 تمهيد
- الجزء الأول: العدد والتقلبات الطويلة
- 11 الفصل الأول: السكان منذ ما قبل التاريخ إلى العام ألف
- 13 I حول السكان في الأزمنة قبل التاريخية
- وفرة زمانية (15) - الأجسام والأدوات (19) - من العصر الحجري إلى الزراعة: التغير العظيم (28) - تباين الخواص، التنوع (30) - عصر المعادن (40) - كلتيون أم غالليون: عن حضارتهم بأكثر مما عن تاريخهم (48) - انتصار العدد (61).
- 67 II من غاليا المستقلة إلى غاليا الكارولينجية
- تفسير فتح الرومان لغاليا، إذا كان ذلك ممكناً (68) - أوج غاليا الرومانية في ظل كومودوس (77) - غاليا الرومانية في وجه متاعبها الداخلية وغزوات البرابرة (83) - تمرد من المستحيل إطفاء ناره (85) - ومع ذلك، لا يجب أن ننسى غزوات البرابرة (91) - روما، اقتصاد عالم (95) - غاليا الميروفينجية (100) - هل كانت هناك امبراطورية كارولينجية؟ (108) - مولد أوروبا؛ مولد وتدعيم الإقطاع (112) - غزوات البرابرة الأخيرة (114) - الاقتصاد والسكان (115) - الدورات تنقلب (121).
- 123 الفصل الثاني: السكان من القرن العاشر إلى أيامنا
- I دورة متعددة القرون شبه مكتملة أو الحداثة الأولى لفرنسا وأوروبا (٩٥٠ - ١٤٥٠)
- 125 القرن العاشر أو نهاية روما (125) - صعود أوروبا الأولى (130) - فرصة فرنسية: أسواق شامانيا ويري الكبرى (142) - التوسع الجغرافي: الحملات الصليبية (147) - الطريق الهابط (١٣٥٠ - ١٤٥٠) (148) - الطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة (151) -

	عودة إلى الاقتصاد العالمي (156) - أوروبا ومصير فرنسا (159).
162	II ١٤٥٠ - ١٩٥٠ : منحنى صاعد، ويا له من منحنى! مراحل متعاقبة (165) - هل يوجد تفسير أو تفسيرات ممكنة للسيروتات الديموجرافية قبل عام ١٨٥٠؟ (174). III المشكلات الأحدث: انتصارات الطب، الحد من المواليد، الهجرة الأجنبية
177	الطب والصحة العامة (179) - الحد من المواليد (183) - موقف الكنيسة (191) - الحالة الفرنسية (194) - الهجرة الأجنبية: مشكلة حديثة (198) - مشكلة اقتصادية (201) - المشكلة العنصرية (203) - مشكلة ثقافية (206).
217	الحواشي
235	فهرست الأشكال
237	المحتويات

رقم الإيداع ٢٨٢٢/٢٠٠٠

I.S.B.N.

977-305-196-x

طبع بمطابع المجلس الأعلى للآثار

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد برويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتكوف	ت : أحمد الحضري
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أنثرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العناتى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : تخبه
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحادثة	بول . ب . بيكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	أن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدي أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت جُ دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برانة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكي
مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بيناليستي	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسي التديمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج .	ت : لطفي فطيم وعادل دمرdash
الدراما والتعليم	روجسيفيتز وروجر بيل	
المفهوم الإغريقي للمسرح	أ . ف . ألنجاتون	ت : مرسى سعد الدين
ما وراء العلم	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	جون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : محمد أبو العطا
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : السيد السيد سهيم
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	ت : صبرى محمد عبد الغنى
لذة النص	رولان بارت	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : محمد خير البقاعى .
يرتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
في مدح الكسل ومقالات أخرى	يرتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : رمسيس عوض .
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : المهدي أخريف
العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أشرف الصباغ
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمي
		ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد رويرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر خلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم القمرى
الجماعات المتخيلة	بنكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميغيل	ميغيل دى أونامونو	ت . محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	أنتونى جينز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميغل دى ترباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح	كارلوس ميغل	ت : نادية جمال الدين
الإسبانونأمريكى المعاصر	مايك فينرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
محدثات العولة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
الحب الأول والصحية	أنطونيو بويرو بايخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
مختارات من المسرح الإسبانى	قصص مختارة	ت : إيوار الخراط
ثلاث زنبقات ووردة	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
هوية فرنسا	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
تاريخ السينما العالمية	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
مساءلة العولة	بيرنار قاليط	ت : رشيد بنحوي
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
السياسة والتسامح	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيسى
قبر ابن عربى يليه آباء	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
أوبرا ماهوجنى	چيرارجينيت	ت : عبد العزيز شبيبيل
مدخل إلى النص الجامع	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دغور
الأدب الأندلسى		

صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسييس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
رأية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمىة رمضان
امراة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر وفنابولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
الفجر الكانج	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بليغ
التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديقى	ت : سمحه الخولى
فعل القراءة	قولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندز فرانك	ت : شوقى جلال
مصر القيمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
ثقافة العولة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
تشريح حضارة	يارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
المختار من نقدت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كبتيث كونو	ت : سحر توفيق
مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيقلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
پارسيقال	ريشارد فاچتر	ت : مصطفى ماهر
حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى

صاحبة اللوكاندة	كارلوس جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان
موت أرتيميد كروث	كارلوس فويتس	ت : أحمد حسان
الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البعبي
خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوي
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر

(نحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر	من المسرح الإسباني المعاصر
الجانب الدينى للفلسفة	تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
الولاية	حكايات ثعلب
المدارس الجمالية الكبرى	شامبوليون (حياة من نور)
مختارات من الشعر اليونانى الحديث	الحرورية الهاربة
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	الإسلام فى السودان
عدالة الهنود	العربى فى الأدب الإسرائيلى
جان كوكتو على شاشة السينما	آلة الطبيعة
الأرضة	ضحايا التنمية
غرام الفراعنة	المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة	أيدولوجى
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى	تاريخ الكنيسة
العنف والنبوة	فن الرواية
خسرو وشيرين	ما بعد المعلومات
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
وضع حد	المهلة الأخيرة
التليفزيون فى الحياة اليومية	الهيولية تصنع علماً جديداً
أنطوان تشيخوف	مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها

FERNAND BRAUDEL

L'IDENTITE DE LA FRANCE

Les Hommes et les Choses



إن الجزئين اللذين يشكلان المجلد الثاني من كتاب هوية فرنسا - الناس والأشياء ، إنما يدوران حول موضوعين ، تجرى دراستهما في الأمد الطويل : الديموجرافيا ، الاقتصاد .

والجزء الأول ، انطلاقاً من معيار عدد الناس أساساً ، إنما يدرس فرنسا في أطرها الزمانية الرئيسية . وهكذا تظهر سلسلة من الفرنسات المتعاقبة ، المختلفة والمتشابهة ، السعيدة أو المعذبة ، المحظوظة أو المحرومة ، بحسب التقلبات الطويلة التي أثارت الجماهير الحية للتاريخ الفرنسي ، علي مر العصور . وإعادة القراءة المنهجية هذه لماضي فرنسا إنما يجرى الاضطلاع بها بدءاً من أزمنة ما قبل التاريخ البعيدة إلى أيامنا الحاضرة . إن أشكال التقدم وأشكال التقهقر ، الانطلاقات والانتكاسات ، تتعاقب من غالبا الكلتية في منتصف القرن الرابع عشر إلى الجائحة الديموجرافية المترتبة علي الطاعون الأسود وحرب الأعوام المائة التي أدت ، من عام ١٣٥٠ إلى نحو عام ١٤٥٠ ، إلى اختفاء نصف السكان أو أكثر من نصفهم . وهذا البتر يمزق تاريخ فرنسا بشكل عنيف . وعلى الرغم من المجاعات ، المتكررة أيضاً حتى القرن الثامن عشر ، وبالرغم من الحروب ، وبعضها جد قاتل ، فإن فرنسا لن تعرف بعد كوارث مماثلة . إن عصراً ديموجرافياً جديداً إنما يكفل منذ ذلك الحين فصاعداً تزايداً للسكان ، سريعاً إلى هذا الحد أو ذاك ، منتظماً إلى هذا الحد أو ذاك ، بما فيه من توقفات وتقهقرات مؤقتة ، لكنه يعرف بعد التوقف عن التواصل منذ خمسة قرون .

إن مشكلات فرنسا اليوم لها أسماء أخرى : انخفاض نسبة المواليد قياساً إلى مجموع السكان ، وهو انخفاض عام في أوروبا لكنه بدأ في فرنسا في وقت أسد بكثير مما عند جيرانها - بما يشكل ظاهرة أصيلة يتوجب تفسيرها - ، والهجرة إلى فرنسا ، وهي مشكلة ملحة .